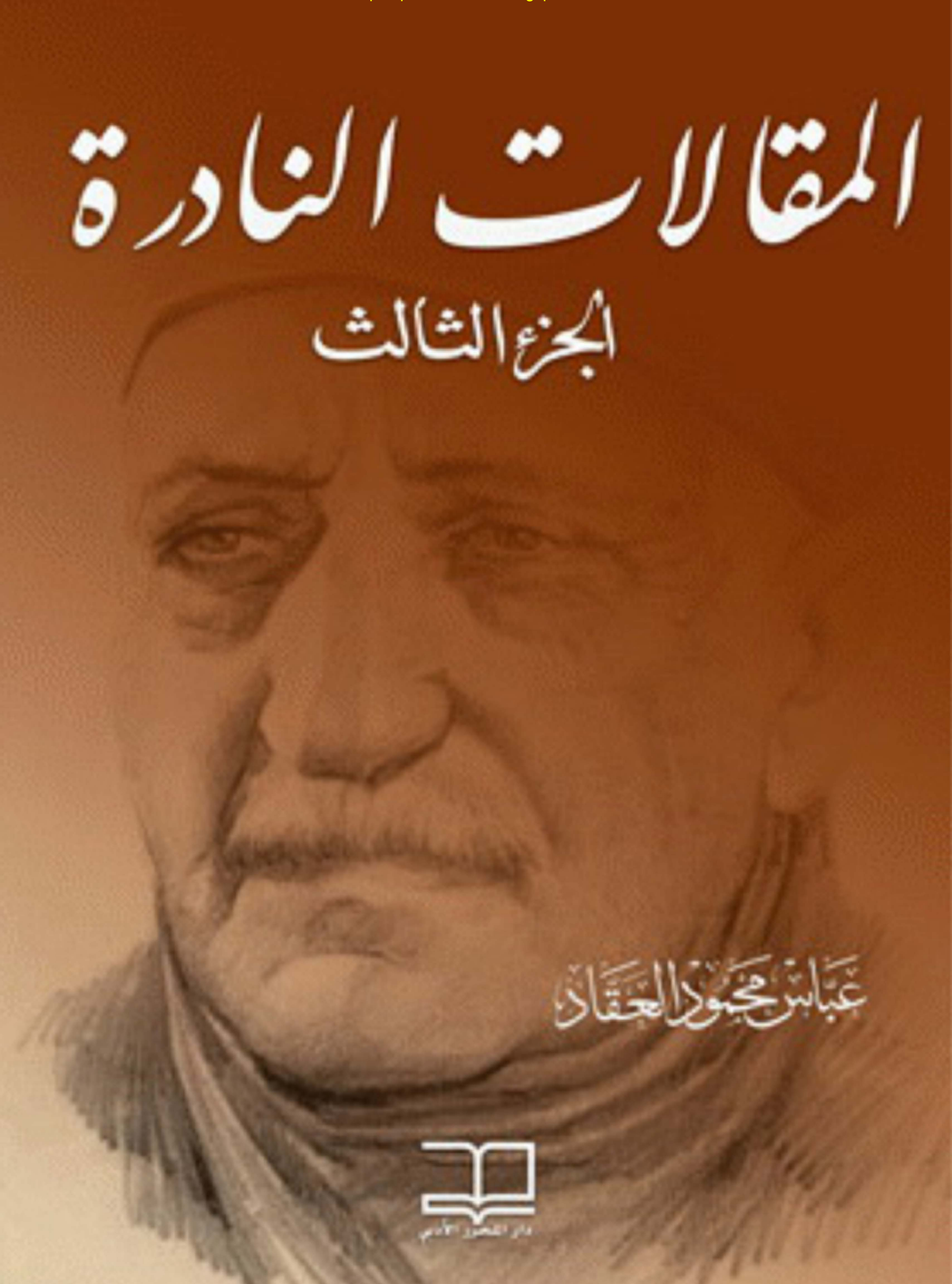

المقالات النادرة
الجزء الثالث
عباس محمود العقاد

جمهرة مقالات

عباس محمود العقاد

الجزء الثالث

(الحب الضائع)

جمع وترتيب وتعليق

محمد حامد



أقتُرح على المجمع اللغوي تأليف معجم للألفاظ القرآن الكريم، فذهبت أنظر في المعاجم والموسوعات التي عندنا وعند غيرنا من هذا القبيل، فلم ألبث أن رأيت بعد مقابلة يسيرة أننا في هذا الباب جد فقراء.

عند الأوربيين موسوعات مختلفة الأحجام والأغراض لأسفارهم الدينية ومأثوراتهم المقدسة , فللتوراة والإنجيل موسوعات صغيرة تفسر الأسماء والأعلام والوقائع والألفاظ، فلا تذكر في الكتابين اسم رجل أو بلد أو قبيل إلا استطعت أن ترجع إليه في موضعه، فتعرف شيئا عن تاريخه وموقعة ومناسبة ذكره؛ فإذا بك أمام كتاب يكاد أن يفيدك في كل شئ، ولا تنحصر فائدته في فهم التوراة والإنجيل ولهذين الكتابين موسوعات صغيرة أيضا تتناول الآيات والأجزاء على الترتيب، فتقرن بين بعضها وبعض، وتقابل بين الفرائض المختلفة من قديم وحديث، وتفسر مدلولاتها على حسب العصور والمصادر اللغوية، فتجمع بين معرفة مدلولاتها على حسب العصور والمصادر اللغوية، فتجمع بين معرفة الشريعتين الموسوية والمسيحية، وكل معرفة لها بهاتين الشريعتين اتصال وعندهم موسوعة للطيور التي ورد ذكرها في التوراة، أو للأشجار والأزهار التي تكلم عنها الأنبياء، فيستفيد منها الباحث في علمي الحيوان والنبات، كما يستفيد منها الباحث في الدين أما الموسوعات المطولة الشاملة فهي ذخائر من المعلومات لا تند عنها دانية ولا قاسية من موضوعات المسيحية أو الموسوية، وقد يلتبس على القارئ الأمر بين دوائر المعارف العامة التي تتناول كل شئ وكل مادة، وبين دوائر المعارف الدينية التي يظن من عنوانها إنها مخصصة ولو بعض التخصيص لناحية من نواحي الحياة الإنسانية بل عندهم معاجم صغيرة للإسلام ليس لها نظير في اللغة العربية ولا في لغة من اللغات التي يتكلم بها المسلمون من ذلك قاموس الإسلام الذي وضعة توماس باترك قبل نيف وخمسين سنة ثم أعيد طبعة قبل بضع سنوات.

فهذا القس قضى في التبشير بين المسلمين والبرهميين والبوذيين ببلاد الهند اكثر من عشرين سنة، ودرس خلال ذاك ما استطاع أن يدرسه من التواريخ والمباحث الإسلامية، ثم جمعها في هذا القاموس أو هذا المعجم كما قال هداية للموظفين الذين يتولون الحكم بين المسلمين، ومساعدة للمبشرين الذين يجادلون علماء الإسلام، وللسائحين الذين يطوفون بلاد المشرق، وللباحثين الذين ينظرون في المقارنة بين الديان، ولكل من يشغله عمله أو نزعة فكره بشأن من شئون المائة والخمسة والسبعين مليونا (هكذا) من الأناسي الذين يتبعون محمدا عليه السلام.

ولكني أقول معترفاً إنني أرجع إلى هذا القاموس حين يستعصي علي الرجوع إلى المطولات الدينية للوقوف العاجل على مسالة من المسائل الإسلامية، سواء تناولت الفقه أو التاريخ أو تقويم البلدان، ولا أرى مناصاً من مراجعة هذا القاموس وأمثاله على عاميّ بما فيها من الزيغ المقصود ومن التعصب الذي لا تخلو منه كتب المبشرين

ويتفق كثيرا أن يخوض بعض الجلساء في مسألة من مسائل الفقه الإسلامي لا يحضرنا الفقيه الحجة الذي نستفتيه فيها، أو نستدل منه على مراجعها، فما هي إلا لحظات حتى أوافيهم بالفتوى المجملة، أو بالدلالة على مظانها ومواقع استقصائها. ويعجبون فيزداد عجبهم حين أطلعهم على قاموس من هذه القواميس التي ليس اسهل من البحث فيها: كتاب إنكليزي يدلنا أسرع دلاله على مراجعنا نحن المسلمين أبناء العربية... فلم لا نعجب ويعجبون؟!

إننا فقراء.

وقد نعلل الفقر في علوم الدنيا بخروجها في الزمن الحديث من أيدينا، فهل خرجت من أيدينا كذلك علوم ديننا؟ وهل البواعث الدينية التي عندنا أقل من أن تحقق لنا ما يحققه الغربيون ببواعث الشوق إلى المعرفة أو بواعث الشوق إلى السيادة؟

الحق أن الشوق إلى معرفة الدين نفسه تحتاج قبل ذلك إلى شوق المعرفة في أعم معانيها، وأن العجز عن العلم والسيادة يورث العجز عن الإيمان والعقيدة، حتى بين المتدينين المعتقدين وأني لأجيل الفكر في هذا وأشباهه إذا بالمجلد الرابع من (دائرة

المعارف الإسلامية) يصل إلى يدي، وهي الدائرة التي ألفها نخبة من المستشرقين بالغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية، وثابر على نقلها إلى اللغة العربية الأدباء الأساتذة: (أحمد الشنتناوي، حافظ جلال، عبد الحميد يونس، إبراهيم خورشيد) من متعلمي الأدب والقانون

قلت: وهذا عمل ضخم كنا نحن أبناء العربية أولى بابتدائه وسبق الأمم كافة إليه وأستضخمت مع ذلك نجاح هؤلاء الأدباء الشبان في الوصول بالترجمة إلى هذه المراحل البعيدة، لأن عملهم في ترجمتها أصعب بين المشارقة من عمل المستشرقين في تأليفها وتحضيرها بين البيئات الأوربية

هناك تمهيد ملايين يعين على هذه الأعباء، وهنا تمهيد أفراد معدودين قلما يعاونهم أحد، وقد يثني عزائمهم ملايين!!

ففي بضع سنوات أتم مترجمو الدائرة الإسلامية ترجمة آلاف ثلاثة من الصفحات المزدوجة: كلها مصطلحات وإشارات مختزلة: وإحالة إلى مراجع مختلفة، وفيها من شعاب المعرفة ما ليس مقتصرا على الدين ولا على التأريخ ولا على السياسة ولا على المواقع الأرضية، بل يشمل هؤلاء جميعا ويزد عليها ما ليس يحصى ولابد أن يدخل في حساب هذه السنوات حساب التبويب والتقسيم وإعادة الحروف الإفرنجية إلى الأبجدية العربية

فقبل أن يتناول القلم بالترجمة صفحة من ألوف الصفحات التي اكتظت بها المجلدات الإفرنجية ينبغي أن تترجم المواد واحدة واحدة ثم تدون في أجذاذها[1] وتنتظم في ترتيبها الجديد: فلا تأتى الكلمات المبدوءة بحرف العين في المجلد الأول، بل تؤخر إلى موضعها من ترتيب الأبجدية العربية، ولا تبقى (أشبيلية) مثلا في حرف السين كما تكتب في الإفرنجية بل تقدم إلى حرف الهمزة، ولا تتأخر أسماء إسماعيل وإبراهيم وإدفو إلى الحرف التاسع أو الخامس بل يؤتى بها مع الحرف الأول والأجزاء الأولى. وليس هذا العناء بأقل من عناء الابتداء بتحضير المواد والكلمات. ولعل النقل وإعادة الترتيب

[1] القطع الصغيرة

عرضة لأخطاء لا يتعرض لها البادئون بتدوين الأسماء كما تكتب في لغات الأوربيين فالوقت الذي يقضي في هذا التبويب الجديد ليس بالوقت القصير، واستدراك الخطأ فيه من أصعب الأمور، ووراء مشكلة الوقت مشكلة الإقبال على هذه الأعمال، ومشكلة المثابرة وهي أعضل ما نعانيه في كل عمل مديد الأجل متشعب الفروع، ومشكلة الأزمات الدولية والأزمات الداخلية التي تثقل على كاهل التجارة الرائجة والسلع الضرورية للمعيشة اليومية، فكيف بتجارة العلم وسلع القراءة!

قال الأدباء المترجمون في الجزء الأول من أجزاء الترجمة العربية: (. . . اختمرت فكرة ترجمة تلك الدائرة في رءوسنا منذ أعوام ثلاثة فعكفنا على دراسة المشروع من جميع نواحيه وألممنا بكل الصعوبات المادية والمعوية التي كثيرا ما تعترض الأعمال العلمية والأدبية في مصر، وظلت هذه الصعوبات حائلاً بيننا وبين تحقيق أمنيتنا، ولعلها كانت عين الصعوبات التي وقفت في سبيل غيرنا ممن حاولوا تحقيق تلك الأمنية، حتى لاح لنا أننا كنا مخطئين حين حاولنا أن نحل الصعاب كلها دفعة واحدة، فرأينا أخيرا أن نقسم العمل إلى أقسام ثم نشرع في التطبيق خطوة خطوة، وشعارنا أن كل شيء متيسر مستطاع)

وعندنا أن هذا الخاطر هو العلامة الأولى للعزيمة العاملة، لأن القدرة على تقسيم الصعوبات ضرب من القدرة على تذليلها، وليس أدل على النصر من قدرة القائد على تفرقة الخصوم وهزيمتهم فرقة بعد فرقة. فلو لم يكن الأدباء مترجمو الدائرة أهلا لفضيلة المثابرة لما كانوا منذ البداية أهلا لتصغير الصعوبات بتفريقها والتغلب على أجزائها، أو على رهبة الأحجام التي تلازم من يجمع الصعوبات ويستضخمها ويزيد عليها من الوهم ما ليس فيها

لقد شرع بعض الكبراء كما شرع بعض الدواوين الحكومية في طبع موسوعات دون هذه الموسوعة في حجمها وتعقيدها، وكان منها ما ليس يحتاج إلى ترجمة قبل طبعه، ومنها ما يحتاج إلى ترجمة ولا يحتاج إلى إعادة تبويب. ثم وقفوا عند البداية أو بعد خطوة قصيرة من البداية، فانفراد الأدباء مترجمي الدائرة بالمثابرة على هذا العمل

الكبير مزية جديرة بالتسجيل في حياتنا الفكرية، ولهم حق في التهنئة بما جاهدوا وثابروا على قدر هذه الفضيلة النادرة، وعلى قدر الحاجة إلى تلك الدائرة، وهي حاجة توجبها الرغبة القومية كما توجبها الرغبة في العلم والثقافة

لكننا لا نكتفي بالتهنئة، بل نضيف إليها اقتراحاً في صدد ما أسلفناه من شكوى الافتقار إلى الموسوعات الموجزة في أمثال هذه الموضوعات. فمن اليسير على من ينهضون بعبء الدائرة الكبرى أن يتابعوا اختصارها وهم يترجمونها وينشرونها لتخلص لهم من ذلك في سياق العمل موسوعة صغيرة ينتفع بها عدد من القراء أكبر ممن ينتفعون بالموسوعة الكبيرة؛ بل ينتفع بها من لا يقدرون على التوسع في العربية ولا في اللغات الإفرنجية، وهم أحوج إلى النفع وأولى بالعناية، وليس النقص الذي نتممه بتفهيم هؤلاء دون النقص الذي يتم باستيفاء مراجع الإفاضة والاستقصاء.

عود إلى الفكر و(السلطة)

راجعني الأديب أليس إبراهيم بدوي فيما كتبت بالرسالة منذ أسابيع عن (الفكر والسلطة)، وكتب إليّ يقول:
(اسمح لي بأن أضيف إلى الأسباب الأربعة التي ذكرتها في إيضاح الدافع إلى طلب السلطة سبباً خامساً، وإن لم يكن بسبب، فهناك أناس يطلبون السلطة كحق من حقوقهم الموروثة أو تقليد من تقاليد الأسرة التي لا يليق بهم التخلي عنها. ولعل هذا السبب أبرز الأسباب نتائج من حيث طلب السلطة، ليس في هذا البلد وحده، بل في جميع البلدان بوجه عام)
وأتبع ما تقدم بقوله: (وكان لابد أن ينشأ عن هذا السبب سبب سادس معاكس له: سبب يدفع بالرجل الموهوب ذي الشخصية العارمة والإرادة المدربة إلى النظر إلى مثل أولئك الأفراد المتهافتين على السلطة نظرة متعالية، نظرة من يعتقد مخلصاً أنه أحق منهم إذ كانت الغاية من الحصول على السلطة استخدامها في بناء مجد للوطن. وإن مثل هذا الرجل ليعتبر في رأيي خائناً لرسالة ممتازة خلق لها إذا لم يعمل على نيل الأداة التي يمكنه بها إبراز مواهبه وممكناته وقدرته على الخلق والإبداع. وما قيمة المتعة الفكرية أو الذوقية إذا لم يستطع الرجل أن يستثمر قدرته البناءة بمطلق طاقته وحيويته)
ثم يقول الأديب: (أما صاحبنا (ديزرائيلي)، فلم أذكر اسمه نموذجاً، بل ذكرته عرضاً كرجل كانت له نفسية الأديب ودقة إحساسه بالحياة، وفق إلى كسف عناصر القوة في نفسه فسخرها في سبيل بلوغ المنصب الأعلى للحكم... وربما كان في التاريخ الأمريكي والبريطاني والفرنسي كثير ممن يصح أن يتخذوا أمثالاً. وربما كان عندنا هنا من يصح أن يذكر في معرض التمثيل. غير أن عدم وجود أمثال لا يمنع من خلق أمثال وابتداع خطط جديدة في الحياة والعمل)

ثم يقول في ختام خطابه: (فإذا كنت تعتقد أنه لا يمكن الجمع بين الأدب والإدارة فهذا رأيك وأنت حر فيما ترى. ولئن كنت أشك في صحة هذا الاعتقاد فما يعزز شكي ما قرأته لك في رجعة أبي العلاء في معرض كلامك عما كان يساور أبا العلاء من طموح إلى السلطان لولا ظروفه الجسمية الخاصة التي حالت بين عقله الكبير وما أراد. وهو القائل:

ولم أعرض عن اللذات إلا ... لأن خيارها عني خنسته)

ويلوح من خطاب الأديب أن صاحبه ممن يحبون الاستدراك لمحض الاستدراك، وهو طبع في غير قليل من الناس.

فنحن نقول إن أسباب طلب السلطة هي فطرة الرياسة، أو حب الامتياز، أو اتقاء شرور المسيطرين، أو الرغبة في تسخير الأداء الحكومية للإصلاح، فيأتي صاحب الخطاب بسبب خامس هو ميراث السلطة عن الآباء والحرص على بقائها في الأسرة! كأنما هذا السبب لا ينتهي إلى واحد من الأسباب الأربعة التي قدمناها! أو كأننا حين نقول إن الناس يرثون البيوت ننفي أن البيوت تبنى للسكنى، أو كأننا حين نعلم أن الناس يصنعون الطعام ليبيعوه ننفي أن نهاية الطعام هي الغذاء سواء صنع في الأسواق أو صنع في الدور.

فالناس لا يحبون أن يرثوا السلطة إلا لأنها تكفل لهم غرضاً من الأغراض التي قدمناها. وإلا فما بالهم لا يحرصون على وراثة المسكنة من آبائهم المساكين؟ وما بالهم لا يحتفظون في الأسرة بالديون والمغارم والوصمات؟

إنما يحرصون على بقاء السلطة في ميراثهم لأنها مطلب محبوب، وإنما هي مطلب محبوب للأسباب التي قدمناها لا لأنها تركة موروثة عن الآباء.

أما أن المفكر النابغ مفروض عليه طلب السلطان، فهذا خلاف للواقع، وخلاف للقياس المطرد في (تطور) الملكات.

ففي الواقع لم يوجد قط مفكر موهوب وعبقري مثمر في عالم الفنون تخلى عن الفكر والفن ليطمح إلى الحكم وإدارة الدواوين.

وقبل أن يوجه إلينا الأديب خطابه الأول كنا نكتب (هتلر في الميزان) فقلنا من فصل عن كفاءته الذهنية: (إن الحقيقة الراسخة من وراء كل جدل وكل مراء هي أن الفنان الموهوب لن يترك فنه ليعقد مصيره بالسياسة وغيرها من المطالب كائناً ما كان نصيبه منها، لأن الهبة الفنية كالوظيفة العضوية التي لا تقبل الإهمال، ولا تزال في إلحاحها على صاحبها كالهيام القلبي في إلحاحه على العاشق الممتلئ بالحياة، فلا هو يغفل عنها ولا هي تمهله إلى زمن طويل.

(وهذه الحقيقة وحدها بنجوة عن جميع الأقاويل وجميع الأسانيد. هي الحكم الحاسم في كفاءة هتلر الفنية، أو فيما يدعيه من مواهب التصوير والبناء. فهي لن تعدو الطبقة الوسطى بحال، ولن تتجاوز نصاب التذوق الشائع بين مصطنعي النقد والموازنة في الفنون)

فهذا رأى قديم لنا نبنيه على الواقع كما نبنيه على المعقول، لأن التاريخ لم يذكر لنا قط اسماً واحداً من أسماء العباقرة الفنيين طلق الفن ليحكم الناس ويطلب السلطة. وليس بمعقول أن تمتعه السلطة كما يمتعه الخلق في عالمه الفني الذي يصرفه تكوينه إليه.

وهذا الرأي مطابق لسنة التطور التي تنتقل من الجمع إلى التوزيع، من حصر الملكات إلى انتشارها في عقول كثيرة.

فاتفق في زمن من أزمان الهمجية أن حاكم القبيلة كان حكيمها وساحرها وكاهنها وطبيبها وحافظ تاريخها. فهو فيها جامع لوظيفة السياسة ووظيفة الدين ووظيفة العلم ووظيفة الفن والثقافة، ثم انقضى هذا العهد وتوزعت الملكات وأصبحت كل وظيفة من هذه الوظائف شعباً لا تحصى ومقدرة يستعصي الجمع بينها وبين غيرها، ولا يؤدي هذا الجمع إلى مصلحة للنابغ ولا للمنتفعين بنبوغه.

وبعد هذه الدهور المتطاولة يأتي من يزعم أن إعراض المفكرين وعباقرة الفن عن طلب الحكم خيانة لأمانة النبوغ إذا كانوا يستخدمون السلطة في بناء مجد الوطن. . .

ويسأل: ما قيمة المتعة الفكرية أو الذوقية إذا لم يستطع الرجل أن يستثمر قدرته البناءة بمطلق طاقته وحيويته؟

فما قيمة الحياة نفسها بغير متعة فكرية أو ذوقية؟ وما قيمة مجد الوطن إذا خلا من المفكرين والعباقرة الذين يعيشون ويموتون للفكر، ويعيشون ويموتون لمتاع الأذهان والأذواق؟ أكل مجد الوطن إذن في رفع الأيدي بالسلام، ودق الأرض بالأقدام، وخطوة إلى الوراء وخطوة إلى الأمام، وتفرج على السلطة ومواكب السلطة أيام الزحام؟

أهذا هو مجد الوطن الذي يخونه أمناء الفكر والذوق لأنهم لا يتطلعون إلى السلطة ولا يتحولون جميعاً إليها كلما وفر عندهم نصيب الفكر والذوق؟

أن كان الأديب يخال أن المفكر الصادق التفكير لن يشعر بالامتياز إلا وهو متسلط في الحكومة، ولن يقعد عن طلب التسلط في الحكومة إلا لأنه عاجز عنه، فهو بعيد كل البعد عن دخائل العظمة الفكرية التي هي عظمة لا شك فيها وإن لم يكن لها في الحكم سلطان.

لكن العجب في هذا أن الزهو بالعقول شائع بين جمهرة الناس، فكيف يفوت الأديب صاحب الخطاب أن يفطن إلى زهو العقول العالية التي تشعر بما لها من الرجحان؟

يقولون في أمثالنا الدارجة أن الخلق غضبوا عند قسمة الأرزاق فأرضاهم القدر بقسمة العقول، فما منهم إلا راض عن عقله وإن سخف وإن ضاق.

وتعليل ذلك قريب، فإن الأرزاق تنتقل من مالك إلى مالك، فللطمع فيها معنى مفهوم؛ أما العقول فلا تنتقل من أصحابها إلى غير أصحابها، فليس للطمع فيها معنى غير الإقرار بالقصور، والحرمان من لذة الغرور.

ومغزى المثل كما يقولون أن رضى الإنسان بعقله سهل مألوف في جميع الطبائع البشرية، فكيف بالعقل الذي يعلم ما عنده وما عند غيره علماً ليس بالدعوى ولا بالغرور؟ أليس خليقاً بامتيازه المرضى عنه أن يغنيه عن طلب الامتياز من طريق ولاية الأحكام؟

قلنا في كتابنا رجعة أبى العلاء: (إن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا إلا بالسيادة عليها أو بالإعراض عنها. فلما الملك وأما الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين. فلا يحسبن أحد أن فكرة الملك عارضة في ذهنه كما يعرض في الخاطر في خلد للشاعر، فإن للمجد الدنيوي لنزعة مكبوتة في قرارة ضميره يدل عليها شعره ونثره، ولا تزال غالبة عليه في جمحات الأهواء وفلتات اللسان. فسرعان ما يثب إليها كلما عرضت لها لمحة ظهور)

وقد ظن الأديب صاحب الخطاب أن ما قررناه هناك شذوذ مما نقرره في كلامنا عن الفكر والسلطة، وما به في الحقيقة من شذوذ: فالحنين إلى السيطرة في نفس أبى العلاء إنما هو تعبير عن جانب الحرمان من تلك النفس وليس بالتعبير عن جانب الامتياز والرجحان.

وليس الوجه كما فهم الأديب أن أبا العلاء كان يزداد طلباً للسلطان لو أبصر وملك القوة الجسدية، ولكن الوجه أنه كان يقلع عن هذا الطلب لو زال عنه شعور الحرمان الذي داخله من كبريائه مع فقد بصره ووهن جسده. فيغلب عليه جانب الثقة والامتياز.

وأي عجب في تداخل النزعات واشتباكها في جميع النفوس الآدمية؟ ألا يوجد بين ذوي السلطان من يحب أن يشتهر بالكتابة فينتحل ما يكتبه له الكاتبون وليس هو بأديب؟ أفمن أجل ذلك نقول إن الملكة الأدبية لاصقة بكل حاكم وكل أمير وكل طامع في الشهرة بالمنثور والمنظوم؟

ومن الخطأ أن نزعم أن أبا العلاء قد عكف على التفكير لأنه لم يظفر بالملك والإمارة؛ فإن التفكير ليس بالمنحة (الاحتياطية) التي تجود بها الطبيعة على من فاتته المنح الأُخرى، ولكنها منحة أصيلة من رزقها فكر ومن لم يرزقها لم يفكر وإن أراد. وغاية ما هنالك أن المفكر المتكبر المحروم يمثل حرمانه في آماله ودخائل وجدانه شوقاً إلى الغلبة والبأس والولاية، وهو شوق لا يعد من الملكات ولا من النزعات التي يقاس عليها في غير هذه الحال.

وجملة الرأي أن حاجة الحاكم إلى الفكر كحاجة كل عامل اليه، فلا يلزم من ذلك أن يشتغل المفكرون بجميع الأعمال لأن جميع الأعمال تحتاج إلى تفكير.

على أن الحكم إلزام والفكر إقناع، وإذا بلغ الإقناع مداه ألزم الحاكمين أن يستمعوا له فكان سلطة فوق السلطة في هذا المقام.

المبالاة

كتب إليَّ الأديب صاحب الإمضاء من خطاب يقول فيه بعد تمهيد:

(إن الإنسان يفيد دائماً من التجارب المادية. فالأطباء مثلاً يهتدون بالتجارب الماضية ويطبقون في فنهم آخر ما يصل إليه العلم؛ ومن ثم كان التقدم الملحوظ في الطب وسائر العلوم والفنون والآداب. فلماذا لا تسير الأمور كذلك في معالجة المشاكل النفسية؟ أريد أن أقول أن الإنسان - كل إنسان - لا يريد أو لا يستطيع أن يطبق القاعدة السابقة على مشاكله النفسية. فمثلاً حدثنا الكثير من الفلاسفة والكتاب عما انتابهم من أزمات منها ما أخافهم أو أيأسهم أو آلمهم، ثم أردفوا ذلك بأن وضعوا تحت أعيننا تجاربهم وتجاوزهم هذا الطور إلى طور آخر. . . وعندنا مثلاً أقرب هو صديقكم المازني الذي كتب كثيراً مصوراً ما كان يلح عليه في شبابه من يأس وخوف، محاولاً أن يقنعنا أن كل ذلك كان عبثاً لا طائل تحته، وأن الإنسان يستطيع أن يعيش دون أن يكون بحاجة إلى شيء من ذلك. . . فلماذا لا يعتبر الشباب بقول المازني فيأخذ الحياة من حيث انتهى، ويقضي شبابه في أنس وراحة وسعادة؟ لماذا يأبى كل امرئ إلا أن ينهج في حياته على طريقته الخاصة، فيقبل على ما يسلمه للخوف والشقاء ويعج في الألم واليأس؟. . . وأريد أن أقول أيضاً: إذا قيض للإنسان أن ينتفع بتجارب غيره النفسية على النحو الذي ينتفع به في التجارب المادية، أيكون هذا رقياً وازدهاراً، أم عندئذ تنتفي الحياة؟)

وبعد إسهاب في هذا المعنى يقول الأديب: أرجو أن يتيح لنا الأستاذ ساعة نهرب فيها من حديث السياسة والحرب ونأنس به فيها إلى ظل الأدب الوريف، وأن يكون ذلك على صفحات (الرسالة)، فإني من قرائها المدمنين

(دمنهور)

صلاح المسيري

ويحضرني في الإجابة عن هذه الأسئلة قول الكاتب الإنكليزي الحديث ستيفنسن إننا حين نقول للشاب: هكذا أيضاً كنا نفهم في شبابنا فنحن نؤيده ولا نفنده بهذه الحجة!

وهو قول حق نافذ إلى اللباب؛ لأننا ندل به على أن هذا الفهم الذي ننقده ونحاول أن نثني الشباب عنه إنما هو من طبيعة الشباب التي لا محيد عنها ولا استثناء فيها. فكل شاب إذن خليق أن يفهم الأمور كما فهمها الشاب الذي نلومه ونهديه إلى خطئه!

وهكذا يسألنا الأديب: لماذا لا يعتبر الشاب بقول صديقنا المازني فيأخذ الحياة من حيث انتهى ويقضي شبابه في أمن وراحة وسعادة!

والجواب أن صديقنا المازني نفسه لو عاد إلى الشباب لما اعتبر هذا الاعتبار ولا سلك في الحياة إلا المسلك الذي عدل عنه بعد حين

وخيراً تصنع الحياة إذ تجعل كل حي مستقلاً بحياته عن التجارب النفسية التي جربها سابقوه. فليس من الحياة أن يعيش الإنسان عالة على شعور غيره، وليس هذا بالمستطاع لو حسن أن يكون

وفرقي شاسع بين المعلومات والتجارب النفسية في هذا المجال، فإنني لا أستطيع أن أعرف وحدي جميع المعارف الإنسانية التي عرفها السابقون وأضاف إليها اللاحقون ما أضافوه؛ ولكني أستطيع أن اجرب وحدي ما جربه كل فرد وحده، ولا خسارة علي في ذاك!

لا بل الخسارة كل الخسارة في تركي إياه يشعر (بالنيابة) عني وإلغائي لشعوري أنا معتمداً على ما جربه واهتدى إليه. أما المعلومات فيكفي أن تنتقل إلي ليصبح نصيبي منها ونصيب من عرفوها جميعاً على قدر سواء، فلا خسارة في انتقالها من جيل إلى جيل وينبغي أن نذكر هنا أن التجربة ليست مسألة فهم ولكنها مسألة رياضة فالحصان الوحشي الذي تربطه بالقيود وتقيم من حوله العوائق لتمنع جماحه وتسلس قياده لا يثوب إلى السلاسة لأنه فهم أنها خير من الجماح، أو وازن بينهما موازنة فكرية فاختار أفضلهما في الرأي والمنطق؛ ولكنه (ريض) على حالة لا يستطيع غيرها ولو فهم أن غيرها هو الصواب ولو كانت التجارب مسألة فهم لما استعصى

خطبها على أحد، فإن حكمة الحكماء الذين قالوا إن (الصبر مفتاح الفرج) تفهم لفظاً ومعنى في لمحة عين، ولكن النفس لا تراض عليها قبل سنين حافلة بالحوادث والدروس؛ وقد تمضي السنون ولا تبلغ بها مبلغ الرياضة على تلك الكلمات الثلاث!

إن الأقدمين قد أكلوا فشبعوا. فهل نشبع نحن لأن الأقدمين قد عرفوا الشبع من قبلنا دون أن نأكل كما أكلوا؟

إذا جاز هذا جاز مثله أن نشبع من الحوادث والتجارب دون أن (نأكلها) كما أكلها الذين من قبلنا ولكنهما خطتان بمنزلة واحدة من البعد والاستحالة: فألوف الألوف لا يشبعونك بما تناولوا من غذاء؛ وألوف الألوف لا يعطونك التجربة التي تناولوها من حوادث الأيام؛ وإنما الشبع شيء لا تناله إلا بما تعمله وظائف جسمك؛ وكذلك التجربة شيء لا تناله إلا بما تعمله وظائف نفسك، ولو رأيت أمامك كل المجربين وسمعت وصف التجارب من كل لسان مبين والرجل بمفرده قد يجرب الحالة الواحدة على أنماط وألوان لا يحيط بها الإحصاء؛ فيخونه عشرة أصدقاء ولا تحذره إحدى هذه الخيانات أن يستهدف لغيرها لأنها مختلفة المنحى والنتيجة. ويحب عشر نساء ولا تعطيه إحداهن ما تعطيه الأخريات. ويسافر إلى القطر الواحد مرات ثم يعود من كل مرة بتجربة جديدة لا تنسخ ما قبلها ولا تنسخها التي تليها وهذا معنى التجربة، وهذا معنى الحياة

والأصل في الحياة المبالاة بالحوادث والمؤثرات، لأن الكائن الحي كجهاز التلقي والإرسال الذي لا ينعزل مما حوله ولا تنقطع الصلات بين العالم الخارجي وبينه. فإذا انتهى به الأمر إلى تجاهل الحوادث وقلة الاكتراث لها فتلك ضرورة طارئة تراض عليها النفس بعد معالجتها وتكرير علاجها، ثم يكون الاستقرار عليها بمثابة الصدأ الذي يمنع الاتصال، فلا تلقٍّ ولا إرسال، أو يكون على أحسنه بمثابة رفع المفتاح وتعطيل الأداء والاستقبال

وربما فهم ذلك في بعض مراحل الحياة التالية؛ أما الابتداء به في المراحل الأولى فغير مفهوم ولا معهود، إلا أن يكون عن نقص في التكوين وعجز عن التجربة ما يراد منها وما لا يراد

قيل أن السعيد من وعظ بغيره. ولكن أين هو السعيد؟ وما جدواه من السعادة إن كان اتعاظه (شعوراً) غير أصيل فيه! أما إن اتعظ أصيلاً في شعوره فهو هنا مبتدئ وليس بتابع، وهو يجتنب الخطر لأنه أحسه واختبر منه ما يدعوه إلى اتقائه. فليس هو بعالة على تجربة غيره، وليست تجربة غيره إلا تذكيراً لناسٍ أو تنبيهاً لغافل ولنتخيل عالماً يستريح الناس فيه من (المبالاة) فماذا يبقى لهم من الحياة؟

ماذا يبقى من الحياة لمن لا يبالون الخوف والرجاء ولا يحنون إلى ماض ولا يتوقون إلى غد ولا يحفلون بحاضر؟

العريان في القافلة مرتاح

وهذا عري في قافلة الحياة!

ولاشك أن التجارب تعلمنا كثيراً أن العناء لا يفيد، ولكن من هذا الذي يعاني باختياره؟ ومن هذا الذي يعاني لفائدة يلتمسها من عنائه؟

إنما يعاني الإنسان على حسب ما عنده من طاقة العناء لا على حسب ما يستفيده من العناء

ولهذا يوجد بين الناس آحاد معدودون يطلبون العظائم ويبلغونها ولا يقنعون بما بلغوه منها، وينظر إليهم ملايين الملايين فلا يتحركون لمثل ما ابتغاه أولئك الآحاد المعدودون، لأن المحرك هنا هو الطاقة الموجودة وليس هو الفائدة التي لم توجد بعد ولا يضمن وجودها

إن كرة المطاط تنضرب إلى الأرض مائة مرة ولا تزال تعلو وتسفل في أثر كل ضربة. ثم تنضرب بعد هذا فتقع حيث هي لا علو ولا استفال. ألانها علمت أن العلو لا يفيد؟ كلا. . . بل لأنها أضاعت مرونتها التي تعلو بها وتهبط. . . فمن الذي يطلب من الكرات

الجديدة أن تعتبر بمصير هذه الكرة (المجربة) فتقع حيث هي وتضيع من مرونتها باختيارها ما ضاع (بالتجربة) على غير اختيار؟

ولست أقول للكرة التي سكنت إلى موضعها: غالطي الحقيقة وعاودي الوثوب وقد راضتك الحوادث على اجتنابه!! ولكني أقول للكرة الجديدة: إياك أن تغالطي الحقيقة وإن تسكني لأن غيرك قد سكن من قبلك. بل اسكني حين يوائمك السكون ولا تقدرين على غيره؛ واطلعي وانزلي مادامت لك طاقة بالطلوع والنزول فقلة المبالاة لا قيمة لها أن لم تأت بعد مبالاة، لأنها تكون يومئذ مرضاً أو قصوراً لا يغبط عليه. ولابد إذن من مبالاة ولو قصيرة الأمد قبل أن تصبح قلة المبالاة تجربة نفسية ورياضة خلقية. وليس شرطاً مع هذا أن تكون تلك التجربة مما يحمد على كل حال، وأن تكون تلك الرياضة مما يقتدي به كل إنسان

وغاية ما يرجى من انتفاع بتجارب من مضى أن نعيد تجربتها في وقت أقصر وعلى ثقة أوضح وأبصر... ولم؟ ليتسع العمر لتجارب أكثر مما جربه الأولون، لا لينقص نصيبه من التجربة اكتفاء بما جربوه

فتكرر الأجيال عبث إذا كان معناه أن جيلاً واحداً يعالج مشكلات الحياة ثم تعفى بقية الأجيال من علاجها. وتكرر الأجيال معقول إذا كان لكل جيل نصيبه من عبء الحياة وعليه مزيد جديد.

وتقديم الساعة مرة أخرى

يقول الراوي: سمعت فيما سمعت من فكاهات الناس أن غريباً نزل ببلد من البلدان يتفرج بالسياحة ويحتال للرزق، فلم ينفرج ضيقه، ولم يتسع في طلب الرزق طريقه؛ فخرج يوماً إلى مدافن البلد يتعظ ويستعبر، ومال على القبور يقرأ ما كتب عليها، فأذهله ما قرأ وعى بتفسيره وتأويله هنا قبر كتبوا عليه أنه قبر الوزير العظيم فلان: حكم وعدل وأصلح وبلغ من العمر عشرة أيام

وهنا قبر كتبوا عليه أنه للقاضي الجليل فلان: كانت له أحكام يؤتم بها في مجالس القضاء، وأثرت عنه مؤلفات يتداولها الطلاب والأدباء، ومات ولم يجاوز من العمر أسبوعين وهناك قبر لطبيب، وإلى جانبه قبر لأديب، ووراءهما قبر لسرى حسيب، وعلى مقربة منه قبر لناشئ نجيب، وما منهم معمر ولا مغتضر يجاوز الساعات والأيام، إلى الشهور والأعوام، ولا منهم إلا من تذكر له المآثر ويرتفع به المقام فأستغرب الغريب، وسعى إلى الحارس يسأله في هذا الكلام المريب: ما خطبكم يا هذا؟. . . أحياؤكم في المدينة يشيبون ويعمرون، وأمواتكم في المقابر لا تعدّ لهم شهور ولا سنون. فهل يجاء بالأموات من بلد غير هذا البلد، أو تعدون العمر عندكم بغير ما ألف الناس من عدد؟

قال الحارس: بل هي مدافن القوم، وهي أعمار أبناء آدم، ولكنهم يسقطون منها مالا يسر ولا يؤثر، ويثبتون منها ما قضى في سرور وعمل مشكور. فمن ثم تنحسر السنوات بعد السنوات، فلا يبقى غير لحظات ولمحات، وهي التي تراها، وتحار في معناها!

قال الغريب: إن كان هذا فوصيتي لك أن تكتب على قبري حين يتوفاني الله في بلدكم: من بطن أمه إلى القبر!

ويقول الراوي مرة أخرى: ثم أدركتني سنة من النوم وأنا أعيد حكاية هذا الغريب اليائس وأسل نفسي: كم من الناس يحق له أن يزيد على ما أوصى؟ وكم من الأعمار يبلغ الساعات على هذا الحساب؟

وإني لكذلك إذ ارتفع بصري إلى دائرة هائلة الأقطار كأنها صفحة الساعة التي نقيس بها الزمن، ولولا أنها شيء لا يدرك له آخر ولا تظهر لعقربيه حركة، ولولا أن العقربين لا ينتهيان ولا يزالان ذاهبين ذاهبين إلى وجهة بخيل إليك أنها حافة وما هي بحافة، ولكنها أشبه شيء بخط الأفق المخلوق من وهم الناظر إليه الأبد كله يقاس بهذه الصفحة!! أو هي الساعة السرمدية التي ترصد بها حركات الأكوان، إن صح أن تسمى هذه الساعة وهي تشمل كل حين!

يقول الراوي: وألمح على الصفحة علامات مختلفة الشيات، لا أهم بأن استوضحها حتى يتضح لي جواب ما هممت بالسؤال عنه كأنه خطرة من خطوات الضمير لا أسمعها ولا أرى قائلها. . . هذه علامات السعود والنحوس، وهذه مفاتيح الإسراع والإبطاء، وهذه لوالب الأفلاك ومنها فلك الأرض الصغير، وهذه وهذه إلى آخر ما في الصفحة السرمدية من مجهول ومعلوم

وتتحرك يدي إلى مفتاح من المفاتيح، ويهجس في ضميري المجيب الذي لا أسمعه ولا أراه: مكانك! إلى أين؟

قلت: إلى المفتاح الذي يعبر أوقات النحوس في لمحة عين

قال: ويحك. وما أنت وعلم هذا؟ وأي نحوس تريد؟ نحوسك أنت، أو نحوس العالم أجمع، أو نحوس فريق من الناس دون فريق؟ هذه أسرار لا تهديك فيها العلامة ولا يطيعك فيها المفتاح. وإنما قصاراك أن تنظر في الساعة التي تخص حياتك إن اهتديت إليها. فهنالك ترى من ساعاتك وأيامك ما يقتضب أو يستطال، على شروط يدلك عليها الدليل الموكل بتلك الآجال

قلت: وأين أجد هذه الساعة أصلحك الله؟

قال: في خلف هذه الصفحة. . . فهنا صفحة الكون الخالد وهناك صفحات الأحياء من أبناء الفناء واستدرنا أو خيل إلينا أننا نستدير فإذا الدوائر أمامنا متشابكات متداخلات لا يحدها الطرف ولا يحصيها الحساب، وإذا بالمجيب الذي لا أراه ولا أسمعه يشير إلى إحداهن ويقرئني عليها أسمي وعلامات السعد والنحس في عمري،

ويقول لي: دونك ساعتك فاصنع بها ما أنت صانع. فهي إن عمرت أو خربت لك أو عليك قلما يضار من جرائها أحد سواك ثم يعود صاحبنا فيقول: وأعلم أنك لا تأخذ السعادة ولا تتقي الشقاوة في هذا المكان، فإنما هو للحصر والتسجيل ثم تحال إلى الخزانة التي فيها ما تشتهيه وتتقيه، فعلى حسب ما في يدك من سجل أوقاتك وسعادتك وشقاواتك يكون التسليم من يد الخازن الموكل بهذه الأمور ودارت المفاتيح، وذهبت إلى الخازن، وأريته السجل والتعداد، وانتظرت ما يقول، فإذا هو يراجعني مراجعة البائع المتحرج الذي تأبى له ذمته أن يستر بخساً أو يبالغ في مزية، ولا يثنيه عن ذلك غضب ولا استعجال

قال: هذه سويعات بل لحظات لك في سجل السعادة، أفأنت نازل عن عمرك كله من أجل هذه اللحظات؟

قلت: أو ليست هي سعادة خالصة؟

قال: بلى، ولكن مأمور بأن أبصرك بالحقيقة قبل أن آخذ منك أو أعطيك

فهذه اللمحات لا يدخل فيها الوقت الذي تشتاق فيه إلى السعادة، ولا الوقت الذي تحن فيه إلى ذكراها، ولا الوقت الذي تعرف فيه قدرها بفقدانها والشعور بالفارق بينها وبين نقيضها.

وهذه اللمحات تتصل بسعادات أناس آخرين لولا هم لما ظفرت بحصتك التي كتبت بعنوانك، فإما أن تتسلموها جميعاً أو تتركوها جميعاً ولا انفراد لك بالرأي فيما تختار وهذه اللمحات إنما هي كالري للظامئ فلا إرواء لها إلا بعد إظماء، ولا محل للإيجاز في أوقات الشقاء إلا أن تصاب لمحات السعادة بمثل هذا الإيجاز

قلت: أني أغليت الثمن وبذلت عمراً كاملاً في سبيل هذه اللمحات القصار

قال: أنك لم تبذل شيئاً بل استرحت مما أنت باذل من شقاء، ولهذه الراحة ثمنها، فمن عسى أن يبذل الثمن غير المستفيد؟

قلت: أننا في عالم الدنيا نشتري الحلو والحامض ونلقي بالحامض جانباً إذا كرهناه، وغاية ما يسومنا البائع أن يبيعنا الفاكهة المنتقات بأغلى من سعر الفاكهة التي ليس فيها انتقاء. فلم لا تتبعون في بيعكم وشرائكم ما نتبعه فيما بيننا من بيع وشراء؟

قال: ذلك لأن حلاوة الحلو عندنا من حموضة الحامض، فليس بينهما انفصال!

وسألته: وما النتيجة؟

فأجابني: والنتيجة أننا ننقصك من السعادة بمقدار ما ننقصك من الشفاء، وليس الأمر كما ظننت زيادة على هذه يقابلها نقصان من ذاك

يقول الراوي: فتدبرت كلام الخازن الناصح فوجدته على صواب، وتبين لي أن الصفقة لا تنعقد إذا هي انعقدت إلا على ما أشترط ووفق ما رسم. فهذه الساعة التي نعمت بها لأنني قضيتها مع من أحب، كيف أنتزعها وحدي وأعزل حسابها من حساب عمره؟ وهذه الواحة التي ابتهجت بها لأنني عبرت إليها الصحراء كيف أبتهج بها ولا أبتئس بصحرائها؟ وهذه المرارة في كأس الفتنة، كيف أتركها ولا أترك معها نشوتها وأحلامها؟ وهذه الخلاصة كيف أستخلصها ولا أتعب في استخلاصها

أيها الخازن الناصح: شكراً لك، فقد نصحت وأبلغت فهل يضيع تعبي في تقديم الساعة بغير جزاء؟

أيها الباحث عما ليس يوجد: هذا هو الجزاء، وهكذا يتعب من يختصر العمر ليختصر الشقاء!

وبعد فقد كتبت في السنة الماضية عن تقديم الزمن وتأخير الزمن، فحق لهذه السنة أن نحفل بتقديم ساعاتها وإن كنا لا نقدم ولا نؤخر بهذا الاحتفال

وأراني عشت عشرين سنة ولم أتبين جديداً يقال منذ قلت:

تبغي السعادة لا سعادة مثلها ... والعدم قسمة طالب الإكسير

ومنذ تبين لي أن الفقر نصيب من يطلب الإكسير الذي يعطي المعادن الخسيسة قيمة الذهب الإبريز، وأن الشقاء نصيب من يطلب الإكسير الذي تتساوى به معادن الأيام فكلها نفيس وكلها محمود وكلها سعيد؛ فلا ذاك يبلغ الغنى ويسلم من الفقر، ولا هذا

يبلغ السعادة ويسلم من الشقاء، وحسبنا نصيب أهل، الفناء فهم في أخر الأمر تراب، وكل ما أصابوه أنفس من التراب

مسألة الفقر

سألني الأستاذ زكي مبارك عن رأيي في الخلاف القائم على مسألة الفقر بينه وبين الأساتذة: توفيق الحكيم، وسلامة موسى، وفكري أباظة، وبعض حضرات القراء

وخلاصة هذا الخلاف أن الدكتور زكي مبارك يرجح أن الفقر عقوبة مستحقة على شيء من القصور، وان مخالفيه يرجحون ان الفقر غلطة اجتماعية تصيب الناس من خلل في (المجتمع) أكثر من إصابتها أيام من تقصير في الجهود. وعندنا نحن أن الفقر داء كسائر الأدواء: يصيب المريض به من إهماله كما يصيبه من ضعفه الموروث، ويصيبه مع الحيطة إذا جرى مجرى الوباء الذي تنتشرعدواه، كما يصيبه مع ترك الحيطة في هذا الحال وفي غيرها من الأحوال وليس في وسع أحد أن يزعم أن ميزان

المجتمع سليم من الخلل في توزيع الأرزاق أو تقدير المكافآت على حسب الجهود. ففي كل أمة أغنياء لا يستحقون الغنى وفقراء لا يستحقون الفقر وإن تفاوت الخلل وتفاوت الجور وتفاوت السعي في الإصلاح.

ولست أنا ممن ينكرون فضل البراعة المالية، لأنها في الحقيقة براعة لازمة لتأسيس المرافق الاجتماعية والأخلاق القومية وتنظيم العلاقات، واستشارة الهمم، وتوزيع الأعمال التي لا يستبحر بغيرها عمران

وقد قلت منذ نحو عشرين سنة حين عرضت للبحث فيما يعاب من أخلاق المرأة خطأ وجهلاً بالبواعث النفسية:

(. . . أننا قد نرى للمرأة سبباً غير الأسباب التي تغري بحب المال وإعظام أصحابه: نرى أن كسب المال كان ولا يزال أسهل مسبار لاختبار قوة الرجل وحيلته، وأدعى الظواهر إلى اجتذاب القلوب والأنظار، واجتلاب الإعجاب والإكبار. فقد كان أغنى الرجال في القرون أقدرهم على الاستلاب وأجرئهم على الغارات وأحماهم أنفاً وأعزهم جاراً. فكان الغنى قرين الشجاعة والقوة والحمية، وعنواناً على شمائل الرجولة المحببة إلى النساء أو التي يجب أن تكون محببة إليهن. ثم تقدم الزمان فصار أغنى الرجال أصبرهم على احتمال المشاق وتجشم الأخطار والتمرس بأهوال السفر وطول الاغتراب، وأقدرهم على ضبط النفس وحسن التدبير. فكان الغنى في هذا العصر قرين الشجاعة أيضاً وقوة الإرادة وعلو الهمة وصعوبة المراس. ثم تقدم الزمان فصار أغنى الرجال أبعدهم نظراً وأوسعهم حيلة وأكيسهم خلقاً وأصلبهم على المثابرة وأجلدهم على مباشرة الحياة ومعاملة الناس، فكان الغنى في هذا العصر: قرين الثبات والنشاط ومتانة الخلق وجودة النظر في الأمور؛ وهكذا تجد اكتساب المال الكثير في كل عصر دليلاً على فضل الرجل، وعلاقة توحي إلى نفس المرأة ما يعين غريزتها على اختيار أجدر الرجال بحبها وأصلح الآباء لأبنائها. فلا تثريب عليها أن تختبر مزايا الرجل بهذا المسبار السهل القريب، ولا لوم عليها أن تريد ثراء المال ولا تعدل به الفقر والفاقة. . .)

فنحن لا نبخس البراعة المالية حقها ولا نغض من نفعها في باب الخدمة الاجتماعية، ولا من دلالتها على الخلق والكفاءة العقلية، ولكننا مطالبون في هذا العصر الحديث بإنقاذ المجتمع من الخلل الشديد الذي ألم بموازين الاقتصاد ومعايير الأرزاق حتى اصبح اقتناء الثروات ميسراً للمحتال والدجال الذي لا يعطي الناس بديلاً نافعاً يساوي الربح الغزير الذي يتدفق عليه. ولعلنا نتلطف في الأمر حين نقول إنه لا يعطي الناس بديلاً نافعاً وهو في الواقع يضرهم بمقدار ما يستفيد منهم، ويحرمهم بمقدار ما يغدقون الرزق عليه طائعين أو كارهين ومثل من هذه الأمثال أولئك السماسرة الآثمون الذين يتواطئون على إشاعة الأراجيف، وإقلاق الاسواق، واللعب بأثمان الإسناد والأوراق ليسرقوا في ساعات ما تنقضي الأعمار دون الوصول إليه بالسعي الحلال أو بالسرقة على طريقة اللصوص الأقدمين ومثل آخر من هذه الأمثال تلك الصفقات التي تنعقد في الهواء بغير مبادلة صحيحة في البيع والشراء، وإنما هي استغلال لثقة الناس التي كسبها أولئك المستغلون بحكم مراكزهم الاجتماعية أو المالية لا بحكم الكفاءة والجهد وتثمير المال الحلال

وإذا ارتفعنا شيئاً فشيئاً من هذه الهوة الغائرة في قرارة الإجرام فقد نصل إلى الكفاءات القيمة التي تعطى الناس ما ينفعهم ويسرهم، ولكنها تتقاضاهم جزاءً لهم أضعاف حقهن وأضعاف ما يحتاجون إليه لموالاة النفع والسرور

فإخراج رواية على اللوحة البيضاء عمل قد ينفع العقول ويدخل السرور على القلوب،ولكن الدنيا تسرف جد الإسراف حين تشتري نفع الرواية وسرورها بمئات الألوف من الجنيهات وهي تضن بعشر معاشر هذا على المآثر الإنسانية التي يتصل بها نفع أقوام وبمرور أجيال واقبح من هذا أن تكون الألوف المؤلفة نصيب الرواية الماجنة العقيمة ولا تحضي ببعض هذا النصيب أجود الروايات وأحفلها بالمعارف والمتع والعظات، أو يكون الجزاء الوافر حظ الممثل الذي لا يستحي ان يعرض رجولته للفضوليات من المتفرجات، ولا يكتب هذا الحظ لنوابغ الفن وأفذاذ الرجال

هناك خلل في الميزات لا نكران له ولا مناص من إصلاحه، لأن الغبن فيه غبن الأمم، والبلاء فيه بلاء الهمم، وليس غبن فقير يشكو الفاقة، أو بلاء ضعيف يطلب الرحمة والإنصاف ولا نطمع أن يجيء اليوم الذي يتساوى فيه العمل والجزاء كل المساواة، ويبطل فيه الخلل بطلاناً يمنع الحيف ويحقق العدل في كل تقدير؛ فهذا مستحيل، ولعله غير محمود في عقباه، لأن الدوافع الحيوية إذا استقامت هذه الاستقامة خيف عليها أن تفقد الاندفاع الذميم على السواء

لكننا إذا استبعدنا الكمال المطلق فالنقص المطبق أولى منه بالإبعاد، وبين المثل الأعلى والمثل الأدنى خطوات لا تعيا بها قدرة الإنسان ولا يجمل به أن يقعد عنها مكتوف اليدين مقيد الرجلين، وحاجة مصر إلى الجهد في هذا الباب اعظم من حاجة بلاد كثيرات يعلو فيها صراخ لا يسمع له صدى في هذه البلاد

وقوام الإصلاح في مسألة الفقر على أن ما نرى أن نذكر الحقائق كلها ولا نكتفي بجانب واحد منها دون سائر جوانبها

أو الخير في هذه المسألة أن نقرن كل حقيقة جامحة بحقيقة كابحة تساويها وتكف من غربها

فأول الحقائق في مسألة الفقر أن حياة الإنسان كائناً ما كان أنفس من القوت والكساء ومطالب المعيشة، وأنه ما من مخلوق آدمي يعجز عن تقديم خدمة تكافئ ثمن قوته وكسائه ومطالب عيشه. فإذا هلك إنسان جوعاً أو عرياً ففي تقسيم الأعمال نقص يستدركه المصلحون والمتكلفون بسياسة الاجتماع وبإزاء هذه الحقيقة الظاهرة حقيقة أخرى لا تقل عنها ظهوراً وجدارة بطول العناية والتدبر، وهي أن الأمان كل الأمان، خطر على الهمم والأذهان. فإن كثيراً من الجهد النافع مبعثه طلب الأمان في المستقبل، وشعور النفس بالحاجة إليه في أخريات الحياة. فإذا اطمأن إليه كل حي من بداية حياته فترت حركته وغلب عليه حب الاستقرار، ومني العالم بخطر من جراء ذلك هو أخطر عليه من الإجحاف في تقسيم بعض الأعمال وتوزيع بعض الأرزاق وهناك حقيقة لا مراء فيها وهي أن المغامرين المقتحمين ينالون أحياناً فوق ما

يستحقون من جزاء، ويأخذون أحياناً بعض ما يستحقه المحرومون الذين لا وزر عليهم في هذا الحرمان

أما الحقيقة التي بازائها فهي أن المغامرين المقتحمين ينكبون أحياناً في الأرواح فضلاً عن نكبتهم في الأرزاق والأموال، وأنهم لا ينطلقون مع طبائعهم القوية في عالم تشتد قيوده وتتساوى نتائجه ولا تتسع فيه الهوة بين الأمل العظيم في نجاح كبير وبين الإقدام العظيم على خيبة قامة للظهور، وأن خسارة العنصر المسالم الوديع وهناك حقيقة من هذه الحقائق فحواها أن الغنى ليس بجريمة، وأن الفقر ليس بفضيلة، فلن يقول أحد به مسكة عقل أن الأغنياء، وأن الفقراء يستحقون الغنى لأنهم فقراء، وأن جاز أن يقال أن الإفراط في الغنى والإفراط في الفقر ظلمان محققان

أما الحقيقة التي بازائها فهي أن الأمر لا يرجع هنا إلى العدل والاستحقاق، ولكنه يرجع إلى صلاح المجتمع ولو نال فيه فريق فوق ما يكافئ عمله وجدواه. فكل عضو شاك يكلف الجسم بعض الأحيان فوق حقه وفوق نصيبه من العمل والجدوى؛ وبغير هذا العلاج لا تستقيم صحة الأجسام وصحيح أن العالم مدين للعصاميين، وأن العصاميين لم يولدوا في الذروة العليا من طبقات الامة، ولكن ليس بصحيح أن طبقة الحضيض هي صاحبة الحصة الكبرى في إنجاب العصاميين؛ وإنما الصحيح أنهم ينشئون وسطاً بين الطبقة التي نهكتها رذائل الترف والغرور والطبقة التي نهكتها رذائل الهوان والمسكنة. ومعظم المصلحين الذين نفعوا الفقراء لم يكونوا من ضحايا الفقر المدقع والمنبت المنحدر البالغ في الانحدار، مما يؤيد رأي القائلين إن الفقر المدقع الذي يلازم أصحابه عقباً بعد عقب إنما هو قصور في الذهن والخلق يحلهم حيث يحل القاصرون المتخلفون أيا كان المجتمع الذي يعيشون فيه

وبعد هذه الحقائق جميعها تبقى لنا حقيقة لا يطول فيها جدل المنصفين، وهي أن الفقر آفة يجب أن تزول إذا استطعنا ان نزيلها، ويجب إلا يمنعنا عن أزالتها إلا مانع واحد لا نحفل بغيره: وهو عدم الاستطاعة، ولو كان الفقراء مستحقين لما هم فيه.

فلن يبحث منصف عن المريض هل جلب المرض لنفسه بيده، أو سيق إلى المرض مكرهاً عليه، إذا كانت المسالة مسألة طب وشفاء مستطاع

المال

قال الدكتور زكي مبارك في حديثه عن الفقر والغنى، ولا نهاية لحديث الفقر والغنى، ولا الفقر والغنى ينتهيان من الدنيا:

(. . . لن أقول كلمة في الوارثين بحجة أنهم يرزقون بلا كد ولا اجتهاد، فلو عطل نظام الميراث لأنعدم النشاط الإنساني بعض الانعدام، ولآثر الناس جميعاً أن تكون جهودهم مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم. ولو قلنا الحق كل الحق لصرحنا بأن الميراث هو أجمل نظام عرفته الإنسانية، فهو الشاهد على أن الجهاد في طلب الرزق لا يضيع، وأنه قد يصل إلى الأعقاب وأعقاب الأعقاب، وذلك أقوى حافز لتأريث عزائم الرجال)

ورأيي في الميراث أنه حق وعدل، وأن المذاهب الاجتماعية، التي تحرمه تجور على الآباء والأبناء، ولا تتحرى سنن الطبيعة فيما جرت عليه بين جميع الأحياء، لأن المجتمع لا يستطيع أن يحول بين الأب وبين توريث أبنائه ما اشتمل عليه من عيوب الخلق والفكر ومن دمامة الوجه وشوه الجسم وضعف التركيب؛ فليس من العدل أن يحول بينه وبين توريثهم الخير أو نصيباً من الخير، وإن كان عدلاً أن تفرض للمجتمع حصة وافية من ذلك النصيب

كذلك تجري الطبيعة على سنة الوراثة في جميع السلالات، وهي سنة أعرق من المجتمعات الإنسانية وغير الإنسانية، ولم تنشأ عبثاً ليلغيها الإنسان كل الإلغاء بقانون أو نظام

لكنني أخالف الدكتور في قوله إن الميراث لو عطل (لآثر الناس جميعاً أن تكون مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم. . .)

فإن طلب المال كطلب العلم فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه الآباء للأبناء، وقد يهمل الإنسان رزقه ورزق أبنائه ليتابع الدرس ويتقصى مسألة من مسائل العلم والمعرفة، وهو على يقين أنه لن يخلف لأبنائه زاداً من علومه ودروسه إلا ما

يخلف المعلمون للمتعلمين، وقد يفوتهم منه حتى هذا النصيب وبين طلاب المال من بلغ أرذل العمر وليس له عقب ولا هو ممن يبسطون الكف بالإنفاق فيخشى نفاد ماله الكثير، ومنهم من لو بسط يده بالإنفاق عشرات السنين لما خشي على ماله النفاد.

أعرف رجلاً له نظراء كثيرون كان يملك القصور ويدخر الأموال في المصارف، وله معاش لا ينقطع من خزانة الحكومة، وهو مع هذا يبخل على نفسه بالقليل ويعيش معيشة الفقراء، ويراه الحوذية في الطريق فيهربون منه لأنه يأبى أن ينقدهم الأجر إلا على حساب ما تعود قبل أربعين أو خمسين سنة يوم كان للمليم سعر القرش في هذه الأيام. وأعجب العجب أن هذا الرجل الشحيح كان مجدوداً في أوراق المصارف التي يناط بها النصيب فكان يربح جوائزها الأولى من حين إلى حين. وحدث مرة أن وكيله تسلم جائزة من هذه الجوائز وأخر إيداعها المصرف الذي يعاملونه بضعة أيام، فلما راجع الغني الشحيح حسابه قطع أرباح الجائزة في هذه الأيام القليلة من مرتب الوكيل المسكين، وهو شيء يبذله من يربح مثل هذه الجائزة هبة لمن يحمل إليه بشارتها ولا يندم عليه

ولم يكن لهذا الرجل عقب ولا كان له مطمع في العيش الطويل بعد السن التي ارتفع اليها، ولكنه يطلب المال لأن طلب المال شهوة لا يشترط أن تتعلق بالإنفاق والتوريث ولو نظر الناس إلى الواقع في أمر الورثة لما حرصوا على ترك المال بعدهم للأبناء والأحفاد؛ فإن أبناء الفقراء الذين عاشوا في الدنيا عيشة راضية بغير ميراث يبلغون أضعاف الوارثين عدة سواء ورثوا الكثير أو القليل، وأن الذين أشقاهم الميراث لا يقلون عن الذين سعدوا به وحفظوه أو زادوا عليه، وأن الذين يموتون وهم خائفون من تبديد أبنائهم لثروتهم أكثر جداً من الذين يموتون وهم مطمئنون إلى حسن التصرف ودوام الحال

كان العلامة يعقوب صروف طيب الله ثراه يوصيني كلما لقيته أن أدخر وأن أحسب حساب المال والثراء، وكأنه أنس مني التواني في الإصغاء إلى هذه النصيحة فروي لي حديثاً جرى بينه وبين تاجر من كبار التجار السوريين العصاميين رآه مشغول البال

معنى بما يخشاه على ثروته وأبنائه بعد موته من تقسيم وبوار. قال: وهكذا الدنيا دواليك بين جيل عصامي يجمع، وجيل عظامي يضيع ما جمعه الآباء، ويأتي بالمعذرة لمن يتركون الأبناء فقراء ناشطين في طلب الجاه والثراء

قال العلامة صروف: ومنذ أيام طرق علينا الباب أبناء صاحب من أصحابنا مات فجأة وليس في الدار ما يشيعونه به إلى لحده؛ وكان هذا الصاحب مفراحاً، يأكل ما يشتهي، ويلبس الفاخر من الثياب، ويطعم أبنائه أحسن مطعم، ويكسوهم أجل كسوة، ويقضي سهراته بينهم ضاحكاً متهللاً على صينية من الحلوى أو الفاكهة، وهو لا يشغل باله لحظة بما يكون، ولا يبالي بعد موته ما يأكلون ويشربون. فأي الأبوين أسعد؟ وأي الأبناء أحظى بحسن المصير؟

وهذا السؤال الذي سأله الدكتور صروف سيظل أبد الزمان مسؤولاً يجيبه من يشاء كما يشاء؛ ولكنه جواب لن يجعل المفراح مشغولاً بتوريث أبنائه، ولا المشغول بتوريث الأبناء مفراحاً ينعم بالحاضر ولا يعني نفسه بالغيب المجهول.

فخديعةٌ من خدائع النفس أن تعلل حرصها على المال بحب الأبناء، ولو كان حبٌ مانعاً أن ينفق الإنسان كل ما عنده لكان حبه لنفسه وخوفه على غده أحرى أن يمنعه ويقبض يديه، ولكنها خديعة النفس كما نقول تتراءى لها في مختلف الذرائع والتعلات.

إنما تفسِّر أعمال الإنسان بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات. وإذا قيل لنا إن فلاناً يجمع المال لأنه يخاف عاقبة الفقر، قلنا: ولماذا يخاف هذه العاقبة التي لا يخافها غيره!! إنه لا يخالف غيره إلا لاختلاف البواعث النفسية دون الاختلاف في الغايات التي قد يتفقون عليها من جانب التأمل والتفكير.

المال يطلبه الإنسان لباعث قبل أن يطلبه لغاية، ومن بواعث طلبه الخوف والمنافسة والطموح وحب الكسب للكسب كما يفرح اللاعب بالرهان الذي ليس من ورائه طائل، وهنا موضع التحذير للمصلحين الذين يعالجون مسألة الغنى والفقر على أساس الأرقام والقواعد الاقتصادية ويغفلون علاجها على أساس الشعور والبواعث النفسية. فأنت إذا أعطيت الفارس قصبة السبق قبل دخوله الميدان لم ترحه ولم تعطه ما

يريد؛ وإذا منعت المتنافسين أن يتنافسوا لأنك ضمنت الرزق لأبنائهم أو ضمنت الأمان لهم في عقباهم لم تستأصل أسباب التنافس ولم تعطهم الحياة التي جعلتهم يتنافسون.

إنما الواجب أن ندع الناس يطلبون المال كما يطلبون العلم أو يطلبون الجاه أو يطلبون السرور أو يطلبون الفرص النادرة والمقاحم المجهولة، وليس علينا أن نسألهم لماذا يطلبونه، وإنما علينا أن نمنعهم إنفاقه فيما يضير الآخرين، فغاية ما يحق للمجتمع في هذا الصدد أن يحرم الغش والجور وتخويل أناس بغير حق ما يحرمه غيرهم من العاملين.

كان أوليفر لودج عالماً رياضياً من الطراز الأول، وكانت له بحوث مشهورة في مخاطبة الأرواح وما وراء المادة، وربما انصرف أحياناً من الرياضيات والروحيات إلى المباحث الاجتماعية وشؤون الثروة والسياسة، ولكنه كان يأتي فيها إذا انصرف إليها بمقطع الرأي وفصل الخطاب، لأنه بعيد من الهوى والتشيع لهذا المذهب أو ذاك. . . فمن نصائحه في هذا الباب أن تتولى الدولة مراقبة المال كما تتولى مراقبة السلاح، لأن الخطر من سوء استخدام المال لا يقل عن الخطر من سوء استخدام السلاح، وربما ظهرت جريمة السلاح بعد اقترافها بقليل ولقي صاحبها من الجزاء ما فيه عبرة لغيره؛ أما جريمة المال فقد ينقضي العمر وهي خافية؛ وقد يقترفها أناس بعيدون من الشبهات لأنهم ليسوا من حثالة الخلق الذين يعتدون بالخناجر والمسدسات.

فإذا وجبت مراقبة المال في أيدي المسيطرين به على سواد الناس، فمن الواجب أن تكون الرقابة على النحو الذي قصد إليه الرياضي الكبير، ولا سيما في العصر الذي أصبح المال فيه مرادفاً لمعنى الثقة والائتمان. فلا يجوز في هذا العصر أن توضع الثقة الاجتماعية في أيدي أناس يعبثون بها جهرة أو خفية، ولا يجوز إذا هي وضعت في بعض الأيدي أن تترك هملاً بغير رقابة أو حيطة أو بغير علم بما تتجه إليه وتجري فيه.

وهنا نسأل: ما هي حدود الرقابة الاجتماعية على سيطرة الأموال في أيدي الأفراد أو الجماعات التي تسوس أموال الأفراد؟

وجواب هذا السؤال أن الرقابة الوحيدة الممنوعة هي الرقابة التي تشل الدوافع النفسية والبواعث الحيوية وتخرجها في نظامها مخرج الجهود الآلية والأرقام الحسابية، فإن المجتمع الإنساني لن يكسب شيئاً من تنظيمه النفوس تنظيم الآلات التي تتحرك بأمر وتسكن بأمر ولا تتخطى ما يرسم لها من الخطوط والغايات.

فللمجتمع أن يراقب المال وأن يأخذ نصيبه منه للمصلحة الاجتماعية التي يشترك فيها الأغنياء والفقراء، ولكن ليس للمجتمع أن يمسخ الطبيعة ويجور على حركات النفوس وبواعث الحياة، لأنه يتعرض بالقوانين لأمر لم تخلقه القوانين، ويأخذ ما ليس في وسعه أن يرده أو يعوضه بمثله.

وصلت إليَّ محاضرة العالم الفاضل الدكتور عبد المعطي خيال عميد كلية الحقوق بالإسكندرية في موضوع (الزوجة المثلى)، وهي المحاضرة التي اقترحتها عليه وزارة الشئون الاجتماعية، وأذاعها الأستاذ في منتصف الشهر الماضي، وفيها يقول ما فحواه أن الآفة كلها هي: (حرص الشباب على المادة، وجريه وراء الكسب، وحطه من القيم التي خلفها السلف الصالح ومن قواعد الأخلاق التي كانت مقررة عندهم، واكتفاؤه بالعجل من اللذات)

وظهر العدد الماضي من (الرسالة) وفيه مقال صديقنا الأستاذ الزيات الذي يعقب به على خطاب السيدة (ليلى)، وما رأته من أن السبب المباشر والمصدر الأول لمشكلة الزواج هو المادة، وكان ختام مقاله: (إن المال إذا جعل غاية للزواج كان شقاء لمن وجدته ولمن فقدته على السواء. . .)

وعندي أن المادة هي آفة العصر الحديث كله، وفي عداد مشاكله للكبرى مشكلة الزواج. فالناس لا يتهالكون على المادة ولا على اللذة العاجلة إلا إذا قل إيمانهم بالحياة. ومن ثم يغلب الشح على الشيخ والضعفاء، كما يغلب على الشعوب التي ضاعت من أيديها السيادة وقيم الحياة العليا. فكل تهالك على المادة إنما هو بديل من الحياة الصحيحة، أومن الثقة بنفاسة الحياة، وكأنما يقول الإنسان لنفسه: علام الصبر والانتظار والإرجاء وأي ضمان لك من الأخلاق والعواطف وهى هباء؟ إنما ضمانك الوحيد المادة التي في يديك، والمنفعة التي تسوق غيرك إليك، وكل ما عدا ذلك لا يجدي شيئاً عليك لكن الزواج مشكلة كبرى، ولو خلص الناس من آفات العصر ومشكلاته، ومن ولع الشباب بمآربه ولذاته

الزواج مشكلة لأنه يحاول التفوق بين نقائض كثيرة في الطبيعة الإنسانية، ولا يقتصر أمره على التوفيق بين فردين فمن الناس من يضن أن الزوجة المثلى هي المرأة المثلى:

وهذا في اعتقادنا خطأ ظاهر يكتشف بقليل من الروية لأن المرأة المثلى من شأن الطبيعة

أما الزوجة المثلى فمن شأن المجتمع والآداب الإنسانية حسبما تتعاقب بها الأزمان وقد تكون المرأة أنثى طبيعية من الطراز الأول في تكوين الأنوثة؛ وليس من الملازم بعد هذا أن تكون زوجة من الطراز الأول في معاشرتها لزوجها وفي أمومتها أو في رعايتها للآداب وقيودها وقد تكون المرأة زوجة مثلى في البيت والأمة، ومع الزوج والولد، ولا يلزم من ذلك أن تبلغ فيها الأنوثة الطبيعية تمامها وتنجلي هذه الحقيقة بعض الجلاء إذا تذكرنا أن الحيوان فيه إناث مثليات في عرف الطبيعة، وليس فيه زوجات مثليات على النحو الذي يتطلبه الإنسان

وهنا مشكلة ليست بالهينة من مشكلات الزوج، لأنها مشكلة التفوق بين ما توحيه طبيعة الأنثى، وبين ما تمليه آداب المجتمعات، وهما شيئان لا يتفقان كل الاتفاق ويفهم بعض الناس أن الزوجة المثلى هي التي ترضي الرجل، وان الزوج الأمثل هو الذي يرضي المرأة وهذا خطأ آخر من أخطاء الآراء في هذا الموضوع، ويكفي أن نسأل: ما هو غرض الزواج، ليكون الجواب تصحيحاً سريعاً لهذا الخطاء المشهور الزواج مقصود لأنه وظيفة اجتماعية ونزعة إنسانية، ويصح أن يتم أداء هذه الوظيفة بمضايقة الزوجين معاً أو بمضايقة زوج واحد منهما، كما يصح أن يتم أداؤها بما يرضي أحدهما أو كليهما، فلا غرابة من أجل هذا أن تبر الزوجة المثلى بعهد الزواج وهى لا ترضي الرجل كل الإرضاء في كل حين، وأن يبر الزوج الأمثل بذلك العهد وهو مكره على إغضاب حليلته التي يتوخى لها الإرضاء والإيناس وهنا مشكلة ليست بالهينة كذلك من مشكلات الزواج، لأنها مشكلة التوفيق بين الهوى والواجب، أو بين النظر القريب والنظر البعيد، وهي المشكلة الخالدة في حياة الإنسان

ومن المشكلات في هذا الباب أن الزوج الأمثل لامرأة لا يلزم أن يصبح زوجاً أمثل لامرأة أخرى. فالرجل في الأربعين زوج أمثل لامرأة في حدود الثلاثين، والرجل الذي فيه صلابة زوج أمثل للمرأة التي فيها شكاسة، والرجل الحليم المئتد زوج أمثل للمرأة المتعجلة

الرعناء، ولكنهم يختلفون ولا يتوافقون هذا التوافق، فإذا هم أسوأ الأمثلة للأزواج وأقلهم أملاً في الرفاء والوفاء والبيت مشكلة المشاكل في العصر الحديث

ففي العصور الماضية كانت المسافة قريبة جداً بين العالم البيتي والعالم الخارجي، وكانت الملاهي الخارجية أشبه شيء بملاهي المنادر في البيوت مع قليل من التوسع والتعميم. فلم يكن من العسير أن تتفق معيشة الأسرة ومعيشة المحافل الساهرة، ولو كانت محافل لهو وانطلاق

أما اليوم، فالمسافة بعيدة جداً بين عالم البيت والعالم الخارج، لان المناظر التي يراها الساهر في العالم الخارج لا يراها في بيته ولو كان من أهل السعة واليسار، وإنما نشأ هذا عن اختراع الآلات التي تعمل للألوف وألوف الألوف ولا تقصر عملها على جماعات من الناس يعدون بالعشرات كما كانت محافل اللهو في العصر القديم. وليس من المعقول أن تنفق الشركات مليون ريال على منظر سينما يدار في مندرة أو بهو أو قصر كبير بضع ساعات؛ ولا نعرف اختراعاً من هذه الاختراعات يوافق الحياة البيتية غير المذياع الذي يسهل اقتناؤه في الصغير والكبير في البيوت، وهو وحده لا يغني عن سائر ألا فانين التي تتنوع في محافل السهرات

فالبيت في العصر الحديث مهدد الأساس، ولا وقاية له من هذا التهديد إلا الإقلال من العواصم الكبرى وتشجيع الإقامة في الريف، وإلا تربية الذوق المستقل الذي يصعب انغماسه في غمرة الجماهير، وتربية الإرادة الفردية التي يهمها أن تنطوي على نفسها حيناً بعد حين، ويعجبها أن تنعم بالعشرة الأخوية بين الصحب المتفاهمين والأقارب المتعاونين، فوق إعجابها بضجة السواد وزحام القطيع

وليس ما نذكره هنا حلولاً لمشكلة الزواج ولا علاجاً حاسماً لآفات العصر الحديث، ولكنه محاولة لفهم المشاكل على حقيقتها لاغني عنها وعن أمثالها قبل الرجاء في علاج ناجح؛ إذ كل علاج لا يسبقه الفهم الصحيح يقع على غير الداء، وقد يضاعف الأذى من الشفاء

إلا أننا نعتقد أن الحلول جميعاً لن تخلي الزواج من عقدة مؤرَّبة باقية على الزمن كله، لأنها قائمة على طبيعة في النفس الإنسانية لا يرجى لها تبديل كبير تلك العقدة هي غرابة الأسرار الجنسية التي تدفع بالرجل إلى اختيار المرأة، وتدفع بالمرأة إلى اختيار الرجل. فليس لزماً أن يحب الرجل امرأة تستحق حبه، أو تصلحه وتصلح أبناءه، أو تجد فيه مزية كالمزية التي يجدها فيها؛ بل يتفق كثيراً أن يترك المرأة التي تسعده ويتعلق بالمرأة التي تشقيه، ويتفق كثيراً أن يهواها للأسباب التي توجب عليه احتواءها والإعراض عنها. وشأن المرأة في هذه الخليقة أعجب من شأن الرجل وأنأى عن الرشد ودواعي الاختيار المميز البصير؛ فإن إخلاصها لمن يستحق منها الإخلاص اندر من إخلاصها لمن يفسدونها ويسيئون إليها، وهي خليقة لها أسرار اعمق من عرف المجتمع وآداب الزواج وأواصر الأهل والأسر، وليس بالميسور مع بقائها في الطباع خلو الزواج من المشكلات ولكن الطبيعة تهدينا إلى بعض الأسرار كما تخفى عنا كثيراً من الأسرار، وحسبنا أن نقتدي بها في أساليبها لننتهي إلى شيء في هذا الباب خير من لاشيء. فإن أساليبها في علاقة الجنسين تجري في نهجين مطردين لا يختلفان بين الإنسان وسائر الحيوان وإن اختلفت في الحيوان بعض المظاهر والغايات أول هذين النهجين هو مزج الواجب بالسرور، فلا يخدم الإنسان النوع بإدامة النسل أو بالإصلاح والإرشاد إلا وفي خدمته سرور له يقويه على واجبه ويغريه باحتماله

وثاني هذين النهجين (التوريط) الذي يقيد الإنسان حين يربد الإفلات فلا يقدر على الإفلات، لأن مصاعب النجاة من الحالة التي يعانيها أكبر من مصاعب الصبر عليها بعد وقوعه فيها. وخير الأمثلة على ذلك كفالة الأبناء ومتابعة السعي في سبيل المجد من مرحلة إلى مرحلة، وقد كان الساعي فيه يحسب أنه مستريح بعد المرحلة الأولى وتلك هداية لا يعدم الفائدة من يتوخاها في علاج جميع المشكلات

في الزواج

بعد القصص الغرامي أو قصص الحوادث الأخاذة. لا أحسب أن الجمهرة الغالبة من القراء يهتمون بموضوع عام كاهتمامهم بالموضوعات الاجتماعية التي لها مساس بالرزق أو مساس بالعلاقات بين الجنسين، وعلى رأس هذه الموضوعات الحب والزواج؛ لأن الأمر في هذه الموضوعات وما إليها لا يقتصر على الأفكار المجردة أو البحوث الأفلاطونية التي يشتغل بها الدارسون وأصحاب النظر والتأمل دون غيرهم، ولكنه يشمل المسائل اليومية التي تعرض لكل إنسان في حياته الخاصة، وينتقل إلى المحسوسات التي لا محيد عنها لمفكر ولا غير مفكر، والتي يعيش المرء مائة سنة وهو خلو من التفكير في شأن من الشؤون المجردة، ولكنه لن يخلو من معاناتها والانغماس فيها بحال

لهذا عرضتني الكتابة في موضوع الزواج لكثير من الطرائف التي تصلح للفكاهة كما تصلح للدرس والعناية. ومنها أنني سئلت لماذا لم أتزوج؟ وسئلت هل من حرج على المصرية المسلمة أن ترضى الزواج بالأجنبي الذي يحبها ويدين بالإسلام لأجلها؟ وسئلت: ما هو الفرق بين المرأة التي يرتضيها الرجل حليلة والمرأة التي يرتضيها خليلة؟ وهل معنى هذا الفرق أن الحليلات مفضلات على الخليلات، أو أن الخليلات مفضلات على الحليلات؟ وأيهما أصعب وأندر: شروط الحليلة أو شروط الخليلة؟ إلى أمثال ذلك من الأسئلة التي خيل إلي وأنا أتلقاها بالتليفون أو بالبريد، أنني أثرت خلية من النحل على غير عمد، وأنني أنا الجاني على نفسي بما أثرت!

أما من سألني لماذا لم أتزوج فكان جوابي له أن الزواج قيد، وأنني عشت حياتي كلها في مخاطرة لا غنى لصاحبها عن الطلاقة والحرية، وأنني بعد هذا وذاك أقول ما قاله الخليل بن أحمد حين سئل في قرض الشعر، فأجاب: إن الذي يرضاه من الشعر لا يجيئه، وأن الذي يجيئه منه لا يرضاه!

وأما المصرية المسلمة التي يبني بها الأجنبي المسلم فلا حرج عليها فيما أعلم. ولست أنا من المتشددين في منع السلالات الإنسانية أن تمتزج على السنة المرضية. بل قد مضى لي زمان كنت أصف فيه لقاح الجنس المصري والأجناس القوية علاجاً من داء الركود والضوىَ

وأما الفرق بين شروط الحليلة وشروط الخليلة فالتمثيل هنا أجدى من الإفاضة في التحليل: الفرق بينهما كالفرق بين شروط البيت وشروط الفندق، أو كالفرق بين مطالب الإقامة ومطالب السياحة، أو كالفرق بين دوافع الطبيعة وروابط الهيئة الاجتماعية، أو كالفرق بين الواجب والهوى وبين الدرس والقصيدة. . . ومن لم يفهم الفرق بينهما من هذا التمثيل، فما هو بفاهمه من الإفاضة في التحليل

على أنني تلقيت من الأسئلة في موضوع الزواج ما هو أقرب إلى الجديات والشؤون الجوهرية، ومنها السؤال عما يزعمه الزاعمون قسوة من الشريعة أو العرف على المرأة الخائنة، وإجحافاً منها في التمييز بين حقوق الرجال وحقوق النساء ورأيي أنا أن المرأة أسعد حظاً في مسألة الخيانة من الرجل بحكم الطبيعة التي لا حيلة لأحد فيها. فمن الإنصاف أن يكون الرجل أسعد حظاً في مسألة الخيانة بحكم العرف والشريعة فالرجل يخون المرأة التي يحبها، ولكنه لا ينسب إليها ولداً من غيرها، ولا يستطيع أن يخدعها في صدق أمومتها لأبنائها، وهذا ضمان عظيم لا يظفر الرجل بنصيب منه بالغاً ما بلغ حرصه واطمئنانه. ولكن المرأة تسلط على الرجل عذاباً لا عذاب مثله، أو غفلة لا غفلة مثلها، كلما خانته وجاءته بولد من غيره وهو منسوب إليه، وكل جور من العرف أو القانون في التمييز بين الجنسين، فإنه لرحمة الرحمات بالقياس إلى هذه المزية التي ضمنتها المرأة ضماناً لا يتطاول إليه عرف ولا قانون كذلك يحق للمرأة أن تلوم الطبيعة قبل أن تلوم الشريعة في التمييز بين حقوق الرجال والنساء، أو بين حقوق الذكور والإناث.

فالمرأة إذا حملت لم تحمل مرة أخرى في بطن واحد، ولكن الرجل ينسل مئات المرات وهي ولا تنسل إلا هذه المرة الواحدة. فليس من الطبيعي إذن أن يطالب الرجل بالوفاء

الجسدي الذي تطالب به المرأة، وليس هذا من مقتضيات حفظ النوع ولا من مقتضيات تركيب البنية الجسدية ويحق للمرأة أن تلوم الطبيعة قبل أن تلوم الشريعة في ناحية أخرى من نواحي التفرقة بين الجنسين، وهي شيخوختها وفقدانها المزية الجنسية قبل أن يفقدها الرجل بعشرات السنين، لأن الولادة تجهدها وتضنيها وتجور على محاسنها وقواها

على أن الطبيعة قد عوضتها عن هذا أنها تستغرق في الجنس وتستغرق في الحب وتستغرق في الأمومة، فهي تأخذ في أربعين سنة من نصيب الشواغل الجنسية وشواغل النسل ما ليس يأخذ رجل في ثمانين، لانصرافه إلى ما عدا ذلك من فروض الحياة.

وبحث آخر قد حركته الأسئلة التي أثارتها كتابتي عن موضوع الزواج، وهو تشجيع الزواج بالقوانين أو بفرض الضرائب على العزاب وعندي أنه رأى خاطئ من شتى الوجوه، لأنه يستبقي عيوب الزواج التي ينبغي أن تزول، ولعلها لا تزول إلا بالإعراض عن الزواج في بعض الأحوال مثال ذلك عيب المغالاة بالمهور، فلو أن القوانين أكرهت الناس على الزواج لبقى هذا العيب ولم يشعر أحد بضرورة العدول عنه كما شعر الأكثرون في مصر من جراء الإعراض عن مرهقات الزواج وفي مقدمتها المهور. ولقد بلغ من شعورهم به أن بعض الموسرين جعلوا من أنفسهم قدوة للفقراء بالإقلال من قيمة المهر حتى نزلوا به إلى دراهم لا تتم الدينار ومثال ذلك عيب الإغراق في الحجاب والتهاون في تزويد الشابات بمحاسن التعليم والتجميل التي ترّغب فيهن الشبان. فلولا الإعراض عن الزواج حيناً لما التفت أحد إلى هذا العيب، ولوجب على الشاب أن يتزوج بحكم القانون لا بحكم التفضيل والاستحسان. وهل يجيء التفضيل والاستحسان إلا من التنافس في الفضائل والحسنات؟ وهل يجيء التنافس في الفضائل والحسنات إذا أكره الناس على الزواج وكان الباعث لهم إليه أنهم يفرون من وطأة الضرائب وفرائض الإلزام؟

ومثال العيوب التي يبقيها التشجيع على الزواج بالدوافع المصطنعة والزواجر القانونية عيب العرف الذي تتبعه الفتيات في تفضيل شاب على شاب وصناعة على صناعة فالقانون يفرض الضريبة على الشاب الذي لم يتزوج ولا يفرض مثلها على الفتاة التي ترفض هذا الفتى لأنه تاجر وليس بموظف، أو ترفض فتى غيره لأنه موظف وليس بضابط، أو ترفض فتى آخر لأنه سيقيم في الأقاليم ولا ينوي الإقامة في العواصم، وليس هذا من العدل في التشريع، ولا هو من مصلحة الفتيات أو مصلحة الزواج.

والأولى بالشرائع أن تعني بأمرين هما خير من العناية بالإكراه على الزواج، إذا كان الغرض من الإكراه على الزواج زيادة النسل وقلة الفساد:

الأولى بالشرائع أن تعني (أولاً) بتصحيح أجسام المولودين وتصحيح أجسام الآباء والأمهات قبل الزواج فلو أن ألفاً من المرضى والعجزة والفاشلين تزوجوا ورزقوا البنين والبنات لما كان هذا مانعاً أن يموت معظم المولودين في سن الطفولة، وأن يعيش من يعيش بعد ذلك أفشل مما عاش الآباء والأمهات وخير من هذا أن تُتَحرى الصحة في طلاب الزواج، وأن تتحرى التربية التي تصون حياة الأطفال من عبث الجهل والإهمال

والأولى بالشرائع أن تعنى (ثانياً) بتبغيض الناس في الفساد لا بمجرد الحجر عليهم وهم يشتهونه ويقبلون عليه وإنما يصبح الفساد بغيضاً إذا كانت الاستقامة أطيب منه وأمتع وأدنى إلى الأنفس والأيدي، ولن يكون الأمر على هذه الصفة إذا كانت الأخلاق المفروضة على الناس أخلاقاً غير معقولة ولا مستندة إلى سند غير التقليد والاستمرار، ولن يكون الأمر على هذه الصفة إذا كانت بطالة الأغنياء وعوز الفقراء دافعين ملحين إلى الترف وبيع الأعراض، ولن يكون الأمر على هذه الصفة إذا كان فساد الأزواج كفساد العزاب، ولم يكن الزواج وحده عصمة لذويه على اختيار أو على اضطرار

وبعد فقد كتبنا عن الزواج مقالاً بعد مقال؛ فهل نستطيع أن نكتب في هذه المسألة الاجتماعية الإنسانية على الأسلوب الذي كتب به برتراند رسل الإنجليزي، وليون بلوم الفرنسي، وغيرهما من كتاب أوربا الوسطى؟

أما أنا فأستطيع!

وأما الشك كل الشك فهو في استطاعة كثير من القراء الشرقيين أن يستمعوا لآراء كتلك الآراء، ولو ليخالفوها أو يتبينوا ما فيها من الأخطاء!

(بدرفسكي) موسيقي عظيم وإنسان عظيم، وليس الموسيقى ببالغ أوج العظمة في فنه حتى أوج العظمة الإنسانية في أفق من آفاقها العليا، وإن خيل إلى الأكثرين منا أن الموسيقى طرب، وأن الطرب لهو، وأن اللهو والعظمة لا يتفقان

كان (بدرفسكي) عظيماً لأنه كان أكبر من جميع تلك الأشياء التي يتصاغر لها الناس: كان أكبر من المال ومن المنصب ومن الأثرة ومن المتعة الرخيصة، وكاد أن يكبر على غواية الفن لولا أنه من الفن قد استمد الكبرياء والعظمة، فلا يهجره فترة يسيرة إلا بقوة منه، كما يهجر المرء حياته أحياناً بقوة من دوافع تلك الحياة وللعظمة مقاييس شتى

وبدرفسكي عظيم بأكثر من مقياس واحد: عظيم بهذا الذي ذكرناه، وعظيم بإعطائه كل شيء حقه على قدر لا يستطيعه أوساط الناس، وعظيم لأنه قادر على العمل العظيم في غير ناحية واحدة. فلم ينحصر في موسيقاه ولا في دعوته الوطنية ولا في غزواته السياسية، ولم يجاوز في كل عمل من هذه الأعمال الكبار حده المقدور أبلغ العالم شكاة أمته بصوت الموسيقى، فكان داعية فن وداعية وطن. ثم ترك المناصب ليثوب إلى فنه بعد أن صنع ما كان في وسعه أن يصنع، ولم يبق من سب لبقائه في مناصب الدولة إلا التعلق بها والاستخذاء[1] لغوايتها، وليس هو بالذي يتعلق بهذه الفتنة أو يستخذى لهذه الغواية وجمع الذهب: أكداس الذهب، ثم فرق في خدمة القضية البولونية ما لو احتفظ به لكان أغنى من ملوك المال وأقدر من حكام الأمم واشتدت به العصبية الوطنية غاية اشتدادها، ولكنه حين وهي الجوائز للنابغين في ضروب الموسيقى وهبها عالمية لكل مجيد وكل مأمول من أبناء القارة الجديدة ففيه لكل من الوطن والعالم والغنى نصيب بمقدار، وبين يديه هو ميزان ذلك المقدار

---

[1] استخْذَى : خَضَعَ وذَلَّ

ومقياس آخر من مقاييس العظمة فيه أنه جند جيشاً وساس دولة ووجه الدول الأخريات توجيهاً لم يحلم به حالم من أبناء وطنه، ولكنه لم يكن من الحالمين وهو أجدر أبناء بولونيا بالإمامة في عالم الأحلام

ومن يدري ماذا كان يجري في القارة الأوربية لو استمع أبناء قومه لنصحه واتبعوا هداه في العلاقة بينهم وبين جيرتهم من الروس. . . فلعل الذي كان يجري يومئذ غير الذي جرى الآن، وخير مما جرى أو سيجري بعد الآن!

بدرفسكي رجل عظيم لأنه موسيقي عظيم وهذا شيء ينبغي أن نفهمه نحن الشرقيين خاصة لأننا أحوج إلى فهمه من جملة العالمين نحن الشرقيين لا نفهم ما الدنيا وما الحياة في الدنيا حتى نفهم ما التعبير عن الحياة، ونفهم أن الفنون أرفع وأجمل ما وهب الإنسان من وسائل التعبير عن حياته بل عن حياتيه: الحياة الظاهرة التي لا خفاء بها، والحياة الباطنة التي ما خلت قط ولن تخلو يوماً من خفاء

فليست الأصداء الموسيقية لغواً من لغو البطالة، ولا هي بذيل من ذيول الفراش أو ذيول السرير، ولا هي بتسلية للأذن تستطيبها كما يستطاب السجع الموزون والرنين المنغوم كلا. ليست الأصداء الموسيقية كذلك، وليست الحياة شيئاً إن كانت الأصداء الموسيقية كذلك نعم ليست الحياة شيئاً إن لم يكن لها تعبير، وليست هي شيئاً إن كان كل التعبير عنها لغواً أو تسلية أو متعة فراش ومن السهل أن تزدري الرجل الذي يبتذل فنه لشهوة غيره، وليس من السهل أن تزدري الرجل الذي يعبر لك عن حياتك ويفتح لك من مغالقها ما عسى أن يحتجب عنك؛ فإنما هو واهب حياة وليس بواهب شهوة أو تسلية أو فضول لهذا يلتقي الموسيقي العظيم والرجل العظيم في إنسان واحد. ولهذا نحسب بدرفسكي آية من آيات عصره، لأنه استرعى النظرة الجدية منهم حين أسندوا إليه رياسة الوزارة في قومه. وما كانت رياسة الوزارة علواً يرتفع إليه بعد أن رفعته العبقرية، ولا صوتاً مسموعاً في جانب من جوانب الأرض بعد أن سمع صوته في كل جانب منها، وإنما كانت ولاية الموسيقى لرياسة الوزارة دليلاً على النظرة الجدية التي ينظرون بها إلى فنه، أو ينظرون بها إلى الحياة والتعبير عن الحياة

ولو سئل أحد لم يكن بدرفسكي رجلاً عظيماً لما خطر له أن يقول: إنه كان عظيما لأنه تولى رياسة الوزارة البولونية في عهد من العهود، ولكنه يقول إنه كان عظيما لأنه كان أهلاً للجد وأهلاً للاضطلاع بالأمانة. ولا تناقض بين هذا وبين عزفه على البيان، واختراعه الجديد من الألحان، بل هذا حجة له على صدق العظمة فيه، واقتداره على كل ما يقتدر عليه العظيم الحياة تأثير وتعبير. وماذا بعد هذين؟ بل ماذا في التأثير نفسه إن لم يتممه التعبير؟

فالعبقرية التي تتمم الحياة وتعطيها معناها ليست بالمنزلة الهينة بين منازل الإنسانية، وليست بالنافلة بين النوافل ولا باللغو الذي يكون أو لا يكون على حد سواء

قلت في ذكرى من ذكريات الموسيقار المصري النابغة سيد درويش إن (الأمة الكاملة عجزت مع هذا عن قضاء حق الرجل الفرد فمات بينها وهي تتعلم أنها أصيبت من فقده بمصيبة قومية، ولم تبال حكومتها أن تشترك في تشييع جنازته وإحياء ذكره كما تبالي بتشييع جنازات الموتى الذين ماتوا يوم ولدوا والمشيعين الذين شيعتهم بطون أمهاتهم إلى قبر واسع من هذه الدنيا يفسدون من أجوائها ما ليست تفسده العظام النخرات والجثث الباليات. أنقول مع هذا؟ بل ما لنا لا نقول إن الرجل قد أهمل في حياته وبعد مماته ذلك الإهمال القبيح لأجل هذا؟ أو ليست آدابنا هي تلك آداب هذا الشرق الجامد الذليل الذي تعاورته الرزايا وران عليه الطغيان؟ أو ليست آداب هذا الشرق المسكين تعلمنا أن العزيز العظيم من يسيء إلى الناس، وأن المهين الحقير من يتوخى لهم الرضى ويوطئ لهم أسباب السرور؟ أو ليس من شرع الاستبداد وسنن آدابه أن يكون الرجل عظيما لأنه يطغى ويكسر النفوس ويحنى الظهور ويعفر الوجوه؟ أو ليس هذا أعظم ما رأينا من العظمة في هذا الشرق الآفل منذ علم أبناؤه أنهم صغراء حقراء، فلن يكون الذي يتقدم إليهم بالرضى والسرور إلا أصغر منهم صغراً وأحقر منهم حقارة؟ بلى، وا أسفاه! إن دغائن الاستبداد ما برحت عالقة فينا بدخيلة السرائر، ننفضها فلا تنتفض إلا ذرة بعد ذرة، ونزن المنفوض منها فإذا هو لا يزيد في الهباء ولا ينقص راكد ذلك التراث...)

وقد مضت قرابة عشرين سنة بعد وفاة سيد درويش ونحن لم نتقدم خطوة في هذا المضمار. فلا تزال الأصداء الموسيقية ذيلاً من ذيول الفراش عند جمهرة السامعين. . . أتشك في ذلك؟ استمع إليهم وهم يصرخون ويزعقون بين لمحة وأخرى، ثم حاول أن توفق بين هذا النشوز الصادع وبين شعور السامع بانسجام الأنغام وائتلاف المعاني والأوزان. إن التوفيق بينهما لمستحيل، ولكن لا صعوبة في التوفيق بين هياج الحس المستثار بتصور الشهرة وبين هذه الثورة الناشزة في الحناجر والأيدي والأقدام. فهم على مقربة من الفراش في صورته الحيوانية المريضة؛ ثم هم لا يستمعون ما يبعدهم عنه أو يحولهم إلى فكرة غير التفكير فيه. وعليهم بعض الوزر على الموسيقيين والمطربين وعلى الماضي الذي خلف لهم ذلك التراث بقية الوزر التي لا ندري متى يدركها النفاد!

وبيننا وبين الخلاص من هذه البلية عقبتان: أولاهما أننا نحسب الفنون لهو بطالة. وثانيتهما أن اللهو في عرفنا إسفاف وضيع يعيره الإنسان فضول وقته، ولعل وقته كله فضول من يصدقني من هؤلاء إذ أقول له إن الموسيقى جد رفيع وشاغل مقدس وليس به ظل ولا مجانة؟ لا أحد

فلنقل لهم إذن أن بدرفسكي الموسيقي تولى رياسة الوزارة في وطنه وتولى قبل ذلك زعامة قومه باعترافهم واعتراف الغرب كله، فإنهم ليصدقون إذن وهم حائرون أن الموسيقى جد والأمر لله!

ثم إنهم ليصرخون بعد ذلك ويزعقون كلما رجعوا إلى (التخت) الذي هو عندهم دهليز الفراش، ولا فضل له عليه!

عرفت الوطنية المصرية زعماء مختلفين منذ الثورة العرابية، ولكنها لم تعرف منهم أحداً أحق من (محمد فريد) صاحب هذه السيرة بلقب القديس الوطني، لان العقيدة الوطنية لها قديسوها كالعقيدة الدينية على ما نعلم؛ وأخص ما للقداسة من صفات هي الأيمان والمفاداة والسماحة وخلوص الضمير.

وقد اجتمعت هذه الصفات لمحمد فريد اجتماعاً لا يمارى فيه أحد، فهو في محراب الوطنية المصرية من الزعماء القديسين لا مراء.

كان فداؤه رحمه الله فداء لا غبار عليه ولا شبهة فيه: ترك الوظيفة في العهد الذي كان الناس فيه يعجبون لتارك الوظيفة ولا يعجبون للمنتحر تارك الحياة. ولم يتركها طمعاً فيما هو أكبر منها، لأنه كان يقود حركة بينها وبين اقرب مراحل النجاح سنون وسنون، ولم يكن يجهل بُعد الشقة ولا بعد الرجاء الذي كان يرتجيه.

ولم يطلب المال وهو ينزل إلى معترك السياسة، فقد كان المال موفوراً بين يديه، وقد أضاعه كله غير نادم عليه وهو في منتصف الطريق.

ولم يطلب الألقاب والمظاهر، فقد اغضب الذين يمنحونها في مصر والأستانة: اغضب الخديو بحملته على سياسة الوفاق وإصراره على الدستور، وأغضب السلطان العثماني بإصراره على استقلال مصر والمناداة (بمصر للمصريين)

وحرم نفسه الراحة وهو في وطنه، كما حرم نفسه الراحة وهو غريب عنه، فكان جماعة (تركيا الفتاة) يناوئونه ويضايقونه لأنه أبى في الحرب العظمى أن سيتبدل احتلالاً باحتلال، وصارحهم إن مصر لا ترضى لنفسها مكان الولاية العثمانية على أي نحو من الأنحاء وبلغ الذروة العليا من المفاداة حين واجه الموت البطيء أنفة منه أن يواجه التسليم ولو مع السكوت؛ فقد ثقل عليه الداء في أوربا وعلم إن الجو المصري انفع الأجواء له والشتاء مقبلة، وضائقة العالم بعد الحرب محكمة، وليس اثقل من مرض وغربة وفاقة وشتاء بعد صحة ودعة ويسار وقدرة على التنقل بين الأجواء، فآثر

التلف البطيء الذي لا تخفى غائلته ولا تخفى عقباه، على أن يشتري السلامة بعودة فيها خضوع وتسليم.

قال الأستاذ الرافعي في مقدمة كتابه عن محمد فريد إن الأمة (لم تقدره حق قدره ولا عرفت له عظيم منزلته).

وهذا ويا للأسف صحيح؛ لأن الصفة الكبرى التي امتاز بها هذا القديس الوطني هي الصفة الكبرى التي نجهلها نحن المصريين أو نحن الشرقيين على التعميم، وهي الصفة الكبرى التي لا نصدقها إن لمسناها ولمسنا آثارها، لأنها أشبه عندنا بغرائب الأساطير وخوارق الطبيعة: وهي المفاداة الخالصة مع الإيمان الثابت. فقد يلام الرجل على هذه الصفة العلوية لأنها تلتبس علينا بالتفريط؛ وقد يحمد على الحرص واقتناء المنافع، ولا يحمد على تضييع منفعة أو نسيان أثره حريصة، لان المفاداة شذوذ لم نألفه طويلاً في عادات المجتمع ولا في عادات الأفراد.

وما من شيء في اعتقادنا هو أجدى على المصريين والشرقيين من كتاب يؤكد صفة المفاداة ويثبت وجودها في رجل معروف السيرة معروف الأعمال مستقيم الخلق كمحمد فريد لم يشتهر بنزوات أهل الشذوذ ولا ببدوات التفرد والاستثناء فإن الشك في وجود المفاداة يغلق المسالك بين السنة المصلحين الغيورين وأسماع السواد والناشئين: انهم لا يصدقون غيرة المصلح الذي يعمل لفكرة يحققها أو مثل عال يجرى وراءه، وان صدقوا منه هذه الغيرة نظروا إليها نظرتهم إلى طبيعة غريبة ليست منهم وليسوا هم منها، فلا وجه لإقتدائهم بها ومجاراتهم لأصحابها؛ إذ ليس من عادة الإنسان أن يصغي إلى من يحلهم منه محل الغرباء المخالفين لسنته في حياته، وإنما يصغي إلى من يمشون معه على سنة واحدة، وينتفي بينهم وبينه شعور الاستغراب والاستبعاد!

وهذه ولا ريب إحدى فوائد الكتاب الذي كتبه الأستاذ الرافعي في سيرة هذا الرجل الكبير.

على إننا نحب أن نستدرك هنا استدراكا له موضعه وله موجبة فيما يكتب بيننا عن القداسة والقديسين فقد تعودنا أن تجور صفات القداسة على الصفات الدنيوية حتى خيل إلى أناس منا أن وصف القداسة يجرد الإنسان من وصف العمل الدنيوي أو المدارك الواقعية التي يحتاج إليها الساسة وزعماء النهضات القومية.

فان فهم أحد من وصفنا فريداً بالقداسة أنه لم يكن يدرك السياسة العملية إدراكها الصحيح فهو مخطئ أيما خطأ، وجاهل بحق الرجل أيما جهالة.

فقد كان فريد على نقيض ذلك أوسع أقرانه علماً بالسياسة العالمية وأوسعهم نظرة إلى العلاقة بين شؤون الوطنية وشؤون الدول والحكومات في العصر الحاضر.

فلم يكن من أصحاب النخوة المحصورة أو الحماسة الضيقة التي تحسبها العصبية بين حيطان بلادها فلا تعدوها إلى غيرها، ولكنه كان يضرب بنظره شرقاً وغرباً ليتابع الأحوال قديما وحديثا متابعة العليم بما بين أطوار العالم ومصير أمته، وبما بين الحركات الإنسانية والحركات القومية من اتصال وتبادل في التأثير. ومن مقالاته قبل خمسين سنة مقالة عن المواصلات البرقية في العالم، وسياحة الرحالة (سفن هدين) في أواسط أسيا، وإنجلترا واسيا بأفريقيا، والإنجليز في غرب أفريقيا، والروسيا في مملكة كوريا، ومطامع أوربا في الصين، ورئاسة جمهورية الولايات المتحدة؛ وأشباه هذه الموضوعات التي لم تكن بينها وبين الحركة الوطنية المصرية صلة قريبة في رأي الأكثرين من كتاب ذلك الجيل والذي اذكره أنا من ذكرياتي الخاصة أنني أفدت من فريد المؤرخ قبل أن أفيد من فريد الزعيم، وأنني قرأت تأريخه للدولة العثمانية قبل أن اقرأ له مقالة سياسية، وقلب أن يتفرغ للدعوة الوطنية ويشتغل بها ذلك الاشتغال الذي صرفه عن التأليف.

وسمعت بعض الأدباء يقول وقد وقع في أيدينا كتاب من كتبه التاريخية: ألم يكن انفع لمصر أن يمضي هذا الباحث المنقب في الشوط الذي بدأه بتاريخ محمد علي، وتاريخ الدولة العثمانية، وتاريخ الرومان، وما إلى هذه المباحث التي لا يزال فراغها محسوساً في المكتبة العربية؟

فوافق الأديب أناس وخالفه أناس، وكان كاتب هذه السطور من مخالفيه ولا أزال من مخالفيه، لان فريداً قد اخرج لنا في القداسة الوطنية طرازاً منقطع النظير، ولم نخسر مع هذا طرازه في عالم البحث والتأليف، وربما كان اصدق ما يقال في سير العظماء (أن الخيرة في الواقع)، خلافاً لما يتمنون لأنفسهم، وخلافاً لما تمناه لهم الأصدقاء، وهي قولة مأثورة تنطبق على سير الحاملين فيما نرى، كما تنطبق على سير النابهين.

ولقد كتب فريد صفحات طوالاً في تاريخ القسطنطينية لم يكن عسيراً على من دونه علماً وخلقاً أن يكتبوها أو يكتبوا أمثالها، أما الصفحة التي كتبها لنفسه في القسطنطينية أيام الحرب العظمى فإحدى صفحات قلائل في سجل البطولة لا يكتبها ألا فريد ومن وهبوا ما وهبه فريد من فضيلة الصدق والمفاداة، وهم قليلون ومثل لنفسك رجلاً منقطعاً عن بلده، منقطعاً عن موارده، ليس له جند ولا مال، وليس له ملجأ يحميه من أصحاب الجند والمال هناك، وأينما دار ببصره لم يجد حوله ما يثبته ويملي له في رأيه، بل وجد العوائق والمحظورات شتى تفت في عضده وتثنيه، وتؤيسه من عاقبة جهوده وأمانيه... والدنيا حرب والقول ما قال العسكريون والدولة مشغولة كلها بالحملة على مصر أو على الولاية التي ستعود إلى مكانها القديم من الدولة العثمانية، وهذا الرجل في عزلته وبين ثلاثة أو أربعة ممن يسيرون على نهجه يقفون في وجه هذا السيل الجارف ليصدوه بكلمة هي أقسى ما يسمع من قائل في تلك الأيام، وهي أن مصر للمصريين وليست للعثمانيين ولا لغيرهم من الفاتحين...

هذه صفحة فريد في القسطنطينية وليس في تاريخ بني عثمان ولا تاريخ دولة من الدولات ما هو أولى بالتسجيل والتمجيد من هذه الصفحة التي كتبها بوحي لا يستوحيه مؤرخو الأبطال، بل يستوحيه دونهم أبطال المؤرخين وشاء القدر أن يبوء هو بفخارها وألا يبوء خصومه إلا بصغارها وعارها. فأولئك الذين عارضوه وعاندوه وأكرهوه على اللياذ منهم بآفاق أوربا وهي أضيق عليه من سم الخياط. . أولئك

المعارضون والمعاندون هل عارضوه وعاندوه إيثاراً لتركيا أو إيثاراً لمصر أو إيثاراً للحرية والحضارة الإنسانية؟

. . . كلا. بل كان هذا وزيراً منافساً لأمير مصر فهو يغتنم الفرصة السانحة لشفاء الضغن وإحياء التراث، وكان هذا قائداً طموحاً فهو يتخذ من دولته ومن مصر معها مطية لطموحه؛ وكان هذا وذاك وغيرهما مصريين يقسمون بينهم مناصب الحكم في الولاية العثمانية المنظورة!! وكان فريد وحده أو فريد ومعه تلميذان أو ثلاثة من مريديه يعملون للحق ويخلصون للدولة العثمانية إخلاصهم للامة المصرية وهذه إحدى الصفحات التي كانت تفوتنا لو قضى فريد حياته في تاريخ الأبطال، ولم يقضها بطلاً يرتجل هذه العظات والأمثال وستنصف مصر فريداً يوم تنصف نفسها وتستحق الإنصاف من أقدارها. أما اليوم فكل ميدان فيها يتسع لتمثال فريد فهو ميدان يتسع للتنبيه والمؤاخذة، ويتسع لكلام كثير.

الرحمة قوة

(. . . وبعد فإنني أحد دارسيك، ومن طليعة المعجبين بغزارة علمك وقوة أدبك وسموه، ووفرة إنتاجك وتنوعه، لهذا لا احسبني متطفلاً إذا ما سألتك سؤالاً في موضوع طالما فكرت فيه، وهو: أصحيح ما يقال إن الرحمة من أخلاق الضعفاء، وإنها أبعد الصفات عن الأقوياء، وإن الإنسان كلما ازداد قوة ازداد قسوة؟. . . فهل تتفضل يا سيدي بالإجابة على سؤالي هذا على صفحات مجلة الرسالة الغراء لأنني من المدمنين قراءتها؟ ولك مني جزيل الشكر سلفاً. . .)

بغداد - شارع الرشيد

عبد الكريم جواد المحامي

وجوابي على سؤال الأستاذ الفاضل أن الرحمة قوة وليست بضعف، لأن الرحيم يعطي من فيض نفسه من يحتاجون إلى رحمة، ولا تملك النفس فيضاً تعطيه إلا وهي ممتلئة تستغني عن جزء من ذخيرتها لإسعاف غيرها. وليس هذا من شيمة الضعفاء.

والرحمة كلاءة ورعاية، ومن يكلأ غيره ويرعاه فليس هو بالضعيف.

وينبغي أن نرجع إلى الطبيعة، لنعلم ما هو طبيعي.

ينبغي أن نرجع إلى الطبيعة لنعلم الخلق الأصيل والخلق الذي هو عاهة طارئة أو نقص كمين.

والطبيعة تقول لنا إن الرحمة ركن من أركانها في أداء غرض من أهم أغراضها، بل هو أهم أغراضها على الإطلاق، وهو حفظ النوع وتجديده، وتعهد الأبناء الصغار إلى يوم استغنائهم عن معونة الأولياء الكبار.

فكل والد رحيم بغير اختياره: رحيم باختيار الخالق الذي خلقه وسخره لحفظ نوعه.

وكيف يقال إن الطبيعة تعتمد على الضعف في طلب البقاء؟ أو تعتمد على الضعف في غريزة أصيلة يوشك أن يتلاقى فيها الإنسان وسائر الأحياء، ممن صعد ولو قليلاً على سلم الارتقاء؟.

لو قلنا إن القسوة عجز وليست بقوة لما أخطأنا الدليل على ذلك من طبائع الأحياء التي عهدت فيها الضراوة وخلت طبائعها من الرحمة وما يماثلها.

فإن الوحوش المشهورة بالقسوة لا تعرف وسيلة غير البطش والضراوة لتحصيل العيش ومكافحة الأعداء، وكل بطش فهو إلى القوة الآلية أقرب منه إلى الخصال النفسية والملكات العقلية. فالفرق يسير بين صدمة الحجر وضربة الوحش من هياجه، فهي - أي القسوة - أدنى الوسائل التي لا وسيلة دونها، ثم تترقى وسائل الأحياء درجة بعد درجة حتى يكون استغناؤها عن القسوة بمقدار ارتقائها في تلك الدرجات.

ومن ثم يصح أن يقال إن القسوة عجز وفقدان وسيلة، وإنها من البدائيات التي يوشك أن تلحق بالآلة والجماد.

فالإنسان يقسو لأنه عاجز عن الرحمة، ولا يناقض قولنا هذا قول المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم فإن بيت المتنبي معناه أن الظلم أيسر الوسائل وأقربها: أيسرها لمن لا يتيسر له ما هو أصعب منها. وهذا هو بعينه ما نذهب إليه حين نقول إن القادر على الصعب لا يهبط إلى ما دونه، وإن القادر على الرحمة مستغنٍ عن التقتيل والتخويف.

إن الماء لا يحتاج إلى تدبير وإتقان لينحدر من الأعلى إلى الأسفل.

ذلك هو أيسر الطرق أمامه وأقربها إليه؛ ولكنه محتاج إلى التدبير والإتقان ليصعد من الأسفل إلى الأعلى.

فالظلم كانحدار الماء قريب؛ والرحمة كارتفاع الماء صعب ولكنه أدل على الاقتدار.

ومن آيات الطبيعة التي نستفيدها منها في هذا المعنى أن الرحمة تزداد في الأحياء كلما ازداد الشبه بينها وبين الإنسان في الغريزة الاجتماعية.

فالرحمة معروفة بين الحيوانات الاجتماعية في العلاقة بين والدها ومولودها، وفي العلاقات بين الفرد منها وسار أفرادها، وفي العلامات بينها وبين الآدميين.

ومؤدي هذا أن الرحمة وغريزة الاجتماع متلازمتان، فكيف تكون مرضاً وهي أصل من أصول الأخلاق الاجتماعية؟ وكيف يتركب في البنية ما هو مرض أو انحراف مناقض لأساس التكوين؟

على أننا خلقاء أن نميز بين الرحمة وبين الاضطراب الجسدي الذي يعجز صاحبه عن احتمال المؤلمات والمشقات، فيخور ويبكي حين يرى ما يؤلم أو يتعرض لما يشق عليه. وليس من الضروري مع هذا أن يرحم المتألم أو يعينه أو ينفعه بعطفه، وإنما هو عجز عن احتمال الآلام المشهودة كالعجز عن احتمال الهواء والاضطلاع بالمتاعب، وبين الرحمة وهذا النقص بون بعيد.

إن المرأة الهستيرية التي يغشى عليها حين ترى جريحاً يتألم، ليست بأرحم لذلك الجريح من الطبيب الذي يفتح جراحه ويزيده ألماً على ألمه فالذين يزعمون أن الرحمة ضعف أو مرض، إنما يلتبس عليهم الأمر بين هذه الحالة الهستيرية التي هي ضعف، وبين الرحمة التي هي قوة، لأنها حماية لضعف الآخرين.

وإن الرجل الذي يبطش بالضعفاء لأقوى من الضعفاء؛ ولكن أقوى منه وأرجل منه وأرفع منه ذلك الرجل الذي يغلب الأقوياء لينقذ الضعفاء من أيديهم، ويريهم قوة أكبر من قوتهم، لأنها لا تكتفي بالقسوة على الضعيف، ولا تحجم عن زجر القوى، وزجره أحوج إلى القوة وأدل على الاستغناء.

وإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعوّل في الدنيا على رجل

نعم، وأرجل منه من يعول كل الرجال عليه، ومن يبسط جناحيه على كل من حواليه.

وآية أخرى من آيات الطبيعة في هذا المعنى أنك لا تجد مزدرياً بالرحمة إلا وهو محتاج إلى رحمة الرحماء.

(فردريك نيتشه): رسول القسوة وأكبر الناعين على الرحمة في العصور الحديثة، قد عاش سنوات ولا سند له في الحياة غير رحمة امرأة عجوز، وهي أمه!

وروى عن الوزير ابن الزيات أنه كان يقول: إن الرحمة خور في الطبيعة. فلما نكب وعذب بالتنور الذي كان يعذب به الناس إذا به يرثي لنفسه ويستدعي الرثاء لها ويجري

في ضعفه أمثولة لمن يسترحمون الأقوياء والضعفاء، و (لم يزل - كما جاء في الطبري - أياماً في حبسه مطلقاً، ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع عن الطعام، وكان لا يذوق شيئاً. وكان شديد الجزع في حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكير. . . وكان قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه: يا محمد يا أبن عبد الملك! لم تقنعك النعمة والدواب الفُرْهُ، والدار النظيفة، والكسوة الفاخرة، وأنت في عافية، حتى طلبت الوزارة! ذق ما عملت بنفسك. . .)

ومن شوهد عليهم من القساة أنهم كانوا أصلب من ذلك عوداً وأخشن مساً وأقرب إلى التمرد والعتو والأنفة من الشكوى فكثيراً ما يكون تمردهم ضرباً من التخبط، أو عرضاً من أعراض التشنج، أو ثورة عصبية هي مرض لا شك فيه كمرض الخنوع والولع بالشكاية وإن اختلف مظهرهما كاختلاف النقيضين.

فالذي نراه من المشاهدات الطبيعة أن القسوة هي العجز والمرض والنقصان، وأن الرحمة هي القدرة والفضل والزيادة.

فالرحيم عنده ما يكفيه ويزيد على كفايته حتى يكفي غيره ويتناوله بالعناية والحماية!

والقاسي عنده من القوة ما يغلب به الضعيف، فهو في الدرجة التالية من الضعف ليس دونه في مراتب القوة إلا فاقد القوة والعاجز عن كبحها.

وهذا بلا ريب غير قسوة الرحمة التي يقول فيها حكيم الشعر العربي:

وقسا ليزدجروا ومن يك حازماً ... فليقس أحياناً على من يرحم

فالرحيم الذي يقسو هنا لينفع بقسوته من لا تنفعهم رحمته، إنما هو أرحم وأقدر على الرحمة، لأن رحمته لا تغلبه ولا تقوده غير واع ولا متدبر حتى يصنع باسم الرحمة ما هو نقيضها أو ما هو قسوة معيبة فيما تنتهي إليه من الإيذاء.

وكفى بالرحمة أنها فتح إنساني في عالم الحياة، ترقى إليها الإنسان وحده بين المخلوقات الحية، وشابهته فيها بمقدار ما صعدت بهم الطبيعة في مرتقاه.

شيء واحد!

كان الضابط المصري (أحمس) الذي ارتفع إلى عرش الفراعنة في القرن السادس قبل الميلاد معروفاً في صباه بالمزح والمجون، وكان عربيداً لا يسلم من دعاباته زملائه ولا رؤساؤه ولا أصحاب القداسة من أحبار زمانه. فلما استوى على عرش بلاده نسي أصحابه أنه فرعون مصر وذكروا أنه الضابط العربيد، ثم جروا في معاشرته على السنة التي ألفوها يوم كانوا أنداداً في الرتبة وإخواناً في اللهو والمجانة، فصبر قليلاً على هذه المعاشرة التي لا يصبر عليها الملوك، ثم ضاق ذرعاً بها وبأصحابه وأزمع أن ينهرهم بالعظة والتمثيل، قبل أن ينهرهم بالسطوة والتنكيل؛ وقيل فيما قيل من أساطيره الكثيرة أنه أتى بإناء من الفضة تغسل فيه الأيدي فأتخذ منه تمثالاً لرب من الأرباب المعبودة في زمانه. ثم نصب التمثال في مدخل القصر حيث يراه القوم أول ما يرون عند دخوله، فما عبروه حتى خروا له ساجدين وظهر لهم أحمس وهم يسجدون للتمثال فقال لهم: أتعلمون مم صنع هذا التمثال الذي حييتموه بالسجود؟ إنه من ذلك الإناء الذي كنتم في الوليمة الماضية تغسلون فيه أيديكم وتبصقون فيه من مضمضة أفواهكم. فمن منكم يجرؤ اليوم أن يبصق عليه أو يصيبه غسالة الأيدي؟ من فعل ذلك فجزاؤه الموت والعار، وان كان معدنه اليوم كمعدنه أمس في سوق البيع والشراء وفطن الضباط لما أراد، وعلموا أن أحمس الفرعون غير أحمس الضابط العربيد، فسجدوا حيث كانوا بالأمس يلقون الرشاش من غسالة الأفواه!

والمقصود من عظة (أحمس) أن الشيء الواحد قد يختلف في قيمته اختلاف الصورة حتى يهان ويبتذل في صورة، ويصان ويعبد في صورة أخرى ولكننا نتجاوز ما أراده أحمس في هذه العظة لنقول: أن الشيء الواحد في الصورة الواحدة يختلف اختلاف التقدير والنظر حتى يهان ويبتذل عند أُناس ويصان ويعبد عند آخرون، بل حتى يكون له عند الإنسان الواحد شأنان متفاوتان وهذا تمثال أحمس نكتف به ولا تنتقل إلى غيره لنعرف كيف يختلف قدره باختلاف النظر إليه فالصائغ الفنان يعطيه في تقويمه

قيمة التحفة الجميلة التي لا تحسب بالدراهم والدنانير والبخيل المتصيد للمال يغليه بمقدار ما يبذله فيه طلاب اقتنائه من عشاق الفن أو عباد هذه الأرباب وعابد الوثن يتمرغ بين يديه ومنكر الوثن يمرغه هو في التراب، وقد يعدو ذلك إلى تحطيمه وتحريم النظر إليه في صيغته المعبودة

وتاجر الفضة يحيله إلى الميزان، وصاحب الضرورة يبيعه بأبخس الأثمان، وحارسه يمنع الغبار أن يصل أليه لأنه يمنع رزقه وعقيدته وحماه وهو مع هذا شئ واحد في صورة واحدة فهل هو في الحق شئ واحد أو جملة أشياء؟

كنا على المائدة نخوض في حديث من هذا المعنى رهطاً من الأخوان الأدباء ورجال الفن والثقافة فقال أحدنا: أن صديقنا فلاناً لتستهويه تلك الفتاة التي كانت تتهالك على من دونه فضلاً وعلماً ومكانة فلا تظفر منه بأكثر من اللهو بها أو الأعراض عنها؛ فما باله لا يرعوي؟ ألا يهديه أو يرده إلى صوابه ناصح أمين؟

قلت: وهل الفتاة التي استهوت صديقنا هي الفتاة التي استهواها من هو دونه في فضله ومقامه؟

قالوا: نعم. هي فلانة!

قلت: أعلم أنها هي فلانة، ولكني أحسب مع هذا أن تلك الفتاة هي غير هذه الفتاة وكان أمامنا على المائدة صحفة من البط المطبوخ، فمضيت أقول: ألا أحدثكم بلغة الأماثيل فيما نتناوله الآن من الطعام ونحن مستطردون فيما بدأناه آنفاً من حديث العظات الرمزية؟

كان أربعة في جيرة واحدة من أحياء المدينة: متسول ولص ورجل كادح لرزقه وصائد من هواة الرياضة فقال المتسول لزميل له وقد عبر به اللص في قيوده مسوقاً إلى سجنه: أنظر إلى ذلك الأحمق!. . . سطا على حظيرة البط ليلة أمس فتيقظ له الحارس وأوشك أن يرديه برصاصة لأنه طمع في بطة أو بطتين! وهاهو ذا يساق إلى السجن حيث يصوم عن أمثال هذه الطعوم. أفما كان خيراً له أن يصنع كما صنعت أمس وقد شممت رائحة البط المطبوخ في منزل ذلك الصائد فما طرقت الباب حتى ناولوني

صحفة أكلتها هانئاً بها غير جاهد في شرائها ولا سرقتها ولا صيدها ولا طبخها ولا اقتناء صحائفها؟ فأين غابت عنه حكمة القناعة وهي أقرب إليه من ذلك الخيار، ومما وراءه من الحبس والعار؟!

قال زميله: وما ظنك بالصائد الذي أكلت البط المطبوخ من بيته؟ أليس هو أحمق من اللص في طلب البط الذي يجود به مطبوخاً ولا ينال منه أكثر مما تنال؟ فعلام السفر من هنا إلى البحيرات النائية؟ وعلام شراء السلاح والعدو بين الماء والعراء؟ وعلام صيد الأسراب وبطة واحدة تكفيه، ولعله يجود بها على سائليه؟

وأصغى إليهما الرجل الكادح لرزقه فقال: الحمد لله على ما وفقني له من القصد والسداد: دريهمات معدوادت تغنيني عن نفقة الصياد وعن ذل السؤال وعن غشيان السجون فمن من هؤلاء الأربعة على صواب! ولو أخذنا بالظاهر لكان الصائد المتعب أحمق الأربعة، ولو أخذنا بالحقيقة لكان دونهم جميعاً هو صاحب السهم الربيح والعقل الرجيح، لان البطة عنده ليست هي البطة التي يسرقها اللص، أو يستعطيها المتسول، أو يشتريها الشاري من السوق، ولكنها شئ يستحق أن يجهد له بالسفر والنصب وتعلم الرماية وبذل المال في السلاح، وهي كذلك شئ غير الذي ظفر به المتسول من بيته مطبوخاً بغير ثمن. فلا وجه للمبادلة ولا للمقابلة بين الشيئين وهكذا يجوز أن تكون الفتاة التي استهوت صديقنا غير الفتاة التي تؤكل رخيصة على موائد منافسيه، فإنما العبرة ما يشعر به هو وما يشعر به هؤلاء، وليست العبرة بوحدة الأسماء والأجسام.

وليس الشيء الواحد بشيء واحد على هذا التقدير تلك حقيقة ينساها معظم الناس وهي داخلة في كل عمل من أعمالهم اليومية، معترضة في كل خطوة من خطوات الحياة فالصنف الواحد من الخضر يشتريه اثنان في يوم واحد من سوق واحد بثمن واحد، فيؤكل على مائدة أحدهما كأنه من طعام أهل الجنة، ويؤكل على مائدة الأخر كأنه السم الزعاف والكتاب الواحد يطالعه القارئان فيستفيد أحدهما منه ما لا يقدر بمال، ويخرج الآخر من قراءته ولم يأخذ منه ما يساوي ثمن ورقه والمكان الواحد

يقصده زائران فيرجع أحدهما بالصحة والمعرفة والثروة، ويرجع الآخر منه بالمرض والضلال والإفلاس وقد تفتحت عيناي على هذه الحقيقة منذ أيام الطفولة، فشهدت في بلدتي التي نشأت فيها التقاء الحضارات القديمة - والحديثة، والتقاء الأمم من غربية وشرقية؛ وكان يزور أسوان في الشتاء ألوف السائحين منهم الأمريكي والإنجليزي والفرنسي والألماني والنمسوي، وأبناء الأمم الأوربية كافة، فكانت أوروبا عندي على اجتماعها في كلمة واحدة صوراً مختلفات لا تتفق في مشارب ولا أطوار ولا عادات وكنت أسمع العجب من اختلاف الآراء في سن يعجب فيها الإنسان من كل مشهود ومسموع، فلا أعجب ولا أحار أن عجبت، لكثرة ما تعودت من نقائض الأفهام والأحكام زار أسوان أمير إنجليزي كبير، فخرج في الظهيرة إلى حيث يلعب (التنس) مع فئة من صغار الموظفين والضباط، وشهدت مجلس والدي في المساء وأنا معجب بالأمير الحر الظريف، فما سمعت تأففاً من شيوخ المجلس كالتأفف الذي سمعته منهم تلك الليلة، وهم يعيبون على الأمير لعبه (أولاً) ونزوله في اللعب إلى مرتبة الصغار من الموظفين (ثانياً)، وخلعه ملابس الإمارة ليظهر في لباس العامة (ثالثاً)، وما شئت من مآخذ شتى: رابعاً وخامساً وسادساً إلى غير انتهاء وكان (العقلاء) يضحكون من هؤلاء الأوربيين الذين يبلون أحذيتهم أو ينضون مطاياهم في الجبال ليرجعوا منها بكيس ملآن حجارة وحصيات تلقى في عرض الطريق، وكنت أرى هذه الحجارة في متحف المدرسة، فأحسبها كنزاً من الكنوز المكنونة، أو أحسبها على أقل تقدير لها موضوع درس ممتع مفيد وكان المنقبون في الآثار القديمة من عامة الناس يهزءون بالعلماء الذين يعطونهم الذهب ويأخذون منهم خرقة بالية أو حلية مكسورة أو ورقة ممزقة، وكنت أسمع في دروس التاريخ كل أسبوع أن هؤلاء العلماء رابحون مفلحون، وأن الخاسر الحقيق بالاستهزاء هم أولئك الجهلاء المستهزئون وازددت علماً بالدنيا وبنيها، فكأنما اجتمعت الزيادة كلها في توكيد هذه الحقيقة الجامعة

وخلاصتها بلغة الحرب والتسعيرة والغلاء: أن ليس لعروض الدنيا تسعيرة واحدة، وأن ما يصدق من ذلك على العروض والأشياء، أحرى أن يصدق على الأحياء وعلى الرجال والنساء.

جاء في نبأ برقي من نيويورك أن الجماعة البريطانية المؤلفة للترفيه عن الجنود أعلنت أن ستين ألف كتاب ومجلة تجتاز الآن طريقها إلى الجيش الإمبراطوري في الشرق الأوسط؛ وهي أول ثمرة من ثمرات الدعوة التي بدئت في الولايات المتحدة قبل ذلك بأسبوع واحد لجمع مائتين وخمسين ألفاً من الكتب والمجلات لرجال الجنرال (أوفنلك) بمصر وجاراتها وهذا في الولايات المتحدة

وهناك جماعات أخرى مبثوثة في أنحاء العالم - وبعضها في القاهرة والإسكندرية - تجمع الكتب بالألوف ومئات الألوف للترفيه عن المقاتلين أو المتحفزين للقتال

وهذه كتب ترسل إلى الجنود بغير ثمن، ولكن الجنود أنفسهم يشترون الكتب والمجلات حيث وجدوها بأثمان مضاعفة تربى على أثمانها المكتوبة عليها، ولا يكتفون بما يصل إليهم من طريق التبرع والمساعدة

ومن راقب المكتبات التي تبيع الكتب الأجنبية في العواصم المصرية عرف أن حركة البيع فيها مقرونة بحركة الجنود في نواحيها، فلا يكثر الجنود في عاصمة إلا كثر فيها بيع الكتب والمطبوعات على اختلاف موضوعاتها

وليست هذه الكتب والمطبوعات جميعها قصصاً أو من قبيل القصص كما يتبادر إلى الخاطر لأول وهلة؛ فإن الموضوعات القصصية تغلب عليها، إلا أنها تقترن بموضوعات شتى لها نصيب من إقبال الجنود غير مبخوس، ومن هذه الموضوعات الرحلات والملاحظات الحربية، والكلام على مستقبل العالم الاجتماعي والسياسي بعد الحرب الحاضرة، ومنها الدراسات الأدبية والفلسفية للقدماء والمحدثين من المؤلفين!

واتفق كثيراً أن المكتبات التي تعرف ما عندي من الكتب التي انقطع ورودها كانت تسألني عما استغني عنه منها، لأنها تطلب من تلك المكتبات ولا تستطيع جلبها من الخارج في أيام معدودات، وكنت أسأل أصحاب المكتبات أحياناً عمن يطلبونها فيدهشني أن أسمع أنهم في بعض الأحايين من طبقة الجنود الصغار وهم مع ذلك

حريصون على استطلاع أحوال البلاد وتواريخها، أو أحوال العالم وقضاياه ومشكلاته، كأنهم سيدبرون أمر تلك القضايا والمشكلات، أو سيصنفون فيها الكتب والمقالات. ولاشيء من هذا وذاك يشغلهم في الحقيقة وإنما هو العقل المتفتح لما حوله لا يستطيع أن يحتجب عنه أو يحجبه عن الوصول أليه، ولو كان في ميدان قتال!

نعم ولو كان في ميدان قتال!

وينبغي أن نذكر هذا الاستدراك وأن نعيد ذكره ولا ننساه، فإن الجندي في ميدان القتال إما مشغول بحركة العمل الحربي، أو بحركة الرياضة والمرانة والاستعداد، أو هو إن فرغ من هذه وتلك منصرف إلى اللهو والتزود من متعة الحياة؛ فليس في وقته متسع للقراءة كائناً ما كان موضوعها من السهولة والتشويق، وأحرى ألا يبلغ من اتساع وقته لها أن يحتاج الجيش كله إلى كتب ومجلات تعد بمئات الألوف ولكن الحاصل هو هذا

الحاصل أن الجنود المقاتلين أو المتأهبين للقتال يقرءون ويدرسون، ويشترون الكتب ولا يقنعون بمئات الألوف التي يتبرع لهم بها المتبرعون وينبغي أن نعيد هنا توكيد ميدان القتال والقراءة على أهبة من دخول الميدان فإن طوائف من الشبان المصريين - والشرقيين عامة - كنت إذا لمتهم في الإعراض عن القراءة والمعرفة قالوا لك إن العصر عصر رياضة ولعب وركوب ومسابقات، وليس بعصر قعود ودراسة وقبوع في المكتبات! فهم يعتذرون من خمود الذهن بما ينتحلونه من نشاط الجسد... وليس من النشاط أن يصاب الذهن الإنساني بالخمود ولو صحبته ألوف من الأذرع والسيقان لا ينقطع لها حراك

فهذه الطوائف من الشبان خليقة أن تعلم أية رياضة هي رياضة الجندي على أهبة القتال. فهو في رياضة لا انتهاء لها في صباح ولا مساء، بل في رياضة تبلغ من العنف أن تستنفد جهود الأعضاء والإفهام ومع هذا هم يطلعون ويستطلعون، وتضفر منهم المطالعة والاستطلاع بحصة من الوقت لا تضفران بعشر معاشرها من أوقات شبابنا في أبان البطالة والسلام

قال لي أديب يحب أن يتحذلق بالغريب من الآراء: أترى أن القراءة شاغل من شواغل الطبيعة؟ أليست هذه الكتب وهذه الأوراق بدعة من بدع الصناعة التي لا أساس لها في تكوين البنية، ولا حرج إذن على الشاب (المطبوع) أن يصدق عنها بفطرته وينصرف إلى ما تصرفه إليه طبيعة التكوين؟

وأديبنا هذا يحسب الكتب أوراقاً وحروفاً من صنع الحداد وابتداع المخترع الحديث؟ ولهذا هي عنده متاع (مصنوع) وليست بالمتاع المطبوع الذي له في البنية أساس كأساس الجوع والضما وسائر الشهوات أما معاني الكتب وما تبعثه من شعور فلا تدخل له في حساب. ومعاني الكتب مع هذا شيء حيوي عضوي يمتزج بالتكوين الانساني كما يمتزج به الغذاء واللهو والرياضة، لأنها من وظائف الوعي الذي هو خلاصة الشعور والإدراك. وهل للحياة الإنسانية بغير (الوعي) وجود؟ وهل لوجودها بغيره قيمة؟ وهل تختلف قيمة الإنسان الذي ينحصر وعيه في المطالب الحيوانية من قيمة الحيوان؟

فالقراءة ليست هي الورق المصنوع من الخرق والعيدان، وليست هي الحروف المسبوكة من المعدن، وليست هي المطبعة التي تدار بالبخار والكهرباء، وتدخل من أجل ذلك في عداد البدع والمستحدثات كلا؛ بل القراءة هي اتساع الواعية بما يضاف إليها من التجارب والأحاسيس والمعارف والمعقولات، وهي امتداد الحياة إلى آفاق لم يكن يبلغها الفرد في عمره القصير، وهي بديل من السياحة، ومن البحث عن المجهول، ومن الإصغاء إلى النوادر والحكايات، ومن تحصيل التجارب التي يتحدث بها المجربون ومن كل تشوف مطبوع في أساس التكوين، لأنه امتداد لحواس النظر والسمع والإدراك على تعدد وسائله وأدواته. وليس يصح قول القائلين إن الكتاب لذة مصنوعة لأنه يطبع بالبخار والكهرباء إلا إذا صح إن يقال أن الرغيف لذة مصنوعة لأن البخار والكهرباء مما يصنع عليه الخبز في العصر الحديث فالوعي هو الحاسة الكبرى التي تطلب القراءة والوعي هو الحياة في أصدق معانيها وفي أوسعها وأرفعها على السواء وهنا مناط الامتياز والتفرقة بين أجناس بني آدم، فأيهم كان أكثر وعياً فهو أكثر استطلاعاً بمختلف الأساليب، والقراءة أعم هذه الأساليب ويبدو لنا على نحو يشبه اليقين أن

الفرق بين الآدميين في مسألة (الوعي) كالفرق بين سلالة وسلالة أو عنصر وعنصر من عناصر الأحياء. ونعني أنه فرق لا يفسره اختلاف البيئة واختلاف التعليم واختلاف المصادفات العارضة، لأنه أعمق من ذلك وأعرق وأشد إيغالاً في الطبائع على مثال لا نراه إلا في اختلاف وظائف الأعضاء ويجب أن يكون هذا الفرق قد تجمع في أجيال بعد أجيال، وفي موروثات بعد موروثات، حتى أصبح وشيكاً أن يفصل بين الآدمي والآدمي كما ينفصل الحيان المتباينان. ومناط ذلك فيما تعتقد الأعصاب ثم الخلايا التي يتألف منها نسيج الأجسام، لأن الأعصاب والخلايا هي أجزاء الجسم التي تتسع لتخزين الملكات والطبائع في العصور بعد العصور، والسلالات وراء السلالات. فيما أبعد الفارق بين إنسان تملأه المطالب التي تملأ الحيوان الأعجم حتى لا تبقى فيه بقية للمزيد، وبين إنسان يستوعب الأحاسيس والأفكار، ويستكنه المجهولات والأسرار، ولا يزال بعد ذلك كأنه في حاجة إلى أكوان وراء هذا الكون تملأ ما في نفسه من آفاق لا تمتلئ ولا تزال مشرئبة متشوفة إلى المزيد

هنا نفهم معنى الشوق إلى المعرفة ومنه الشوق إلى المطالعة، فإنه على هذا التفسير وظيفة حيوية في أصل البنية وليس بالبدعة الحديثة التي ظهرت بظهور الورق والمداد أو بظهور المطبعة والكهرباء وهنا نعرف لماذا تضيق حياة الفرد في بعض الأمم حتى يوسعها بالفرجة والاستطلاع والرياضة واستيعاب الأخبار ومشاهدة الآثار والأقطار، ثم يكتفي الفرد في أمم أخرى بما يشغل الحيوان فلا يتعداه باختياره إلى أمد بعيد. وغاية ما نرجوه ألا يكون بين أمم الشرق وأمم الحضارة الحاضرة فارق كالذي نحسبه فيصلاً متغلغلاً في أصول التكوين. فكل ما عدا ذلك فهو قابل للإصلاح والعلاج إذ الحقيقة أن القراءة لم تزل عندنا سخرة يساق إليها الأكثرون طلباً لوظيفة أو منفعة، ولم تزل عند أمم الحضارة الحاضرة حركة نفسية كحركة العضو الذي لا يطيق الجمود. وربما تغيرت موضوعات الكتب وأثمانها وأساليب تداولها عندهم في الفترة بعد الفترة وفي العهد بعد العهد وفاقاً لتغيير الأحوال. أما أن تنقطع الكتب أو ينقطع الاطلاع فذلك عندهم أقرب شيء إلى المستحيل. ولو شئنا لأحصينا هنا عشرات

الموضوعات التي أثارتها الحرب ونشطت لها أقلام الكتاب في زمن يخاله بعضنا صارفاً عن كل كتابة وكل قراءة، ولكننا في غنى بالمشاهدة عن الإحصاء.

أشار الدكتور زكي مبارك إلى حديث لي لخصته صحيفة العزيمة الأسبوعية بقلم مراسل من مراسليها ولخصه الدكتور في قوله إن الأدب ينبغي (أن يكون للأدب، فلا يكتب الكاتب غير ما يوحي به الطبع، وهو يعني بالحقائق الخالدة؛ أما المشكلات التي تتعلق بالطبقات المختلفة فهي مشكلات وقتية يناط تدبيرها بالرجال الإداريين)

ثم قال الدكتور: (أما بعد فهذه، مشكلة من أصعب المشكلات، وللأستاذ عباس العقاد أن يوضح رأيه كما يشاء)[1]

ورأيي في هذا الموضوع الذي يستحق التوضيح إن الأديب لا يغض من أدبه أن يكتب في مسائل الاجتماع والإصلاح الموقوت، ولكن الكتابة في هذه المسائل ليست شرطا من شروط الأدب وليست حتما لزاماً على كل أديب لأن الأدب التعبير، والتعبير غاية مقصودة، وغاية كافية، وغاية لا يعيبها أن تنفصل عن سائر الغايات ولا فرق بين الأديب المعبر بنظمه ونثره وبين الموسيقي المعبر بألحانه ونغماته. فكلاهما يصف النفس الإنسانية في حالة من حالاتها، وكلاهما مستقل بوحيه لا يشترط فيه أن يتعرض لعمل المصلح الاجتماعي أو الباحث الأخلاقي أو الناظر في مشكلات الثروة وشؤون المعيشة

وإنما جاء اشتراط البحث الاجتماعي أو الاقتصادي على الأدباء وأصحاب الفنون بدعة من بدع المذهب الاشتراكي في العصر الحديث، وهو مع هذا نقيض الدعوة الاشتراكية في الأساس والصميم لأن الدعوة الاشتراكية تستكثر على الفقراء أن يستغرقوا حياتهم في طلب القوت والاشتغال بأعباء المعيشة، وترى أن الحياة الصالحة هي الحياة التي يقل فيها جهد العمل، وتكثر فيها فرص المتعة بالنعيم فإذا كان هذا هو رجاءها الأعلى وغايتها القصوى، فمن اعجب العجب أن تجعل الخبز وضرورات المعيشة شاغلا لكل

[1] نشر في العدد 427 - بتاريخ: 08 - 09 – 1941 تحت عنوان : " رسالة القلم البليغ " .

عامل وقائل، ومحوراً للأحلام والآمال، وفريضة لا يعفى منها أحد من الناس حتى الذين وكلتهم المجتمعات الإنسانية منذ كانت إلى التجميل والتزيين وتذكير أبناء آدم بأنهم نفوس وألباب لها مطالب في بعض ساعاتها غير مطالب المعدات والجلود! وأكبر من مطالب السوائم والحشرات ماذا نقول! أنقول السوائم والحشرات؟ كلا معاذ الله أن نتهم السوائم والحشرات بالاستغراق في المطاعم والمعدات، فإنها تعلمنا ما يجهله غلاة الاشتراكيين، ويريدون منا أن نغفل عنه ونتعلم نقيضه: تعلمنا أن الجمال، وأن الطعام ضرورة مفروضة وليس بالحياة كلها ولا بالشاغل الذي يستوعب كل حي في كل ساعة في كل عمل وكل مسعاة: تعلمنا إنها تغني وتمرح وتلعب وتحير الشمس والقمر، وتلوذ بالأعشاب والأزهار، ولا تدين نفسها بدين الخبز والمعدة إلا ريثما تفرغ من هذه السخرة والمفروضة عليها أو هذا العبء الذي يثقلها ويعطلها عن سرورها ونشوتها

ونحن إذ نقول هذا لا نجهل ما يقوله الاشتراكيون إذ يستخفون بالفنون والآداب التي تناط بالجمال الخالد ولا تناط بالمنافع الموقوتة. فإنهم يزعمون أن الجوع أولى بالتفكير والتعبير من هذه المطالب التي يسمونها بالكماليات وهي هي كما أسلفنا طلبة الحياة وطلبة جميع الأحياء وحسن ما يقولون أو فليكن حسناً كما يشاءون، ولكن الأمة التي لا تستطيع أن تفرغ من حياة جميع أبنائها بعض ساعات لبعض هؤلاء الأبناء يشبعون فيها مطالب الجمال، هي أمة لا تستحق الطعام ولا تستحق الوجود. فبحسب الفرد عشر ساعات من الأربع والعشرين للكد والكدح وطلب المعاش؛ وبحسب الأمة تسعة ملايين وتسعمائة وتسعة وتسعون ألفاً من عشرة ملايين بين أفرادها يكدون ويكدحون لمعاشها. وغير كثير بعد ذلك ألف أو اقل من ألف يذكرونها الجمال ويعبرون لها عن أحلام الحياة التي يعطيها الطير والحشرة وتعطيها الضارية والبهيمة كل ما استخلصته من براثن الضرورات لا بل نزيد على ذلك أن الألف الذين يذكرونها الجمال ويعبرون لها عن أحلام الحياة لا يخلون من فائدة في باب الخبز والطعام إذا نظرنا إلى النتائج والحقائق ولم نقصر النظر على البوادر والعناوين فالشاعر الذي يفتن المرء بجمال الزهرة، يرفعه من معيشة الذل والشظف، ويجعل قناعته بالدون والسفساف ضرباً

من المستحيل. وفكتور هوجو لم يكن من أصحاب البرامج الاجتماعية، ولكنه وصف البؤس والظلم فأغنى عن البائسين والمظلومين ما لم يغنه الدعاة المنقطعون لما يسمونه: مشاكل المجتمع وبرامج الإصلاح. وكل نغمة موسيقية تعبر عن شوق إنساني هي خبز لا يحسن بالإنسان أن يحتمل جوعه ويصبر على فقده، لان عدم الخبز الذي تطلبه المعدات فقر وعوز. أما عدم الخبز الذي تطلبه الأرواح، فهو مسخ وحرمان من الأذواق والأخلاق ويكثر الاشتراكيون من ذكر الاقتصاد، ويحسبون الدنيا بحذافيرها اقتصادا في اقتصاد، وهم يخالفون قواعد (القصد الطبيعي) فيما يشيرون به على نوابغ الأدب والفنون، لأنهم يطلبون من العبقريين الموهوبين عملا يقوم به من ليست لهم عبقرية فنية ولا ملكة أدبية، إنما يغنى فيه من درسوه وحذقوه وتفرغوا لإحصاءاته وقواعده ومقابلاته ومقارناته، ونريد به بحث المسائل الاجتماعية، ومسائل الفقر والغنى، وتوزيع الثروة ونظام الطبقات. فهذه موضوعات لا حاجة بها إلى عبقريات هوميروس وابن الرومي والمتنبي وشكسبير وبيرون؛ ولا تخسر شيئا إذا أقبل عليها من خلقوا لها وانقطعوا للإحاطة بمعارفها وأصولها، ولكن العالم الإنساني يخسر أولئك العبقريين إذا وقفوا ملكاتهم على مسائل يوم أو مسائل امة، لن تصبح بعد يوم آخر ولا بين أمة أخرى... في حين إن الذي كتبوه لا يزال شاغل بني الإنسان في جميع الأيام وبين جميع الأقوام فليس من القصد الذي يترنم به الاشتراكيون أن تصرف عبقرية من عمل تحسنه، وتحيلها إلى عمل يتولاه غير العبقريين وغير الموهوبين، وإنما هو خلط في التوزيع يعاب لما فيه من سوء الوضع فوق ما يعاب لفشله وقلة جدواه

ويستطرد بي هذا المقال في (الرسالة) للأستاذ رمسيس يونان، ينحلني فيه كلاماً لم أقله ولم أقل ما يؤديه؛ بل قلت ما هو نقيضه على وجه صريح لا محل فيه لتأويل فالأستاذ رمسيس يونان يروي الحقائق عند العقاد ومنها (أن الأمان كل الأمان، خطر على الهمم والأذهان، وانه لو اطمأن كل فرد إلى قوته وكسائه، فقدنا من بني الإنسان العنصر المقتحم المغامر)

ثم يقول: (ولو صدر هذا القول من إسماعيل صدقي مثلا لعذرناه، ولكن الغريب حق أن يصدر من العقاد. فكيف يستطيع العقاد الشاعر أن يقول انه لا تكون مغامرة أو اقتحام إلا حيث يكون طلب الرزق، وإن الإنسان لا يغامر في سبيل غرام أو في سبيل كشف علمي أو إنتاج فني؟! ولماذا لا نقول إن روح المغامرة إذا تحررت من هموم العيش وأعباء الثروات، فسوف تكتشف لنفسها ميادين وآفاقاً جديدة هي اجدر بعواطف الإنسان؟!)

والعجيب كما أسلفت أنني صرحت بنقيض هذا الكلام في مقالي عن المال الذي يناقشه الأستاذ رمسيس يونان. فقلت: (إن طلب المال كطلب العلم فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه الآباء للأبناء؛ وقد يهمل الإنسان رزقه ورزق أبنائه ليتابع الدرس ويتقصى مسألة من مسائل العلم والمعرفة. . . وإنما تفسر أعمال الإنسان بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات. وإذا قيل لنا أن فلانا يجمع المال لأنه يخاف عاقبة الفقر، قلنا: ولماذا يخاف هذه العاقبة التي لا يخافها غيره! إنه لا يخالف غيره إلا لاختلاف البواعث النفسية دون الاختلاف في الغايات. . .)

هذا كلامي فكيف فهمه كاتب المقال عن الفقر ومسألته الاجتماعية؟!

فهمه على أسلوب الاشتراكيين في فهم كل شيء؛ وأسلوبهم انهم يفهمون ما يروقهم، وأن الذي يروقهم هو المناوأة والإنكار، وعلى هذه السنة ينكرون العصامية كما ينكرون الغنى، ويسمون الفقر مسألة اجتماعية ليريحوا أنفسهم من العطف على الضعفاء، فلا هم يطيقون الممتازين بالفضل أو الثروة، ولاهم يشعرون بالعطف الصحيح على المحرومين من النبوغ والمال. وماذا يفيد العطف كما يقولون؟ أليست هي مسألة اجتماعية لا دخل فيها للشعور والرحمة؟!

وكأننا إذا قلنا أن الفقر داء اجتماعي يعالج كما تعالج الأدواء الاجتماعية خرجنا به من طريق العلاج. . . وكأنهم إذا قالوا إنه مسألة وليس بداء فرجوا أزمة الفقر أو اقتربوا بها من التفريج على أن الحقيقة إن الدنيا لن يزال فيها الفقراء والأغنياء، ولن يزال فيها الأذكياء والأغبياء، ولن يزال فيها الأخيار والأشرار، ولن يزال فيها السمان والعجاف

والطوال والقصار والأقوياء والضعفاء. وآفة الاشتراكيين انهم لا يعيشون ويتعرضون مع هذا لعلاج مسألة العيش. . . فحياة كارل ماركس الشخصية تكتب في صفحتين، وكذلك حياة لينين وستالين وإخوانهم اجمعين. ولو عاشوا لفهموا العيش غير هذا الفهم وعالجوه غير هذا العلاج

فقوانين الحياة سابقة لقوانين الاجتماع. وقوانين الحياة هي التي أوجبت بين الناس هذا التفاوت في الأرزاق كما أوجبته بين الحيوان والنبات. وعبث أن نعلق الرجاء بالمستحيل، فلا انتهاء للتفاوت في مطبوع ولا في مكسوب. وغاية ما نستطيع أن نمنع الفقر الذي يشقى به من لا يستحقه، وأن نرفع طبقة الفقراء بالقياس إلى الأغنياء، وأن نجعل للأمم نصيباً من ثروة الأفراد

أما محو التفاوت في الكسب فلا سبيل إليه، وليست كلمة (مسألة) بالتي تخلق سبله لو كان إليه سبيل.

أرسل إلى الأديب عبد القادر محمود الذي عرف نفسه إليَّ بأنه (أحد الكتاب المحدثين) مقالاً عن السعادة مشفوعاً بخطاب يرجوني فيه (أن أصغي إلى حديثه قليلاً ثم أرد على صفحات الرسالة الغراء بما يروى ظمأه ويرشده إلى الحق إن كان قد حاد عن سبيله).

وخلاصة مقال الأديب أن السعادة وهم ليس له وجود، وأن بعض الأشقياء مطبوعون على الشقاء فهم به سعداء، وأن كل ما يقال عن السعادة إعادة لما قيل.

ويسألني الأديب بعد ذلك ماذا أقول؟

فلا أدري هل سأعيد قديماً بما أنا قائل في هذه الصحيفة، أو أنني مسوّغ هذه الإعادة بتصوير طريف.

ولكني لا أحسب الكاتب مطالباً باختراع الآراء التي لم يسبق إليها، ولا أرى عليه من غضاضة أن يبدي رأياً تقدم أصحاب الآراء بإبداء مثله، وإنما الشرط أن يصدر عن تجربة، وأن يروى عن خبرة، وأن يكون لكلامه لون من نفسه وحسه وتفكيره، ولا عليه بعد ذلك أن يتشابه ما يقول وما كان قد قيل.

والسعادة في رأيي لا استحالة فيها إلا كالاستحالة في كل مطلب من مطالب هذه الدنيا.

فأنت إذا أرت كسوة جميلة في نسجها ولونها وتفصيلها وثمنها ومتانتها وجدتها حيث توجد الكثيرات من أمثالها.

أما إذا أردت كسوة هي المثل الأعلى الذي لا يعلى عليه ولا يجاري في جمال النسج وجمال اللون وجمال التفصيل وسهولة الثمن وطول البقاء فقد أردت المستحيل، لأنك أردت المثل الأعلى الذي ليس له مثيل، وهو بطبيعته فوق ما ينال.

والسعادة إن أردتها سعادة لذات معهودات فأنت واجدها لا محالة في وقت من الأوقات.

أما إن أردتها سعادة العمر أو سعادة في كل شيء لا نظير له ولا انقطاع لها فتلك هي الاستحالة التي تنفرد بها السعادة، ولا فرق بين تعذرها وتعذر كل مطلوب على تلك الشريطة.

فليست السعادة بوهم، وليست الكسوة بوهم، وليست اللقمة السائغة بوهم، ولكن اللقمة السائغة مع رخصها وخجل بعض الناس من المقابلة بينها وبين السعادة تساوى السعادة الكبرى في استحالتها إذا أنت خرجت بها من عالم المعهود وارتفعت بها إلى عالم الأحلام المأمول.

لأن الاستحالة من طبيعة الأحلام، وما من حلم يتحقق إلا بطلت تسميته بالحلم وانتقل إلى المحسوسات والمدركات فالسعادة طبقات وأصناف.

والصنف الرخيص منها موجود وموفور ومبذول، والطبقة القريبة منها على متناول الباع الطويل والباع القصير فإذا قيل: إن أصنافاً منها لا تبذل ولا تتوافر، فكذلك الصنف الغالي من كل شيء، حتى العدس والقطن والورق والتفاح.

وإذا قيل: إن الطبقات العالية منها لا تنال أولا تنال في كل حين ولا ينالها كل إنسان، فكذلك كل طبقة رفيعة من كل سلعة وكل ثمرة وكل موجود.

هناك لحظات سعيدة في الحياة. فهناك إذن سعادة لأمراء ولكن ليس في الدنيا أناس سعداء، لأن السعادة الملازمة للإنسان في كل حالة وكل مطلب هي المثل الأعلى، وهى الحلم، وهى الغاية التي لا تدرك، والبغية التي لا تنال.

وما هي السعادة بعد هذا؟

هل هي من عامل السكينة أو من عامل الحركة؟ وهل السعيد من لا يتحرك، أو السعيد من لا يسكن؟

هي هذا وذاك. . .!!

فللسكينة سعادتها وللحركة سعادتها، ولكنهما لا تتشابهان:

سعادة السكينة رضى وارتياح خاليان من الشوق والطموح، وسعادة الحركة تقدم ونجاح خاليان من القناعة والاكتفاء

ومن يبغ هذه لا يبغ تلك، ومن يطلبهما فليطلبهما متفرقين في زمنين مختلفين، لأنهما لا تجتمعان.

وما لنا لا نقول: إن المثل الأدنى في التعاسة نادر كالمثل الأعلى في السعادة. فأشقى الأشقياء وأسعد السعداء في الدنيا اثنان متكافئان متعادلان، ولعلهما لا يوجدان!!

ولو خرج أحد من الرحالين ليجوب أقطار الأرض باحثاً عن أشقى شقي للزمه من الوقت والعناء قريب مما يلزمه في بحثه عن اسعد السعداء!

فلا يقل حانق على السعادة إنها مستحيلة في هذه الدنيا، لأن استحالتها من جنس كل استحالة، ولأن يسرها من جنس كل يسر، ولأن الفرق بين المثل الأعلى والمثل السائر فيها كالفرق بينهما في أكلة أو لبسة أو رشفة أو ما شئت من متع الحياة.

وهي ليست - بعد - شيئاً واحداً كتلك الجوهرة المكنونة التي يحكون عنها في الأساطير ويتخيلونها في كل يد تعثر بها على استواء، لا فارق بين يد العبد ويد السيد، ولا بين يد الجاهل ويد الخبير.

وإنما السعادة سعادات: سعادة هذا شقاوة ذاك، وسعادة إنسان في حين من الأحيان غير سعادته في غير ذلك الحين.

أتسألني عن السعادة المطلقة بالقياس إلى كل إنسان وإلى كل حين؟

تلك ليس لها وجود، وكذلك كل شيء مطلق من القيود والملابسات في عامل القصور والفناء.

ولنعلم أن اختلاف الناس في أمر السعادة إنما هو اختلاف شعور قبل أن يكون اختلافا في الرأي والنظر فهم يشعرون بالسعادة على اختلاف، وإن فكروا فيها على اتفاق؛ وهم يختلفون في شعورهم بين عمر وبين حالة وحالة كاختلافهم في كل ما يحبون وكل ما يكرهون.

وأرجع إلى نفسي فأراني قد شعرت بالسعادة على وجوه قلما تتماثل في بضع سنوات.

في الشباب كنت أقول لها:

لا تطمعــــــــــــي اليـــــــــــوم منـــــــــــــي

بالسـعي خلـف خيالـك
فقـد سـألتك حتـى
مللـت طـول سـؤالك
وقـد جهلتـك لمـا
سـحرتني بجمالـك
فـلا تمـري ببـالي
ولا أمـر ببالـك
أشـقى الأنـام أسـير
معلـق بحبالـك

تلك دالة الشباب يحسب أن السعادة خليقة أن تسعى إليه، وأنه إذا أومأ إليها بيده فلم تبادر إلى لقائه فقد أسرفت عليه في الدلال، واستوجبت منه الإعراض والملال.

وبعد حين كنت أحسب السعادة في النسيان فأقول:

لـذة الـنفس فـي السـلافة والشـعر
وفـى الحـب والكـرى والغنـاء
خيـر مـا فـي الحيـاة يـا قلـب مـا أنسـا
ك ذكـر الحيـاة والأحيـاء

وتلك هي مرحلة التجربة الأولى في انتظار التجربة الثانية.

فأما التجربة الأولى فهي تجربة الفتور الذي يعقب الإلحاح الباكر:

إلحاح الشباب في الآمال.

وأما التجربة الثانية، فهي التي تعقب ذلك الفتور أو تلك الراحة، من نشاط ووثوب.

وجاءت فترة كنت أحسب السعادة في الخطر:

عـش آمـن السـرب كمـا تشـتهي
مـا نحـن ممـن يغـبط الآمنـين

إن حيـــــــاة الأمــــــن فــــــي شــــــرعنا

مشـــــــنوءة مثـــــل حيـــــاة السـجين

كلاهمـــــــا يخفـــــــره حـــــــارس

مســــدد النظـــــرة فــــي كـــل حـــين

أيتهـــــــا الأخطــــــار علمتنـــــا

بأننـــــا الأحـــــرار لـــــو تعلمـــين

وهذه هي الفترة التي كنت أرى فيها الراحة حظاً للوضيع والتعب قسمة مفروضة على العظيم.

إن الشــــقي الــــذي لا صــــنو يشــــبهه

وللأصـــــاغر أشــــــباه وأمثـــــال

ثم تكاملت عواطف النفس فتاقت إلى نصيبها من المجاوبة الناضجة والمقابلة المستوفاة، وأيقنت أن السعادة مشهود لا يرى بعينين اثنتين بل بأربعة أعين، وعاطفة لا يحسها قلب واحد بل قلبان متفقان، فمن رامها بعينين وقلب فكأنهما يرومها شطراً مسلوخاً من جسم ميت، لأن الأجسام الحية لا تعيش شطرين.

إن الســـــــعادة لــــــن تــــــرا

هــــا فــــي الحيـــاة بمقلتـــين

خلقـــــت لأربـــــع أعـــــين

تخلـــــو بهـــــا ولمهجتـــــين

لــــك مقلتـــان ومهجـــة

أتــــرى الســــعادة شــــطرتين؟

والنقيب بالزهاوي رحمه الله وأنا أومن بأن السعادة حقيقة وليست بأكذوبة، فلما قال الأستاذ

الزهاوي: لا سرور في الحياة ولا لذة، وإنما اللذة عدم الألم. قلت: هذا كقولنا إن الحياة عدم الموت، والأولى أن تعكس القضية فيقال: إن الموت عدم الحياة قال: ولم تقرن اللذة بالحياة وتجعل لهذه حكم تلك في القياس؟

قلت: إن الحياة قوة إيجابية لا قوة سلبية، وكذلك الشعور بما يوافقها هو قوة إيجابية من نوعها وليس امتناع قوة أو عدمها؟

والآن؟

تسألني ما قولك الآن:

قولي الآن أنني أعرف السعادة من وجهها ومن قفاها، وفي صدقها وفي ريائها؛ ولكنني أقاربها وأنا مشفق من عواقبها، إذا أنا على يقين من كشف الحساب الذي يعقب كل نشوة من نشواتها. وكشف الحساب هذا عملة مسكوكة من المحظورات والمخاوف والشكوك، وهي العملة التي تشتري بها السعادة على اختلاف أصنافها وطبقاتها، فعلى قدر السعادة يكون الثمن، وعلى قدر النشوة يكون الحذر والألم والتنغيص!

ولا أكتفي مع هذا بأن أقول: إن الخوف لازم لأداء ثمن السعادة، بل أزيد عليه أن الخوف لازم لمعرفتها ولو بذلت لك بذل السماح، وإن الخوف حافز إليها يغريك بنشدانها. فمن لم يخف لم يسعد، وليس بالعالم الذي لا خوف فيه حاجة إلى السعادة!

لو!

من فكاهات الصحافة الأمريكية التي اطلعت عليها أخيراً قصة موضوعة على ما يظهر، فحواها أن رجلاً صارماً من المطبوعين على حب الزجر والتنديد لقي في بعض المنازه رجلاً آخر يدخن لفيفة نفيسة، ويبدو عليه الاستمتاع بتدخينها والارتياح إلى تقليبها بين شفتيه؛ فاستباح لنفسه أن يخاطبه، وجرت بينهما المحادثة التالية:

- كم لفيفة من هذا النوع تدخن في كل يوم؟

- نحو عشر

- وكم ثمن الواحدة منها؟

- خمسة قروش على التقريب

- يا للعجب! خمسون قرشاً كل يوم تذهب دخاناً في الهواء... فكم سنة مضت عليك وأنت تدخن؟

- ثلاثون سنة!

إن خمسين قرشاً في اليوم تجتمع منها في ثلاثين سنة ثروة عظيمة... أليس كذلك؟

- بلى كذلك

- أفلا ترى تلك العمارة الجميلة التي على ركن الطريق؟

- بلى أراها!

- إنك لو لم تدخن قط لتسنى لك أن تملك تلك العمارة! قال واضع الفكاهة: وهنا عاد المسئول سائلاً وانثنى يسأل المندد الزجار:

- هل تدخن؟

فقال الرجل متأففاً مزهواً: كلا! ما دخنت قط ولن أدخن أبداً

فسأله مرة أخرى: وهل تملك أذن تلك العمارة؟

قال: كلا!...

قال: ولكنني أنا مالكها...!

هذه قصة فيها مجال طويل للتأمل واختلاف النظر بين حظوظ الحياة وضروب المتعة فيها

فأي الرجلين على خطأ وأيهما على صواب؟

إن واضع القصة قد سهل لنا أن نعرف خطأ المندد الزجار، لأنه أظهر لنا أن التدخين لم يحل بين الرجل المدخن وبين ملك العمارة التي تساوي تكاليف التدخين في ثلاثين سنة

ولكننا نفرض أن الرجل لم يكن مالكها؛ فهل يكون حتماً لزاماً أنه من المخطئين وأن لائمة المتصلف على صواب؟؟

إذا قيل نعم أنه لمن المخطئين لأنه فقد عمارة كان في وسعه أن يجدها أمامه، فلماذا لا يقال أن العمارة كانت مفقودة في السنين الثلاثين ولم يكن موجوداً في حسه غير لذة التدخين؟؟

نعم إن لذة التدخين لا تجتمع لبنة فوق لبنة، وطبقة فوق طبقة، وجداراً إلى جانب جدار؛ ولكن إلا يوجد الشيء إلا إذا لمسناه لمس الجدران؟ ألا يكون له أثر إلا إذا صدمنا في الطريق كما تصدمنا العمارات؟ ألا يجوز أن لحظات التدخين قد هيأت لصاحبها فرص ارتياح وثمرات حساناً من ثمرات الحياة؟ ألا يجوز أنها أرضته حيث كان وشيكاً أن يغضب؟ وأسلست آراءه حيث كانت وشيكة أن تختلط وتتعقد؟ وشجعته على العمل حيث كان وشيكاً أن يتهاون ويتراجع؟ ألا تحسب هذه اللحظات في ثلاثين سنة لأنها لا تقاس بالمتر ولا ترصد بالأرقام؟؟

تلك لعنة النقود المسكوكة، وذلك مدى تأثيرها في قواعد التفكير وفي أصول النظر إلى الأشياء فالنقود المسكوكة من المخترعات التي علمت الناس نمطاً من الفكر لم يكن مطبوعاً ولم يكن من الضروري أن يفكروا على مثاله وينظروا إلى الأمور بمنظاره لولا اختراع النقود!

وكثير من الأشياء كانت تكون لها في تقويم الناس قيمة كبرى لولا أنهم تعودوا أن يقوموا كل شيء بعدد القطع من الذهب والفضة بل كثير من الأشياء كانت تبطل

قيمته الشائعة وكان يبطل الصراع عليه والتناحر حوله لولا اختراع النقد وشيوع التقويم على حسابه فقلّ أن يعرف الناس اليوم قيمة لشيء لا يتحول إلى كذا من الدنانير وكذا من الدراهم ومع هذا كم في الدنيا من قيم غاليات لا تتحول إلى نقد ولا تباع بالنقد، وليس لها في سوق النقد حساب؟

إن لذة التدخين محسوسة، فالذي ينكرها يسهل على المدخنين أن يعرفوا خطأه أو يعرفوا الناس بخطئه ولو بعض التعريف ولكن اللذات لا يحسها المنكرون كثيرات، وهي لو أمكن تحويلها إلى ذهب وفضة لملأت الخزائن وأدارت حركة المصارف سنوات فواحدة من اثنتين: إما أن تتحول ذهباً وفضة لنصونها عن البخس والنكران، وإما أن تعرف خطأ الحساب الذي يدار على الذهب والفضة في تقويم قيم الحياة. ويومئذ يربح الناس خيراً كثيراً ويستريحون من عناء كثير، لأنهم لا يعرضون عن لذات نفسية أو فكرية كل ذنبها أنها لا توزن بالدرهم والمثقال، ولا يتناحرون على قنية هي في ظاهر الأمر ملك وفي باطنه حرمان واضع القصة أرانا أن المدخن كان هو مالك العمارة، وأن التدخين لم يفوّت عليه ملكها؛ ولكنّ واضع القصة كان يستطيع أن يخطو وراء ذلك خطوة فيقول لنا أن الرجل لم يكن ليملك تلك العمارة لولا تدخينه أو تدخينات زينت له رأياً من الآراء أو صفقة من الصفقات، فكانت العمارة بعض هذه الثمرات وأقول هذا ولست أدخن الآن، ولا أنا مؤمن بضرورة التدخين لمن يفكرون بل أقول هذا وكنت أدخن أربعين لفيفة في اليوم زمناً من الأزمان، فلا أذكر أنني أشعلت لفيفة وأنا أكتب لأستعين بها على الكتابة، وربما أطفأتها لأكتب أو اقرأ أو أقلب الرأي في مسألة من المسائل، فليس من تجاربي أن التدخين والتفكير متلازمان، وكل ما أعنيه أن السرور الذي يشعر به المدخن ينبغي أن يحسب وإن لم يتمثل في صورة الحجارة والحجرات، وهكذا ينبغي أن يحسب كل سرور كذلك لا دخل هنا للأخلاق والموازين الأدبية في صواب التقويم والتقدير؛ فإن صاحب العمارة قد يملكها بمال مكسوب من السحت والربا الفاحش، ثم لا يقدح ذلك في قيمة العمارة عند تقويمها بين البائعين والشراة والسرور الذي يداخل الحس قد يرجع إلى الحرام المحظور فيدان كما يدان الحرام

المحظور، ثم لا ينفي هذا أنه في سرور وليس بغم ولا عذاب ولهذا يجب أن توضع في الميزان ثلاثون سنة في المتعة التي تذهب دخاناً في الهواء ولا تتحجر لبنات وعمارات في الطرقات. والفارق بين هذه وتلك أن العمارة تنقل من مالك إلى مالك ولا ينقل السرور الذي يستمتع به صاحبه أو يشتري منه بمال.

وهذه تفرقة سارية في عرف السوق؛ ولكنها ليست بسارية في عرف الحياة

فسرور الأب بابنه لا ينقل ولا يباع، ولكنه مع هذا أنفس من نفائس الأموال

وسرور العين بالجمال لا ينقل ولا يباع، ولكنه مع هذا ثروة تفلس الدنيا بفقدانها أيما إفلاس ومقياس النفاسة، صعد الاقتصاديون أو هبطوا، وصاح رجال المال أو سكتوا، هو في نهاية الأمر مقدار ما توحيه من شعور.

فالعمارة لا تساوي حفنة من تراب إذا كانت لا تنتقل من يد إلى يد ولا يصطحب انتقالها بسرور بائع أو سرور شار أو سرور مستأجر ونفس واحد من لفيفة واحدة أنفس من جميع العمارات التي لا نترجمها شعوراً في حالة البيع أو الشراء أو حالة الاستئجار، أو في حالة النظر إليها إن كان النظر إليها باعث شعور.

أليس الاطمئنان إلى الرزق هو خير ما تقتني من أجله العمارات؟ فالاطمئنان إذن هو ثمن العمارة الصحيح، ولولا أنه شعور مطلوب لما بذلت في أضخم العمارات أرخص الدريهمات. ولكن هب مالك العمارة غير مطمئن إلى رزقه؟ وهبه خائفاً عليها من الحريق أو خائفاً عليها من إفلاس شركات التأمين؟ وهبه كثير الهواجس من جراء ملكها ومنازعات المنازعين فيها، فهي إذن فقر في حسابه وفقر في حساب كل مقتن لها يشعر في اقتنائه إياها بمثل هذا الشعور

نسي الناس هذه الحقيقة وخسروا بنسيانها، لأن العملة سكت عقولهم بطابعها فأصبحت القيمة مرهونة بما يباع بكذا من الدراهم أو كذا من الدنانير، وبطلت القيم النفسية التي هي الأساس وهي المرجع في تقويم متع الحياة ولو بقيت لنا رغباتنا وآمالنا كما كانت قبل اختراع النقد واختراع المال على الإجمال لتغير وجه التاريخ وتغيرت

هموم النفوس وتغيرت أسباب الحروب والخصومات وأسباب النضال على العروض والمدخرات

ولتقريب هذا المعنى تخيل أن العملة وبديلاتها ستبطل بعد أسبوع فماذا يكون؟ إنك لتبصر في هذه الحالة من يعطي بيتاً ليشرب قدحاً من الليمون وليس بنادم ولا معدود من السفهاء أو تخيل أن كل متعة في الحياة أصبحت لا تنال إلا بهذه العملة الشائعة فماذا يكون؟ إنك لتبصر في هذه الحالة من يعطي تراث الأرض لينعم بشعاع من أشعة الشمس والقمر أو تخيل أن كل نعمة روحية أو فنية قد أستطيع تحويلها بعد اليوم قروشاً وجنيهات فماذا يكون؟ إنك لتبصر في هذه الحالة رجلاً من أصحاب القرائح يشتري دولتين أو ثلاث دول بفكرة خالدة توحي إليه وسيأتي لا ريب يوم يثوب الناس فيه إلى تفكير طليق من أسر العملة ومن طابع المسكوكات. فيومئذ يعرفون الغنى الصحيح ويرهبون الفقر الصحيح، لأنهم يبذلون الجهد بمقدار حقه فيدخرون كثيراً من ضائع الجهود في غير طائل، ويأخذون حسبما يبذلون، ثم لا يقومون الأشياء بمقدار صلاحها للانتقال من مالك إلى مالك في غير جدوى؟ بل بمقدار صلاحها للبقاء في الخواطر والأرواح وهي شاعرة بما تستبقيه.

كنت يوماً بمكتب صحيفة (المحروسة) فلقيت وأنا خارج منه صاحبها الأستاذ الياس زيادة والد الآنسة (مي) رحمها الله وكان من عادته إذ لقيني أن يخاطبني باسم الأديب حسين فتوح، وإذا لقي الأستاذ فتوحا خاطبه باسمي ومشى معه أو معي مسافة يصحح فيها الاسم ويتلطف بالاعتذار ويتناول بعض الأحاديث العامة...

وجرى الحديث إلى مؤلفات الآنسة فقلت: إنها جديرة بأن تفخر بها. إنها أعظم كاتبة في العربية

قال: ولك أن تقول: أعظم كاتب

يريد أن المفاضلة والتفضيل قد يجريان بينها وبين الكاتب ولا يقتصر على الكاتبات. فقلت مزكياً شهادته: ليس زهو الأب وحده بالذي يملي عليك هذه الشهادة. إن كثيرين غيرك ليسبقونك إليها وكان الرجل على حق في فخره وتقديره. فمثل الآنسة (مي) من يفخر بها الآباء وغير الآباء من أبناء العربية، ومنزلتها في الثقافة وخدمة الرأي منزلة فضلى بين الكتاب والكواتب، وإن كنت قد أردت أنها أعظم كاتبات العربية جميعاً منذ عرفت لغتنا الكاتبات، ولم أرد أنها أعظم الكاتبات في عصرنا هذا دون غيره.

وما تتحدث به ممتع كالذي تكتبه بعد روية وتحضير، فقد وهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة وجلاء، ووهبت ما هو أدل على القدرة من ملكة الحديث - ونعني به ملكة التوجيه وإدارة الأحاديث بين الجلساء المختلفين في الرأي والمزاج والمقام - فيكون في مجلسها عشرة: منهم الوزير والموظف الصغير، ومنهم المحافظ والمغالي بالتجديد، ومنهم المرح الثرثار والوقور المتزمت؛ فإذا دار الحديث بنهم أخذ كل منهم حصته على سنة المساواة والكرامة، وانفسح مجال القول لرأيه وللرأي الذي ينقضه ويشتد في نقضه، وأنتظم كل ذلك في رفق ومودة ولباقة، ولم يشعر أحد بتوجيهها وهي تنقل الأحاديث من متكلم إلى متكلم، ومن موضوع إلى موضوع، كأنها تتوجه بغير موجه وتنتقل بغير ناقل، وتلك غاية البراعة في هذا المقام.

بقيت لها هذه الملكة في أشد أيام السقم والسآمة، فلم يكن سامعها يحس فرقاً بين (مي) في إبان عافيتها و (مي) في ساعات الضنى والإعياء حين يستطرد الكلام إلى الأدب أو إلى التاريخ ألى معارض الآراء. ولم أسمع منها قط في معرض من هذه المعارض إلا ما هو خليق بالإصغاء والتدوين.

وكانت لها فطنة للضحك تحي المساجلة وتزين الحوار، ولكن فطنها للمواقف المضحكة كانت أدق من فطنتها للنكتة واشتراكها فيها، وكانت كبيرة الإعجاب بفكاهة المصريين التي تسميها (النغاشة) أو القافية التي لا تعذر ولا ترحم!

بحث بعض أساطين الشرقيين بعد الثورة الوطنية في توحيد الزي الملائم للبلاد الحارة، وكان أحمد شفيق باشا صاحب الحوليات والمذكرات المشهورة رئيساً لجماعة الرابطة الشرقية وحريصاً على إشاعة الزي الموحد بين الأمم العربية وأمم الشرق الأدنى عامة، ولفرط حرصه على هذا لم ينتظر إقناع الناس ولبس الزي الذي ارتضاه ثم مشى به في طرقات العاصمة إلى محطتها مؤثراً المشي على الركوب ليراه السابلة في تلك الطرقات الحافلة.

وكان يوم ثلاثاء ونحن في مجلس الآنسة مي والزوار كثيرون وأقبل بعض الفضلاء يبتسم كمن يغالب ضحكة جامحة. فسألته: مم الضحك؟ فقال: كنت اللحظة أعبر بار اللواء فناداني أمين واصف بك وسألني: أرأيت شفيق باشا في زيه الجديد؟ والله لقد حسبته مسجوناً مسوقاً إلى محطة العاصمة لتسفيره إلى الليمان!!

هي تعرف شفيق باشا وتعرف أمين بك، وتعرف أن الأول رئيس الثاني في جماعة الرابطة الشرقية، ومع هذا لم يرحمه حين جاء في طريق القافية!

فلا أنسى كيف غلبت ضحكا لهذه المفارقة (المصرية) وهذا التشبيه العابث، واندفعنا جميعاً نضحك وهي تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع، وحتى قال الأستاذ مصطفى عبد الرزاق بحيائه المعروف: ما بالنا أيها الأخوان نضحك هذا الضحك وننسى وقار المجلس؟

فهتف به الأستاذ خليل مطران مداعباً: اضحك اضحك يا أخي! من الذي يجد الضحك ويفرط فيه؟

وكانت سهرة ضاحكة من سلامها إلى وداعها، وكانت (مي) في تلك الليلة كأحسن ما كانت بشاشة وأنساً وغبطة وإقبالاً على الحديث والمسامرة. . . رحمها الله. ما رأيتها بعد ذلك في صورة آنس من تلك الصورة، وتلك البشاشة كلها، وذلك الذكاء كله الآن في التراب، بعد سنوات مسحت فيها النضرة، ورانت الغمة، ونضب معين الأمل والغبطة، وطال الألم والعذاب!

ألا ما أسخف الحياة!

لقد كان مصابها بأمها بعد أبيها في أشهر قلائل صدمة محطمة زلزلت كل ما بقى في جنانها من يقين وسلوى.

لكنها كانت قبل ذلك قاسية على نفسها كثيرة الانطواء على دخيلتها. وكان يخيل إلى أن احترمها المفرط خصلة عميقة في سريرتها لازمتها من ريعان شبابها، لأنها كانت قليلة الأمن والطمأنينة إلى الناس، وكانت على دماثتها لا تدع الحواجز بينهم وبينها، ولا تفتأ وراء سور من الحيطة والكتمان وكنت أشفق من فرط احترامها وكلفتها؛ فقلت لها يوماً مجترئاً على مصارحتها: أنا على رأيك يا صديقتي في أن الناس لا يؤمنون، ولكني لست على رأيك في نفع الحذر وجدوى الاحتراس. بل عندي أن عناء الاحتراس أضر من كل عناء يصيبنا به ترك الحذر وقلة المبالاة. فلا تبالي ولا تحترسي وانطلقي في حياتك فذلك أخف الضررين

قالت: كأنك تعيد علي ما قاله الأستاذ داود بركات

قلت: وماذا قال!

فقصت علي حديثاً جرى بينهما في السفينة وهما عائدان من أوربا، وكانت في السفينة سهرة راقصة والليل رائق والبحر ساج والطرب غالب على المسافرين. ورآها الأستاذ داود منزوية في ركن من الأركان كأنها تأبى أن تشاركهم أو تشارك الطبيعة في فرصة الصفاء. فناداها كالزاجر المندد: ما بالك تعكفين على نفسك عكوف العجائز؟ تعالي

أرقصي وأطربي مع هؤلاء الفتيات والفتيان فمنهم من هو أكبر منك وكلهم يسبقونك في مجال السرور

قلت: وبماذا أجبته؟

قالت: تضايقت منه!

ثم أومأت إلي منذرة باسمة وقالت وهي تقتضب الحديث: فإن أردت أن أتضايق منك فعد إلى نصيحتك ونصيحته... وإياك أن تعو!

وكنا نتبادل الرأي كثيراً ونختلف كثيراً ولا نستغرب هذا الخلاف ولا نكف عن تبادل الآراء؛ لأن الخلاف بين كل أنثى وفيه لطبعها وكل رجل وفي لطبعه أمر من البداهة بمكان. فهي تنظر بعين حواء إلى حقائق الدنيا وهو ينظر بعين آدم، وكلاهما مخلص في خلافه ومستفيد على أنها كانت ترى في اللغة العربية واللهجة العامية مثل ما أراه، وكانت على تربيتها الأوربية وأحاطتها بخمس لغات أجنبية تغار على عربيتها غيرة البداوة، فلا تجاري الذين يميلون إلى مجافاة الفصحى وتبديل التهجئة والكتابة وتذهب في هذا مذهباً قريباً من مذهب المحافظين المتشددين وأسمها (مي) اختصار لأسم (ماري) باختيار أول حروفه الميم وآخرها الياء، ولكنها أحبت الاسم لعربيته لا لاختصاره، فان اسم ماري نفسه ليس بالاسم الطويل ولا الكثير الحروف

تذاكر الأدباء في مجلسها يوماً مناقب رجل من أعظم رجالات المصريين فشاركتهم إعجابهم به وثناءهم عليه، واستأذنت بعد ذلك أن تلومه أمامهم في أمر صغير

قالت: كنت في الجامعة المصرية فقدمني إليه الأستاذ لطفي السيد وتفضل فأطرى كتاباتي العربية والإفرنجية بما شاء له فضله وتشجيعه

ثم قالت: فلا أدري لماذا نسى الزعيم العظيم أنني عربية وأنني كاتبة عربية وأختار أن يخاطبني بالفرنسية ويصر على مخاطبتي بها مع إجابتي له بالعربية على كل سؤال وبدا عليها حقاً أنها غضبت لعربيتها من أن يخاطبها مصري عظيم بغير لغته ولغتها، وهي هي التي تتقن خمس لغات وتكتب بكل لغة كتابة يرضاها القراء من أبنائها. ولقد تكون

الواحدة من بناتنا وما تحسن لغة واحدة كلاماً فضلاً عن الكتابة، ثم لا تزال ترطن بها في البيت والطريق مع أبناء جنسها كأنها لا تفهم لغة غيرها.

وواجب لي في عنق العربية أن تغار على أدبها كغيرة مي على نسبتها إليها. فما عرفت العربية كاتبة أفضل من مي واقدر وأجلى، وليس فضل الندرة هنا بأقل من فضل الإحسان والإتقان.

حياها الله في ذكراها

(1). . . هل تكتبون مذكرات يومية، أو هل في نيتكم كتابة مذكرات أو تدوين ترجمة لحياتكم الحافلة كما يفعل كتاب الغرب؟ وهل لا توافقونني على أن كتاباً كهذا تصفون فيه ما صادفكم من عقبات وما تغلبتم عليه من الصعوبات، وتقصون فيه ما لا يعرفه الكثيرون عن حياتكم الشخصية والأدبية والسياسية يكون درساً مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة؟

(2) هل معنى عدم إقدامكم على الزواج إلى الآن أن الحياة الزوجية تقيد رجل الفكر أو تشغله عن أداء رسالته، أم أنكم لم تهتدوا إلى المرأة التي ترونها المثل الأعلى المفكر؟

(3) لكل إنسان أماني وآمال ومطالب، ومطالب من عاش لا تنتهي. . . وهي تختلف باختلاف الأحوال والأيام؛ ولكن ترى ما هي أعظم أمنية تتوقون إليها في الحياة؟

(الإسكندرية)

أحمد عبد اللطيف الحضراوي

بالمعهد البريطاني

هذه فقرات من رسالة وصلت إلي من الأديب صاحب الإمضاء المتقدم، وفي الجواب عن بعض أسئلته ما يصح أن يشترك فيه حضرات القراء، لأنه من موضوعات الكتابة العامة التي تطرق في الكتب والمجلات وأول هذه الأسئلة سؤاله عن المذكرات اليومية وما أدونه منها الآن أو بعد حين

وجوابي عن هذا السؤال أنني بدأت حياتي الأدبية - منذ الدراسة الأولى - بكتابة المذكرات والتعليقات على ما أطالع وأشاهد في كل يوم، وإنني لم أنقطع عن هذه المذكرات إلا في السنوات الأخيرة التي لا تتجاوز خمس سنوات فأول كتاب صدر لي هو (خلاصة اليومية) واسمه يدل عليه. فقد كان تلخيصاً لما أثبته في مذكراتي اليومية من الآراء والملاحظات والأصول التي أتناولها بالتوسع إذا خصصتها بالكتابة ثم ألفت كتابي (ساعات بين الكتب) وهو غير الكتاب الذي طبع بعد ذلك بهذا العنوان. فإنما كان

الكتاب الأول تعليقات القراءات التي تفرغت لها وأنا مقيم في أيام الحرب الماضية بأسوان، ولم يكن مجموعة مقالات أو فصول نشرت في الصحف كالكتاب الذي يحمل الآن هذا العنوان لكن المذكرات اليومية نوعان وليست بنوع واحد؛ فهذا الذي ذكرته مقصور على الفكر والقراءة كأنه فصول صغيرة أو موضوع متفرق في عدة صفحات، وهو النوع الذي أكثرت من الكتابة فيه، وعندي منه الآن مجموعة صالحة في انتظار الطبع كما هي، أو في انتظار التوحيد والتأليف، لأنها تصلح لهذا وذاك أما النوع الآخر وهو المذكرات عن حوادث الحياة وعوارضها فلم اشرع في الكتابة فيه إلا مرة واحدة طالت بضعة شهور، ثم مزقت ما كتبت وأحرقته ولم أعد إلى تجربة الكتابة في هذا النوع مرة أخرى، ولعلي لا أعود ولكني لا أحكم على أدب اليوميات كله بالتمزيق والإحراق من أجل أنني اضطررت إلى تمزيق ما كتبت وإحراقه؛ لأن أسبابي غير أسباب الآخرين، وموانعي غير موانعهم، والمحظورات التي أتقيها غير المحظورات التي يتقونها فالواقع أنني من أرغب الناس في قراءة اليوميات والانتفاع بها، وهي في اعتقادي أنفع القراءات للمؤرخ والمستطلع لأحوال الأمم وسرائر النفوس، ولاسيما المكتوب منها بخلوص نية لا يشوبها التكلف والرياء، ومعظم كتاب اليوميات ممن يتوخون خلوص النية وصدق الرواية عندما يخلون إلى صفحاتهم الخفية، لأن المسألة عندهم (ظاهرة نفسية) أشبه بالتوجه إلى محراب الاعتراف وكأنهم يخففون أعباء ضمائرهم بإلقائها عنهم في صفحات مسجلة يرجعون إليها ويؤمنون بصدقها وأمانتها، كما يخفف الإنسان أعباء ضميره بالإفضاء إلى صديق أمين؛ فهم مسوقون إلى صدق الكتابة بهذا الشعور العجيب الذي لا يستريح إلى غير الأمانة، وفي هذه الراحة ضمان للقارئ أو ضمان للحقيقة أقوى من ضمان المحاسبة والبينات

ولليوميات أدب مستفيض في اللغات الأوربية عامة وفي مقدمتها اللغة الإنجليزية، وهذا الأدب موضع دراسة المؤرخ والناقد النفساني، والفيلسوف، والباحث العلمي، وكل من تعنيه سير الجماعات والأفراد؛ يشتركون في دراسته وبحثه تارة لبيان الأسباب التي تدعو الناس في فترة خاصة من الزمن إلى تدوين مذكراتهم والعكوف على أسرار

ضمائرهم بمعزل عن الجماهير وشوا غلهم العلنية، وتارة لتحقيق الوقائع واستكشاف دخائل الرجال، ويأتون في جميع هذه التعليلات والتخريجات بما يلذ الوقوف عليه ويفيد!

وما من كاتب يوميات في الحقيقة إلا وهو ظاهرة نفسية كثيرة البدوات والغرائب، كثيرة الجوانب التي تتعلق بها مباحث النفسانيين والحكماء. وقد أشرت إلى طرف من ذلك في مقدمتي للجزء الثالث من مذكرات أحمد شفيق باشا رحمه الله حيث قلت عن يوميات صمويل بيبيز أنها موضع الحيرة عند بعض النقاد، (فلا هم قادرون على أن يجزموا بأنه كتبها لنفسه، لأن الإنسان لا يكتب كل هذه المجلدات وكل هذه الحوادث ليطلع عليها وحده، ولا هم قادرون على الجزم بأنه كتبها للأجيال المقبلة، لأنه كشف فيها أسراراً عن سيرته وسيرة أقربائه، كان معروفاً انه يخفيها اشد الإخفاء ويود لو يتعقبها بالمحو والنسيان)

ثم ضربت لذلك أمثلة شتى منها أن مسألة من المسائل البيتية كدرته فأتلف جميع أوراقها وأسانيدها ثم عاد إلى مذكراته فدون فيها جميع تلك الأوراق والأسانيد بأقصى ما استطاع من إسهاب وتفصيل!

هذا هو العجب، وهذا هو موضع التأمل والدراسة، وهذا الذي يجعل اليوميات مرجعاً صادقاً لدارس الحوادث ودارس الأخلاق.

فآنا لا أدين أدب اليوميات كله لأنني احترقت يومياتي ولم يخطر لي أن أعيد التجربة مرة أخرى وإنما يباعد بيني وبين كتابة اليوميات أمران كلاهما حقيق بالإثبات لأنهما أيضاً من ظواهر النفسيات وظواهر الفترة التي عشت فيها وأول الأمرين إنني غير مطبوع على التوجه إلى محراب الاعتراف، لأنه ضرب من الاستغفار لا أستريح إليه، أو لأنني ادخر لنفسي خفاياها وأنزها عن البوح لأحد غير مستثن من ذلك إلا القليل

فالمسألة التي تلعج خاطري وتثير شعوري وتتسرب إلى أعماق ضميري ليس مصرفها عندي أن أسجلها كما هي أو أفضى بها إلى أذن سامع قريب، وإنما مصرفها أن أعبر عنها في الشعر والكتابة، وأن أعرضها للتحليل والتقليب على وجوه شتى. فإذا حللتها

واستخرجت معناها فقد استرحت منها وفتحت مغالقها ولم يبق فيها عندي موضع للمعالجة والاستقصاء

ورب كارثة نفسية من المقيمات المعقدات تسكن كما يسكن البحر الهائج في لحظة واحدة ساعة انتهائي إلى مقطع الرأي فيها، أو ساعة علمي بما ينبغي أن أقابلها به من عمل. وهذا الذي ينوب في طبيعتي مناب الإفضاء والبوح وما أسميه التوجه إلى محراب الاعتراف

أما الأمر الثاني الذي دعاني إلى إحراق يومياتي فهو راجع إلى حوادث الفترة التي نعيش فيها لا إلى البواعث الخلقية وخلاصة إنني دونت تلك اليوميات لأستعين بها على تاريخ الفترة وتحليل أخلاق رجالها. ثم رأيت في أثناء الثورة الوطنية وبعدها بقليل أن ملفقي التهم ومدبري المكائد يستعينون بأمثال هذه اليوميات على طبخ القضايا وإحراج الأبرياء، وظهر لي أن إثبات ملاحظاتي على رجال الفترة من العسر بمكان مع تعرض اليوميات للمصادرة والسؤال، فآثرت إحراقها أيام اشتداد المحكمات والمصادرات وأحرقت معها رسائل شتى وصوراً وأوراقاً لها في حياتي الخاصة اثر لا يزول، وفاتني بإحراق هذه وتلك نفع كبير في مراجعة الحوادث التاريخية وصيانة الذكريات النفيسة، ولكنه اقل من الضرر الذي كنت متعرضاً له ومعرضاً له غيري لو أبقيت عليها وحدث ما كنت أتوقعه بسبيلها

على أنني ودعت كتابة اليوميات ولكني لم أودع كتابة المذكرات أو كتابة ما يقول عنه الأديب صاحب الخطاب انه قصة من الحياة الشخصية والأدبية والسياسية تكون درساً مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة ففي نيتي وأمام ذهني كتاب كبيراً كسره على أجزاء منفصلة وأفرغ كل جزء منه لناحية مستقلة تتناول حياة الأديب وحياة الصحفي والنائب والسياسي معاً وحياة الإنسان في خاصته وعامته وحياة الباحث عن نفسه وكونه وإلهه وسائر ما يتصل بالعقيدة والسريرة الدينية ويخيل إلى أنني لو فرغت سنة واحدة مكفي المؤونة استطعت أن أفرغ من أجزاء هذا الكتاب كلها بغير

عناء كبير، لأن أصوله وموضوعاته قلما تحوجني إلى مراجعات تفصيلية بعيدة من الذاكرة والوجدان

تلك كلمتي الموجزة في اليوميات، وما كتبت منها وأنوي أن أكتب بعد حين

أما سؤال الزواج، فقد أجبت عنه في (الرسالة) جواباً يغني فيه الأجمال عن الإسهاب، وكل ما أزيده هنا أنني استغرب المصادفة التي ساقت ألي أربعة أسئلة في شأن الزواج خلال شهر رمضان، وان كان أحدهما لا يستغرب في وقت من الأوقات، لأنه مزمن يأتي من السيدة الوالدة على غير ميعاد! فهل شهر رمضان - وما يعقبه من أفراح الأعياد - هما المسئولان عن مصادفة الأسئلة الثلاثة الأخرى؟

وأما أمنيتي التي يسألني الأديب عنها سؤاله الأخير، فلعلها لا تشرح في ذيل هذا المقال، وأحرى بها أن تؤجل إلى مقال قريب، لأنني لا اطرق منها جانباً يخصني دون غيري؛ بل أطرق منها ما يصح أن يمتد إليه كل بحث وينظر فيه كل ناظر

أمنيتي...

قلت في ختام مقالي السابق: (أما أمنيتي التي يسألني الأديب عنها سؤاله الأخير فلعلها لا تشرح في ذيل هذا المقال، وأحرى بها أن تؤجل إلى مقال قريب، لأنني لا أطرق منها جانباً يخصني دون غيري، بل أطرق منها ما يصح أن يمتد إليه كل بحث وينظر فيه كل ناظر. ..)

ولم أقصد بكتابة هذا المقال عن أمنيتي في الحياة إلا ما قصدته بكتابة مقالي السابق عن أدب اليوميات، وهو تسجيل ظاهرة نفسية أستطيع أن أراقبها في نفسي وأن أتخذ من تجربتي لها فائدة أضيفها إلى تجارب غيري. فليس أصدق في دراسة النفسيات من تسجيل تجارب النفوس.

وإذا صدقت تجربتي في هذا الباب فما من أمنية تسيطر على حياة الإنسان إلا ظهرت بذورها الأولى في بواكير صباه، فإنني لم أتمن في حياتي أمنية كبرى بعد الذي تمنيته بين العاشرة والخامسة عشرة، وكل ما أضافته السنون من جديد أنني كنت في الطولة أتمنى على سبيل الرمز والتلميح، وأنني استوضحت أماني بعد ذلك فبرزت لي على ضوء الوصف البين الصريح بين العاشرة والخامسة عشرة تمنيت على التوالي أن أصبح ولياً من أولياء الله، وقائداً من كبار القادة، وأديباً من رجال القلم النابهين. فعلمت مع الزمن أن هذه الأماني الثلاث إن هي إلا أمنية واحدة ضلت طريقها حتى اهتدت إليه، وجهلت عنوانها حتى اتسمت به والتزمت مسماه، وأن الولي والقائد إنما

هما جانبان منطويان في الجانب الأكبر أو الجانب الوحيد الذي هو جانب الباحث والمفكر والأديب.
شاقني من الولاية وأنا في العاشرة تسخير قوى الطبيعة واستطلاع أسرار الدنيا والآخرة؛ فقرأت مناقب الصالحين وكتب السحر، وأردت أن أمشي على الماء، وأن أطير في الهواء، وأن أتلو القسم على شيء من الأشياء فإذا هو مذعن مطيع، وأن أدعوا الغيب إلي فإذا هو مجيب سميع؛ فصليت عشرات الركعات، وسردت ألوف الأسماء، وأوشكت أن أتمادى في (الدروشة) وأن أزهد في الدنيا وأنقطع للعبادة، وأنتظم بين من يسمونهم أهل الطريق. ثم عصمني حادثان صبيانيان يضحكان، ولكنها بما أعقبا وأفادا بالغان في الجد والتسديد: أحدهما ضياع حذاء بالمسجد الكبير في يوم صلاة جامعة بين أولئك أهل الطريق! فقلت: إن أناساً يسرقون الأحذية في مساجد الله لا يرجى بينهم فلاح. والآخر إمام من أئمة (المندل) كذب على الحاضرين باسمي وأنا أنظر لهم في (الفنجان) لأستطلع الغيب؛ فقلت إن الذي يكذب في الحس المشهود، لن يدلني على الغيب المحجوب. وكان هذا وذاك فراق بيني وبين الولاية والكرامات.
أما قيادة الجيوش فكان لها سبب معقول في تلك الأيام. فقد كانت بلدتي (أسوان) قاعدة من القواعد الكبرى في طريق حملة السودان، وكان فيها مقر الجنود المصريين والسودانيين والإنجليز الذين ينتظرون السفر ذاهبين أو قافلين، وكنا نصبح ونمسي على خوف من الدراويش الذين يذبحون الرجال والنساء ويرفعون الأطفال مطعونين على أسنة الحراب. فكانت لعبتنا في المدرسة تمثيل هذه الجيوش واستعجال النقمة من الأعداء.
ثم لم ألبث أن ظهر لي أن قيادة الجيش ليست هي الأمل المقصود ولا الأمنية الفضلى؛ وأنني كنت من آل عطارد ولم أكن من آل المريخ؛ لأننا كنا ننظم الجيوش على أساليب القصص العنترية والهلالية وما ورد عن سيف بن ذي يزن وأبطال ألف ليلة وليلة: فارس يبرز بين الصفوف ليتحدى خصومه بأبيات من الشعر أو فقرات من الكلام المسجوع، وهذا هو بيت القصيد!

فلما نظمت الشعر عرفت ما أردت، ووصلت إلى ما قصدت، وتركت فتوح القيادة، كما تركت من قبلها كرامات الولاية! وانتهيت بعد طواف قصير في هذا التيه الصغير إلى أمنية الأدب والكتابة، ولكني لا أزال ألمح في باطن هذه الأمنية مسحة من غلبة القيادة، ونفحة من أسرار الولاية، وشوقاً إلى المجهول لم يقف قط عند حد من الحدود؛ ولم يفارقني قط حتى حين أحسبني مستغرقاً في الحس وفي غواياته وملاهيه

هذه عقدة من عقد النفوس التي التبست فيها أول الأمر ثكنة القائد وصومعة العابد وروضة الشاعر. ثم انجلت الرؤية من وراء الغشاوة الظاهرة شيئاً فشيئاً، حتى ظهر أن الثكنة والصومعة والروضة شيء واحد يفترق من بعيد ويتفق من قريب لكن العجيب غاية العجب هو أن تحل هذه العقدة على البداهة السهلة وعلى أيدي طائفة من التلاميذ لم يفهموا ما صنعوه ولعلهم لا يفهمون بعد ذلك لو سئلوا فيه

وبيان ذلك أننا كنا قبل خمس وعشرين سنة نعمل في التدريس بالمدرسة الإعدادية الثانوية: الأستاذ المازني، والأستاذ الزيات، والأستاذ علي الجندي، وكاتب هذه السطور، وطائفة مختارة من الفضلاء الذين لهم اليوم مكانهم الممتاز في مناحي العلم والعمل بهذه البلاد فقيل لنا يوماً إن التلاميذ المعاقبين يملؤون جدران الحبس بالنوادر والفكاهات عن المدرسين، وذهبنا إلى حجرات الحبس فقرأنا على الجدران أفانين من تلك النوادر والفكاهات: أذكر منها مما كتبوه عن المازني وعني: أن ناظر المدرسة سألني وقد رآني على بابها: أين صاحبك؟ فقلت له: نسيته في الدرج! وأن العقاد دعا المازني إلى وليمة على مائدة فلم يأكل المازني؛ ثم دعا المازني العقاد إلى وليمة على الأرض فلم يأكل العقاد! وكثير من أمثال هذه المساجلات نكتفي بما تقدم منها على سبيل التمثيل لأنه غير المقصود في هذا المقال.

أما المقصود فهو الألقاب التي أطلقها علينا أولئك الخبثاء وكشفوا بها من جوانب الشخصية ودخائل النفس ما يعي به كبار النقاد.

فاختاروا للأستاذ المازني اسم تيمورلنك

وللأستاذ الزيات اسم الشاب الظريف.

وللأستاذ علي الجندي اسم ابن المقنع!
ولكاتب هذه السطور اسم حرحور!
أما الأستاذ المازني فبراعة التسمية في أنه كان يدرس التاريخ وأنه كسميه صغير الجسم مصاباً بإحدى قدميه، وأنه مسيطر على التلاميذ، قلما يحتاج إلى معاقبة أحد منهم لخروجه على نظام الحصة، لأنه كان مهيباً بينهم قديراً على أخذهم بمهابتهم إياه قبل خوفهم من عقابهم؛ فجمعوا كل ذلك في اسم تيمورلنك أحسن جمع مستطاع
وأما الأستاذ الزيات، فدماثته، وظرفه، ولطف حديثه، وأسلوبه الأدبي، وأناقة ملبسه، ترشحه لاسم الشاب الظريف أصدق ترشيح.
وأما الأستاذ الجندي فقد لاحظ الخبثاء في تسميته بابن المقفع أنه نحيل هزيل، وأنه يدرس لهم كليلة ودمنة وقواعد البلاغة، فوفقوا بين ذلك كله أبرع توفيق!
وأما كاتب هذه السطور فقد سموه (حرحور) باسم الكاهن الحكيم المصري الذي انتزع الملك على صعيد مصر قبل الميلاد بألف سنة؛ فلم تكفه أسرار الكهانة وحب الحكمة حتى طمح إلى الغلبة والسطوة. ولم يفت الخبثاء في هذه التسمية أن كاتب هذه السطور من أقصى الصعيد حيث قامت دولة حرحور! وهو ما كانوا يذكرونه بينهم كلما أخذتهم بالشدة التي اشتهر بها أهل الصعيد الأقصى وفي براعة هذه التسميات شاهد على أن بداهة الجماهير لا تهبط بهم دائماً إلى ما دون طبقة الأفراد، بل ربما ارتفعت بهم أحياناً إلى طبقة من الزكانة لا يبلغها الفرد الممتاز في كل حين
فاسم حرحور قد جمع من جديد ما فرقته أيام الصبا الباكر بين طالب الولاية وطالب القيادة وطالب الشعر والثقافة. وقد دل من جديد على أن هذه الصور المختلفات لم تغب في أطواء العمر كل الغياب؛ فإلى جانب الروضة الأدبية لا يزال للثكنة مكان وللصومعة نصيب.
ويسألني سائل: ولم تمنيت الأدب أو تمنيت المنزلة الأدبية؟ فأقول: إن (التعبير عن النفس) هو مزية الأدب والشعر والكتابة عامة، وهو في الوقت نفسه طريق إثبات

النفس الذي يمثل الثكنة نحواً من التمثيل، ويمثل البحث عن الحقائق والأسرار من قريب.

ويلوح لي أن التعبير عن النفس أو (إثبات النفس) عندي شيء لا أنساه حتى حين أكتب عن نبذ الشهوات وعن العبادة وعن الصيام قاصداً أو غير قاصد.

ففي مقالي عن الصيام منذ ست عشرة سنة قلت سائلاً:

(ولكن هل الصوم من دواعي إنكار الذات المتنبهة، أو هو من دواعي إثباتها وتوكيدها؟ وهل هو من أسباب نسيان النفس الشاعرة وسحق كبريائها، أو هو من أسباب تذكرها وتقرير وجودها؟)

ثم قلت مجيباً: (أكاد أقول إن الصوم بجميع درجاته وأنواعه حيلة نفسية خفية لتقرير وجودها وتوكيد عزتها ورفض كل ما يسيء الظن بها في نظر صاحبها. وما أيسر أن نعرف ذلك! حسبنا أن نراقب الحالة التي تناقض الصوم لنهتدي إلى الحقيقة من المقابلة بين النقيضين. فانظر على سبيل المثال إلى أي رجل تعرفه ممن أرخوا العنان لشهواتهم وأجابوا نفوسهم إلى أهوائها واسترسلوا في الغواية بلا رادع ولا مقاومة، فهل ترى هذا الرجل (واجداً) نفسه مكرهاً لها، أو تراه مبتذلاً نفسه فاقداً لها في غمار شهواتها وتيار أهوائها؟ إنك لا ترى رجلاً كهذا إلا قد ارتسمت على وجهه علامة احتقار هي قبل كل شيء موجهة إلى نفسه. . . ولست أعرف معنى للنفس في حالة الاستسلام والاسترسال التي نشاهدها فيمن يلبون حاجات نفوسهم ولا يقفون لها في شهوة من شهواتها؛ فإن حكم هؤلاء في هذه الحالة كحكم الخشبة المنساقة في تيار الماء، أو الريشة المتطايرة في الهواء؛ أي أنه هو حكم الجماد المفقود في تيه النواميس الكونية بلا إدراك ولا شعور ولا إرادة. ولا يزال الإنسان شيئاً لا نفس له ولا استقلال لكيانه حتى يمتنع عن شيء يدفع إليه ويقف في وسط التيار الذي يحيط به. فهناك يجد نفسه بعد إذ فقدها بالمطاوعة ونسيان الذات، ويشعر بمعنى رفيع هو أسمى معاني الحياة لم يسم إليه إلا الإنسان بين سائر الأحياء)

وفحوى هذا جميعه أنني تمنيت الأدب لأنني تمنيت التعبير عن النفس، ولأن التعبير عن النفس يجتمع فيه عندي تحقيق وجودها ومتعتها واستكناه حقيقتها وحقيقة ما حولها، وليس فوق هذا المطلب من مطلب رفيع يتطلع إليه موجود شاعر بوجوده.

وأمنيتي...!

(... فهمنا من مقالكم (أمنيتي) ما هي العلاقة بين الفروسية وقرض الشعر، أو بين أن تتمنى قيادة الجيوش وأن تتمنى النبوغ في الأدب. ولكن تسمحون لي أن أقول إن العلاقة بين التدين والأدب لا تزال غير جلية، فهل تتفضلون بتوضيحها...

(... ولا أدري هل تمنيتم الأدب ولم تتمنوا شيئاً آخر من الدنيا؟ ألم تتمنوا السعادة مثلاً؟ ألم تتمنوا لذة من لذات الحياة؟ أليس الحب أمنية للشاعر وإخوانه من رجال الفنون الجميلة؟ فما قولكم في هذا؟ هل يغني الأدب وحده عن كل هذه الأماني!...)

محمود حسين

هذه نبذة من خطاب مطول في التعقيب على مقالنا السابق عن أمنيتي في الحياة، نعود بها أو تعود بنا إلى هذا الموضوع الذي لا يزال أبداً في حاجة إلى تكملة كاحتياج المرء إلى التمني واستكناه ما يتمناه وإطالة القول في هذا وذاك.

ويلوح لي أن الأديب المستفهم يبحث عن علاقة بي الأدب والتدين كالعلاقة بين الأدب ونظم الشعر في ميدان القتال والتهويل على الأنداد.

فالشعر قريب من الفروسية لأن الفرسان كانوا ينظمون الشعر بين الصفوف، فهم فرسان وشعراء؛ والقرابة بين الطائفتين واضحة على هذا المنوال.

ولكن ما هي العلاقة بين الإيمان الديني والنزعة الأدبية؟ هنا يقول الأديب المستفهم إن العلاقة يحيط بها شيء من الغموض والواقع أن العلاقة هنا أوضح وأقرب إذا بحثنا عن المناسبات السطحية التي من قبيل نظم الشعر بين صفوف القتال للتحدي والتهويل؛ فإن كثيراً من الشعراء ينظمون في الأغراض الدينية وفي الغزل الإلهي وفي شطحات الصوفية وأهل الطريق.

فإن كان هذا هو المقصد من العلاقة بين الإيمان الديني والنزعة الأدبية فما أوضح الموضوع وما أبعده من الغموض!...

إن الشعراء الصوفيين لا يقلون عن الشعراء الحماسيين، وقصائدهم رائجة بين الناس كرواج قصائد الفرسان، لأن حلقات الأذكار وما يشبهها أشيع في الأندية والمجالس التي تنشد فيها سير الأبطال بلغة الفصحاء أو بلغة العوام.

ومن ذكرياتي في هذا الصدد أنني نظمت الشعر في الأغراض الدينية كما نظمته في المناجزة والدعوة إلى القتال.

فقد أسلفت بمقالي السابق أنني أوشكت أن أسلك طريق (الدروشة) وأنقطع عن الدنيا ومساعيها. وكنت خلال ذلك أسمع الأذان من مؤذن المسجد المقارب لبيتنا وهو منشد مشهور بجمال صوته وحسن إلقائه، فكان شجوني أن أسمع مقدمات الأذان قبل صلاة الجمعة وهي الأناشيد الثلاث التي كانوا يسمونها حسب ترتيبها بالأولى والثانية والثالثة، وكلها من الشعر المنظوم في التصوف أو مدح النبي عليه السلام.

وكان مسموحاً للناشئين أن ينشدوا هذه القصائد مع المؤذن أو على انفراد، بل كان إنشاد الناشئين مفضلاً مستحباً لأنهم أقرب إلى صفاء النفس وطهارة العبادة.

فاستأذنت في إلقاء إحدى هذه القصائد مرات، واخترت في بداية الأمر شعراً من دواوين البرعي وأمثاله. ثم تجرأت على نظم قصيدة طويلة أحكي بها شعر المديح النبوي، وأنشدتها دون أن أخبر أحداً بأنني ناظمها، وخفت أن يسكثروها عليَّ بعد ظهور الحقيقة فختمها ببيت لا أذكر منه إلا الشطرة الأخيرة وهي: (عباس من هو بالأشعار مدرار)

وإنما أذكرها لأنها هي الشطرة الوحيدة التي انتقدها أبي رحمه الله حين أطلعته على الحقيقة. فتبينت الفرح في أسارير وجهه والتشجيع في صريح كلامه، ولكنه قال لي برفق: ما ينبغي أن تثني على نفسك هذا الثناء وأنت ترى كيف يختم الأئمة المادحون قصائدهم بالتذليل والتوسل وتصغير ما قالوه وأسلفوه من الصلوات والعبادات.

فهذه علاقة بين التدين ونظم الشعر كالعلاقة بين نظم الشعر والحماسة العسكرية، ولكنها كما قدمت علاقة سطحية توجد بين الأدب وبين كل موضوع ينظم فيه الشعراء. ففي وسعك على هذا القياس أن تقول مثلاً إن الهندسة (الميكانيكية) قريبة

من الشعر لأن بعض الشعراء ينظمون في وصف الطيارة، وأن تقول كذلك إن علم الحيوان قريب من الشعر لأن بعض الشعراء ينظمون في وصف الخيل أو وصف العصافير.

إلا أنها علاقة سطحية لا يرجع إليها في استكناه أسرار الشخصية الإنسانية وروابط الملكات والطبائع الخفية، وغير هذه العلاقة أردنا حين قلنا: (إن التعبير عن النفس يجتمع فيه عندي تحقيق وجودها ومتعها واستكناه حقيقتها وحقيقة ما حولها).

فالتعبير عن النفس هو الأدب في لبابه

وما هو التعبير الذي عنيناه؟

التعبير الذي عنيناه هو كشف المكنون وتوضيح الأسرار وتمثيل في صورة تخرجها ن عالم الخفاء إلى عالم النور.

وهنا العلاقة الوثيقة بين أعمق أعماق الدين وأعمق أعماق الأدب: هنا العلاقة بين استطلاع أسرار الوجود وبين معرفة النفس ومعرف الإفصاح عن معانيها والإبانة عن أشواقها بلسان الأدب أو بلسان الفن على التعميم.

فكل تعبير ينطوي على سر موضح مكشوف

وأي سر أعمق من سر الوجود وأحوج منه إلى التعبير والتقريب والإلحاح بعد الإلحاح في الاستكناه والاستطلاع

ذلك ما أردناه حين قلنا إن الصومعة قريبة من الروضة الأدبية، وذلك هو التغيير عن النفس بمعنى إثبات حقيقتها وإثبات العلاقة بينها وبين الحقائق الكبرى.

ولكل نفس تعبيرها على حسب ما تحسه وتتوق إليه، فليس من الضروري أن ينتهي التعبير بكل إنسان إلى التعمق في أسرار الدين، ولكنه إذا انتهى ببعض الناس إلى التعمق في تلك الأسرار فليس ذلك بغريب أما أنني تمنت الأدب ولم أتمن السعادة فسبب ذلك بسيط لا نطيل الإفاضة فيه.

سببه أن السعادة أمنية عامة وليست بالأمنية المحدودة أو الأمنية الخاصة.

فمن قال إنه يتمنى السعادة فكأنما قال إنه يتمنى ما يتمناه كل إنسان، وكأنه بذلك لم يقل شيئاً يستحق السؤال.

كلنا يتمنى السعادة، ولكن سعادة هذا غير سعادة ذاك سعادة هذا في المعرفة، وسعادة ذاك في جمع المال، وسعادة غيرهما في السطوة والاستعلاء، وسعادة آخرين في الراحة والقناعة، وكلهم يتمنون السعادة على نحو من الأنحاء فإذا سألني ماذا تتمنى فهو لا ينتظر مني أن أحيله إلى السعادة مجملة غير مفصلة، بل هو ينتظر مني أن أبين له الأمنية التي تسعدني أن ظفرت بها، أو التي أعتقد أن طريقها هو طريق السعادة وإن لم أصل إليها وكذلك لذة الحياة أو لذات الحياة. فهي مسألة وظيفة من وظائف البيئة الحية لا تحتاج إلى سؤال، وما من حي إلا وهو يشتهي أن يشعر باللذة وأن يجتنب الألم.

وغاية ما بين الأحياء من فروق في هذا الباب أن يختلفوا في أسباب اللذة ودرجاتها على نحو قريب من اختلافهم في أسباب السعادة ودرجاتها هي وظيفة وليست أمنية.

ومن قال إنني أطلب اللذة فكأنما قال إن لي معدة ولي عينين ويدين وقدمين، وذلك غني عن المقال.

أما الحب وأنه أمنية للشاعر وإخوانه من رجال الفنون فذلك صحيح.

ولكن من قال إن (التعبير عن النفس) لا يشمل الحب في بعض نواحيه؟

ومن قال الاشتياق إلى الحب والاشتياق إلى التعبير عن النفس شيئان مختلفان؟

إن الإنسان لا يجد في شئ كما يجدها في الحب، وإنه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف، ومن عطف وجمود، ومن رحمة وقسوة، ومن خفايا وظواهر، ومن فجيعة وضحك، ومن حكمة وحماقة، وممن إنسانية وحيوانية كما يعرف ذلك جميعه في الحب , فالحب ومعرفة النفس صنوان.

ومعرفة النفس منتهية لا محالة إلى العبير عنها، ولم يكن هذا التعبير بالمنظوم والمنثور ونحن حين قلنا إن (التعبير عن النفس) يجمع ما تفرق بين الثكنة والصومعة

والروضة الأدبية قد قصدنا أن تحيا النفس أولاً وأن تشعر بالحياة شعورها الخاص بها أن يتاح لها تمثيل ذلك في صورة من صور التعبير.

ولم نص الحب وحده بين دوافع الشرور؟

لم لا نذكر المجد أو البر أو الجهاد الإنساني أو الوطنية أو غير ذلك من معارض الشعور ومعارض الشوق إلى التعبير؟

فالتعبير عن النفس عندنا كلمة مقابلة للشعور بالنفس. ومتى شعرت النفس بحقيقتها فالعواطف الكبرى جميعاً حاضرة بغير استثناء، مذكورة بغير تسمية، معممة بغير تخصيص.

جاء في خطاب مطول من الأديب (عبد القادر العشماوي) يروى فيه مناقشة أدارتها جماعة (الرابطة المصرية ضد التدخين) وقالت فيها الأستاذة الفاضلة نعيمة الأيوبي - على رواية الأديب - (لنكن عاديين في أحاديثنا لنقدر أن نعبر عن شعورنا وأفكارنا ونتفاهم في أغراضنا وشؤون إصلاحنا، لا سيما مع الطبقات الفقيرة. ولنخلع عنا ذلك الرداء المزيف الصناعي الذي نلبسه كلما قابلنا عظيماً أو وقفنا في حفل للخطابة؛ فلا ندري أأخطأنا في التركيبات النحوية أم في التعبير عن أفكارنا. ولنتكلم الآن باللغة التي نستعملها في كل مناقشاتنا حتى في مرافعاتنا أمام القضاء، ألا وهي العامية).

قال الأديب عبد القادر العشماوى: (ثم نهض الأستاذ كامل الكيلاني عقب الدكتورة نعيمة الأيوبي وقال ما فحواه: (إنه لا يسمح بأية حال من الأحوال بالموافقة على نصرة العامية على اللغة العربية الفصحى. ومن لم يستطع التعبير بالعربية الفصحى فما هو بمستطيع أن يعبر عنها بالعامية...)

وهكذا إلى آخر ما ورد في خطاب الأديب. ثم قال سائلاً: (ما رأيكم في هذا الخلاف؟ وهل يمكن نصرة اللغة الفصحى في بلد سواده الأعظم من الأميين؟ وإذا خاطبت إنساناً فقيراً باللغة الفصحى لتسدي إليه النصح والإصلاح هل يفهمك أو يظن انك تسخر به فيحز ذلك في نفسه وينصرف عنك متألماً؟ وأرجو أستاذي إذا تفضل بالجواب أن يكون رده على صفحات مجلة (الرسالة) الزاهرة المحبة إلى نفوسنا، واليكم عظيم الاحترام... الخ)

تلك رواية الأديب، وهي لا تستلزم في الجواب عليها أن أتعرض لتفصيلات رأيين لم أقف منهما على غير هذه الإشارات التي لا تشمل كل ما يقوله صاحب الرأي في شرحه والدفاع عنه.

فحسبنا أن نحصر الكلام هنا في العلاقة بين الفقر والعامية، وهل من دواعي العطف على الفقير أو من دواعي النظر في مشكلة الفقر أن ننصر العامية على الفصحى، وأن نعبر عن آرائنا باللغة التي يتكلمها الفقراء؟

فالعامية قبل كل شئ هي لغة الجهل وليست بلغت الفاقة أو بلغة اليسار وبين الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكلام بغير العامية التي لا جمال لها ولا طلاوة على عباراتها وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفصحى، أو يعبرون بالعامية تعبيراً يزينه جمالها وتبدو عليه طلاوتها فإذا عطفنا على العامية فإنما نعطف على الجهل ونستبقيه ونستزيده، ولا نخفف وطأة الفقر ذرةً واحدة بتغليب عبارات الجهالة على العبارات التي تصاغ بها آراء المتعلمين والمهذبين

إن علاج مشكلة الفقراء هي أن ترفع طبقهم معيشة وتفكيراً وحديثاً ومنزلة من التعليم والتهذيب، وليس علاج تلك المشكلة أن نسجل عليها حالة من العجز والجهالة هي التي يشكون منها ويسألون المعونة على علاجها

وماذا يفيد الفقراء أن يسكن الأغنياء الأكواخ؟

وماذا يفيد الفقراء أن يتكلم المتعلمون لغة الجهلاء؟

وماذا يفيد الفقراء أن تساويهم في الحرمان من المال والعلم ومن الفصاحة وقدرة التعبير؟

إنما يفيد الفقراء أن تصبح أكواخهم قصوراً أو كالقصور في الإراحة وتصحيح الأبدان وإنما يفيدهم أن يكون نصيبهم من اللغة كأحسن نصيب يتعلمه المتعلمون. فان لم يبلغوا هذا المبلغ فالفائدة ألا يكون نصيبهم منها أحقر نصيب، وألا نسجل عليهم هذه الحالة المزرية كأنهم لا يصلحون لغيرها ولا يطمحون إلى ما فوقها.

وإنما يفيد الفقراء أن يساووا أحسن الناس لا أن يصبح أحسن الناس مثلهم في المعيشة والعمل والعلم والكلام ولم يقل أحد أننا حين نبني القناطر والجسور والمستشفيات لعلاج داء الفقر ينبغي أن ننسى الهندسة لأن الفقراء لا يعرفونها ولم يقل أحد أننا حين ندبر الطعام للمعوزين ينبغي أن نبطل أطايب الطعام لأن المعوزين

لا يملكون أثمانها فلماذا يقول قائل إن إهمال اللغة الفصحى واجب عند البحث في مشكلة الفقر والجهل لأن الفقراء والجهلاء لا يحسنون اللغة الفصحى، وأن المناقشة في تلك المشكلة ينبغي أن تدور بالعامية لأنها هي اللهجة التي يتكلمها الفقراء والجهلاء؟

يقول الأديب صاحب الخطاب (إذا خاطبت إنساناً فقيراً باللغة الفصحى لتسدي إليه النصح والإصلاح هل يفهمك أو يظن أنك تسخر به، فيحز ذلك في نفسه وينصرف عنك متألماً؟)

فمن اللازم أولاً أن نفرق بين اللغة الفصحى واللغة الصعبة التي لا يفهمها إلا الأقلون: إذ ليس كل فصيح صعباً ولا كل عامي ركيك سهلاً على سامعيه ومتى فرقنا بين الفصاحة والسهولة أدركنا أن السهولة تتوافر للكلام الفصيح وتنفذ إلى أسماع الجهلاء غير حائل بينها وبين النفاذ إلى تلك الأسماع حركة الأعراب ولا صحة التركيب هذا أولاً

أما (ثانياً) فمن اللازم أن نذكر أن العظات إنما تتلقى بالخشوع والتوقير كلما اقترنت في ذهن السامع بملابسات الخشوع والتوقير والعظات التي تقترن في ذهن السامع بالمسجد وحلقات العلم أحرى أن تقترن بالنفوس الخاشعة والأسماع المصغية من عظات تحمل طابع السوق ومجالس اللهو والمزاح. وهذه المقارنة النفسية أشبه بمقارنة الهيبة التي تسري إلى قلوب السامعين وهم يصغون إلى الواعظ في المسوح ولا تسري إليهم وهم يصغون إليه في مباذل البيت وملابس السهرة وكسوة (الردنجوت).

أما شعور الجاهل الفقير وأنت تخاطبه بالفصحى فقد تختلف فيه الأقوال حسب اختلاف الأحوال، ولكنه لو أنصف لأمتعض ممن لا يخاطبه إلا وهو متنزل إلى لغة أوضع الطبقات، كأنه يترفع عن مخاطبته باللغة التي يخاطب بها أقرانه وزملاءه. وما أظن الجاهل الفقير يجب أن يترفع الأغنياء عن لقائه في حجرة الاستقبال التي يلقون فيها أقرانهم وزملائهم ليخرجوا له إلى المراء حيث يجلس بغير مقعد وبغير مهاد. . . فلماذا يحب الجاهل الفقير أن يتنزل مخاطبه من أسلوبه وأسلوب أقرانه وزملائه ليخاطبه بما هو دون ذلك الأسلوب؟

إننا لم نسمع أن أحداً تواضع حباً للفقير فخلع حذائه ليمشي حافياً أو يلبس النعال؛ فما بال أناس يتواضعون فيخلعون لغة المعرفة والثقافة لأنها كما يزعمون لغة لا يفهمها الفقراء؟

ما خلت الدنيا قط ولن تخلو من التعلم والتعليم، وإن اليوم الذي ننبذ فيه كل ما نتعلمه ونتعب في تعلمه لهو اليوم الذي ينحدر فيه الإنسان إلى الجهل الذي هو أشيع شئ بين الناس وأغناه عن معلمين ومتعلمين وعن جهد في التعليم والتحصيل وإذا كنا نحتج لبقاء اللغة العامية بأنها اللغة التي يعرفها الجاهل بغير تعلم فلماذا لا نحتج لكل جهل بمثل هذا الاحتجاج؟ وأي شئ أحق من العقل الإنساني ومن النفس الإنسانية بأن نفهمها على الوجه الأمثل حين نفهم اللغة الصالحة لإبداع أشرف المعاني وأرفع الصور الذهنية وأحقها بالبقاء والتخليد واللغة العامية بطبيعتها لغة وقت محدود وجهة محدودة، فهي لا تصلح لبقاء أثر من الآثار التي تستحق البقاء. ولن نكسب شيئاً ولا الفقراء يكسبون بصيانة حديث العامة وإهمال الحديث الذي يخلد المتنبي والمعرى وابن الرومي وشكسبير وهوميروس وسوفكليس وفرجيل

وما ارتقى العامة قط لأنهم فهموا نظام الصحة وقواعد الحكم وهم جهلاء أميون، ولكنهم يرتقون حين يتعلمون ويقتدرون على فهم الكلام في لغة المعرفة والإرشاد. أما وهم أميون جهلاء فلن يفهموا ما يقال، ولو قيل لهم بلغة الجهال وأنها لبدعة عجيبة تلك التي سرت في الزمن الأخير وتعلق بها أناس منا مخلصين وأناس منا مخدوعين وأناس منا يسيئون النية وهم على علم بالغرض مما يدعون إليه فالدعوة إلى تغليب العامية إنما تنبع في مصدرها الأول من جانبين متناقضين وإن اتفقا في غرض واحد فجانب الشيوعيين المنكرين للعقائد والأديان يحقدون على اللغة الفصحى كحقدهم على كل امتياز وارتفاع، وغرامهم بكل ما يهبط إلى مرتبة الصعاليك؛ ثم هم لا ينسون أن القضاء على العربية الفصحى فيه قضاء على دين المسلمين الذي يحاربونه كما يحاربون كل دين وجانب المبشرين لا يعنيهم من الأمر إلا أن يحاربوا الدين بين الأمم

العربية، فلا يعنيهم في بلادهم أن يغلبوا الكلام المسف المبتذل على الكلام المهذب الفصيح.

ومما يكشف عن سوء نية هؤلاء وهؤلاء انهم يفضلون الكتب التي تؤلف بكلام العامة فيما يختارونه للترجمة إلى اللغات الأوربية؛ مع أن الترجمة لا تظهر فرقاً بين أسلوب العوام وأسلوب الخواص، ولا يدري من يقرأها وهو لا يعرف الأصل أهي من الكلام الدارج منقولة أم هي منقولة من كلام تلتزم فيه الفصاحة وحركات الأعراب.

فهو إذن تشجيع للعامية في وطنها وليس بتشجيع للعامية في اللغات الأخرى، ومن هنا ينكشف سوء النية الذي أومأنا إليه.

فرأي فيما سأل عنه الأديب أن تغليب لغة الجهل كارثة على الأمة العربية وعلى العقل الإنساني لا تقل عن كارثة الفقر وسوء العيش، وإن علاج مسألة الفقر لن يتوقف في وجه من وجوهه على ترك الكلام الفصيح وتقديم الجهالة الكلامية، ولن يختلف الأمر هنا بين طب الأمراض البدنية وطب الأمراض الاجتماعية. فلا الطبيب مضطر إلى إهمال لغة الطب وهو يعالج مريضه، ولا المصلح الاجتماعي مضطر إلى إهمال لغة المعرفة وهو يعالج الفقر أو الجهالة، وليس ما يفهمه الفقير الجاهل من عبارات العامة بأكثر مما يفهمه من لغة الخاصة إذا كانت الصعوبة في الإدراك أو كانت الصعوبة في الموضوع. فلو نقلت أر سطو إلى أوضع اللهجات لما سهلت فهمه إلى أقل تسهيل، بل لملك تزيد الصعوبة بإقحام المعاني الرفيعة في لغة لم تتهيأ لتمثيلها منذ زمن بعيد.

ولنرحم الفقير الجاهل برفعه إلى طبقة اليسار والمعرفة، والتسوية بينه وبين من يفصحون ويفقهون أما رحمته بإبقائه حيث هو في عمله وكلامه ومداركه فتلك هي القسوة التي لا يشيعها الرحماء.

(. . . ولست أدري لماذا تصرون على أن تكون هناك علاقة بين الأدب وقيادة الجيوش، أو بينه وبين انجذاب أهل الطريق. ففي رأيي أن لا علاقة هناك إلا علاقة الطموح والرغبة في نعم الشهرة المنعقدة فوق جبين الكثيرين. . . فطموحكم من مطالع صباكم هو الذي حبب إليكم أن تكونوا شيخاً يحيط بكم ما كان يحيط بمشايخ حيكم من احترام وتبجيل في بيئة كالتي نشأتم بها، والتي يبدو لي أنها كانت شديدة التقوى كثيرة الاحتفاء بالدين ورجاله، ثم تحولت الأنظار إلى الجيش المصري والإنجليزي الهابطين من السودان وكثر الحديث عنهما وعن قوادهما في بلدكم، فتحولت (بوصلة) الطموح عندكم إلى هذا القطب الجديد. هذا رأيي الذي أظنه الصواب، وقد جربت مثل ذلك بنفسي، وتمنيت وأنا في المدرسة الابتدائية أن أكون لاعب كرة يحيط بي من تصفيق الطلبة وإعجابهم ما يحيط بمشاهير اللاعبين. ثم تمنيت من أول دراستي الثانوية أن أكون محامياً وأنتم تعلمون شدة اهتمام الجمهور بقضايا عهد صدقي باشا السياسية.

(وفي انتظار تكرمكم بإبداء وجهة نظركم في رأيي هذا إما بكتاب خاص أو بمقال في الرسالة، أكرر تهنئتي وأقدم لكم الشكر والتقدير. . .)

إدوارد حنا سعد

إيرادات بلدية الإسكندرية

ورأيي أن الطموح تفسير وليس بتفسير.

فالناس يشتهرون بألوف الأشياء ويظهرون بين أقوامهم بكثير من المزايا التي تكفل لاصطحابها الوجاهة وارتفاع الصوت والصيت: بالمال والمنصب والهيبة الدينية، أو الدنيوية، وبالعلم على اختلاف أبوابه وتعدد مناحيه، وبالنبوغ في الألعاب والفنون التي يدركها الجمهور بداهة أو يدركها محاكاة لمن هم أرفع منه في المنزلة والمعرفة، وكلهم طامح وكلهم محقق لما تمناه من الطموح فليس بتفسير أن يقال إن هذا الشاعر العظيم بلغ مكانه من الشهرة الشعرية لأنه طامح، وأن هذا المهندس العظيم بلغ مكانة

من الشهرة العلمية لأنه طامح، وأن هذا الغني العظيم بلغ مكانه من الثراء واليسار لأنه طامح، وأن كل عظيم طمح فاشتهر لأنه تعلق بالطموح كلا. ليس هذا بتفسير فيما أرى وليس هذا بالحقيقة فيما أعلم من شأن نفسي، وفيما أعلم من شأن البواعث التي حفزتني إلى معالجة (الدروشة) والكرامات الدينية، وحفزتني إلى قيادة الجيوش والغلبة في القتال، وحفزتني حيث استقر بي المطاف إلى المضي في طريق الأدب والكتابة دون كل طريق فلو كانت المسألة طموحاً وتطلعاً إلى الحفاوة لكان الأولى بي أن أطمح إلى جمع المال والتوسع في التجارة لأنها قبلة الأنظار في بلد له في التجارة تاريخ عريق حتى قيل إن اسم الإقليم مستمد من اسم السوق بل لو كانت المسألة طموحاً إلى الحفاوة التي يلقاها رجال الدين لكان الأولى بي أن أطمح إلى مكانة القضاة الذين يخرجون بين الحراس والحجاب ويتقدمون على رجال الحكم ورجال الجيش حينما اجتمعوا معاً في مكان حافل أو مأدبة حكومية، أو لكان الأولى بي أن أطمح إلى منزلة كمنزلة أستاذنا الفقيه الأديب الأستاذ أحمد الجداوي - رحمه الله - وكانت له حلقة دينية أدبية يتردد عليها أعاظم القوم ويجلسون بين يديه جلسة الخشوع والتوقير، وكانت له إلى جانب ذلك مساجلات أدبية يحج إليها المعلمون والمتعلمون، ويتندر بفكاهاتها وطرائفها من يدرسون ومن لا يدرسون

أما حياة (الأسرار) الدينية فلم تكن محل ظهور ولا وجاهة بين الناس، ولم يكن أحد ممن يقتدي بهم في هذا المجال على مظهر يشوق الطفل الناشئ أن يحكيه أو يعيش على غراره: مظهر مسكنة وحرمان وشظف وانقطاع

وأدل من هذا على خطأ التفسير بالطموح في هذا الصدد أن الظهور وطلب الكرامات والأسرار نقيضان كما تنبئنا أول صفحة من أول كتاب في مناقب الصالحين فمن طلب الظهور فلا سبيل له إلى كرامة ولا نفاذ له إلى سر مكنون من أسرار القداسة والولاية إنما تناول الكرامات والأسرار بالإعراض عن المظاهر والزهد في الحفاوة، وأن ننذر نفوسنا للفاقة والشظف والحرمان، ونجنبها غواية الزهو والترف والإعلان، وهذه هي

الأمنية التي تمنيتها لأنني تمنيت البحث عن الحقيقة والهيمنة من طريق معرفة الحقائق

على ما حولي من قوانين الكون وعناصر الطبيعة فالطموح كما قدمنا ليس بتفسير لطلب العظمة كائناً ما كان مجالها والغرض منها. فبعد الطموح يبقى لنا سؤال آخر عن علة طلب العظمة من هذا الطريق وعن التوفيق بين نوع العظمة المطلوبة ونوع المزاج النفسي الذي يطلبها ويؤثرها على غيرها

والطموح بعد ذلك ليس بالتفسير الصحيح في الحالة الخاصة التي ذكرتها عن أمنيتي؛ لأنني لم أطلب الظهور بل ضحيت به في سبيل الحقيقة التي أصل منها إلى هيمنة لا ظهور فيها؛ ولا يزال الظهور الشائع مفسدة لها وداعية إلى حبوطها وما لنا ولهذا والأديب صاحب الخطاب يذكر حالة تنفي تعليل كل شيء بالطموح فيما ذهبنا إليه؟

قال في خطابه: (تمنيت وأنا في المدرسة الابتدائية أن أكون لاعب كرة يحيط بي من تصفيق الطلبة وإعجابهم ما يحيط بمشاهير اللاعبين...)

فليعلم الأديب صاحب الخطاب أن التصفيق لم يحط بلاعب كرة كما كان يحيط بلاعبيها الأسوانيين في ذلك الحين. فقد كانت العناية بالرياضة البدنية يومئذ في أبانها، وكان للجيش الإنجليزي بأسوان فرق مدربة تسترعي أنظار المدنية بأسرها ويتمنى كل طالب أن تتغلب فرقته المدرسية عليها، وكانت فرقة أسوان تسافر إلى إدفو وقنا وسوهاج وأسيوط لتلاعب هناك فرقة بعد فرقة وتعود من تلك البلاد غالبة أو مغلوبة يتطلع الزملاء إلى أخبارها كما يتطلع قراء الصحف إلى أنباء المعارك الحاسمة، ومع هذا كله فشلت مساعي المدرسين في إغرائي بالانتظام في فرقة الكرة أو الفرق الرياضية على اختلافها لنفوري منها، وظللت أتجنبها وأفضل الحبس على حضور حصة الرياضة البدنية في أوقاتها المفروضة علينا، ولم يستهوني الطموح ولا الشهرة ولا التصفيق إلى هذا الجانب المغري لكل طالب، ولم أكن أفهم دهشة زملائي لرفضي دخول الفرقة وهم يتحرقون شوقاً إلى دخولها ويتمنون لو وهبوا تلك الصفات الجسدية التي جعلت المدرسين حريصين على ترشيحي لفرقة الكرة وكل فرقة رياضية

فليست المسألة يا صاحبي مسألة طموح وظهور، ولكنها مسألة شوق باطني وجد مصرفه في هذه الناحية أو تلك حتى استقر من الناحية الأدبية إلى قرار ومن الواجب أن نربط بين النزعة الدينية والقيادة العسكرية والملكة الأدبية إذا أردنا أن ننفذ إلى خاصة من خواص النفس البشرية التي تؤلف بين النقائض حتى تنتظم في نسق واحد، وهي كما تبدو على وجه الأمور غير قابلة للتناسق والائتلاف

وربط هذه الشعب المتفرقات واجب هاهنا لأن العلاقة بينها صحيحة متغلغلة ملموسة؛ فلابد من سبب اتصال بينها، ولابد من النفاذ إليه، وليس النفاذ إليه بعسير فالنزعة الدينية - نزعة الأسرار والهيمنة على العناصر الطبيعية - تلاقي البحث الأدبي من طرفين: أحدهما الاستطلاع والاستكناه وهو أصيل في طلب الأسرار الدينية وأصيل في طلب الأسرار الفكرية على الإجمال أما الطرف الآخر فهو طرف لإثبات النفس، وهو في جانب التدين سيطرة على أسرار الكون، وفي جانب الأدب تعبير عن النفس وتوجيه للأفكار وامتلاك لناصية الحقائق، وكلا الطرفين قريب من قريب

ولا صعوبة في التوفيق بين التدين والقيادة العسكرية، وإن ظهر لأول وهلة كالنقيضين المتدابرين

إن النضال لعميق في روح الدين لم تخل منه الأديان الأولى ولا أديان الكتب المنزلة التي يدين بها معظم الأمم اليوم

فإله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة، ما برحا متصارعين عند الجاهليين من أقدمين ومحدثين وكل دين من أديان الكتب المنزلة يؤمن بالصراع بين الملائكة والشياطين، وبالحرب الدائمة بين جنود الله وجنود إبليس وكل ساعة من ساعات الضمير فهي مصارعة ومغالبة قلما تنتهي بالنصر الحاسم لجانب من الجانبين. وما هي حياة الضمائر إن لم تكن حياة العراك والمقاومة والانتصار؟ وما هب أسرار الكون إن لم تكن أسرار التجاذب والتدافع بين دواعيه ونواهيه؟

فالنضال أصيل في روح الدين والتقاء التدين وطلب الغلبة وطلب التعبير فترة واحدة أو فترات متعددات في النفس (المتطورة) ليس بالأمر الغريب ولا باللغز العسير التعليل وكم أديب مناضل وجندي يحمل السلاح وهو غير مطبوع على النضال!

وقد تركت أمل القيادة العسكرية منذ الصبا الباكر ولكني لم أتركه إلا في الظاهر الذي لا يتعدى الملابس والأزياء

فما هو إلا أن أسلمتني المناوشات الصبيانية إلى نظم الشعر للتحدي والمتاجرة حتى انتقلت إلى عالم التعبير والكتابة وانتقلت إلى هذا العالم الأدبي لأناضل وأقضي العمر كله في نضال باطن بيني وبين نفسي ونضال ظاهر بيني وبين الآخرين فما الغرابة في التوفيق بين هذه الأماني؟ وما الصعوبة في هذا التوفيق؟ وأيهما أسهل وأدني إلى القبول: تعليل كل أمنية بالطموح وليس هو بالتعليل الشافي ولا بالتعليل الصحيح، أو النظر إلى ما وراء الطموح من بواعث متقاربات تتلاقى عندها الظواهر المتباعدات؟

الراحة الكبرى تنال على جسر من التعب كما قال أبو تمام، والسهولة الكبرى في تعليل الحقائق تنال بعد خطوات من السهولة العارضة على وجه الأمور، ولكنها بعد اجتياز هذه الخطوات أسهل من كل سهل قريب، لأن هذا السهل القريب لا يؤدي إلى شيء ولا يستريح الواقف لديه

طائر الليل. طائر العزلة. طائر الصحراء. طائر الصيحة التي فيها من البشرى وفيها من التبريح وفيها من التسبيح.

تعني (الكروان)؟

نعم، إياه أعني، وهو صامت الآن!

صامت منذ أشهر لا تسمع له من وراء الأفق تلك الصيحة التي كأنها نصل من اللحن يشق ستراً من السكون، أو كأنها عقيقة من البرق تنفتح في سدفة من الظلام، أو كأنها نفثة من الجوي تندفع في هدأة من الصبر الطويل.

وكأنما سكون ليل الشتاء في هذه الآونة الموحشة إصغاءٌ مرهف وحنين مكتوم إلى ذلك الصوت المغيّب الذي سيطول غيابه... وسيعود!

سيعود، وسيدير لنا الربيع قالبه المحفوظ من الصرخات والألحان، وسنسمعها ولا نمل سماعها ما كتب لنا أن نسمعها. فهي محفوظات يضن بها الربيع ألا تتكرر، ونضن بها نحن ألا نتذكر، ونضن بها نحن - إن تذكرناها - ألا نعيش معها كما عشنا من قبل سنين وسنين، كل صيحة منوط بها نبأ قديم: نبأ قُل إنه عذب رحيم، وقل إنه موجع أليم. فما بين الرحمة والألم من حدود في هذه المحفوظات، وما لهذه الحدود إن طالت من مساك.

سنوات، يا لها من سنوات!

قل عشر، وقل إن شئت عشرين!... بل زدها إن شئت قليلاً، فما هي بأقل من بضع وعشرين عمرُ أكبر (كروان) فانٍ ولكنها أصغر من لمحة في عمر (الكروان) الخالد: الكروان الذي سمعه (آدم) أول الدنيا، والكروان الذي سيسمعه أبناء (آدم) آخر الزمان، والكروان الذي سمعته أنا والشعر أسود كجنح الليل الذي يصدح فيه، وسمعته والشعر يشتعل، وسأسمعه وكل مشتعل في هذه البنية رماد.

سمعته ولبيت كل دعوة من دعواته، وخرجت له في الليالي السود. . . لا بل في الليالي البيض، إلى الصحراء. . . لا بل إلى الجنة، إلى الصباح. . لا بل إلى الأبد الذي ليس له حدود.

وتبعته إلى أطراف الرمال، وهذا البيت الذي أسكنه وقد تغير خمسة من ملاكه وأنا الساكن الطارئ عليه لا أتغير - لم تكن من ورائه يوم سكنته غير مملكة واحدة هي مملكة (الكروان)، ولم يكن سامر يستمع فيه إلى غير صوت واحد هو صوت (الكروان).

نعم، هو صوت (الكروان). . .

وصوت (الكروان) هو جملة واحدة تنطوي في نغماتها كل كلمة من معناها، وما معناها؟ معنى الحياة. معنى الربيع. معنى الحياة والربيع ممزوجين بمثل ما امتزجا به في نفسي من طلاقة إن بلغت مبلغها فحركة الهواء عندها ركود، ومن وحشة إن بلغت مبلغها فظلمة الجحيم عندها ضياء.

وكم دعانا ذلك الصوت؟ وكم يدعونا في أوانه؟

وكم لبيناه؟ وكم نلبيه؟

وكم رصدت لنا الأفعى في طريقه؟ وكم ترصد لنا في تلك الطريق؟

وكم قتلتنا وكم قتلناها؟

وهو مع ذلك دعاء

وهو مع ذلك ملبَّي كأحسن ما يلبي الدعاء

لك الله يا صديقي طه من ملهم فيما اخترت لكتابك الشائق من اسم (الدعاء) فما يسمع (الكروان) حق سماعه من لم يستمع إليه كأنه (دعاء) يتابع مطلوبه ويتعقبه ويفتش عنه ويأخذه آخر الأمر أخذه الهارب الذي يريد أن يهرب، ولا يريد

يريد أن يهرب في جنح الظلام حتى إذا انكشف مكانه وقف لا يريم ولا يريد شيئاً. . أو كأنه يريد الاستسلام ويأبى الهرب أشد الإباء.

وهكذا كانت فتاة روايتك الساحرة. هكذا كانت تهرب ولا تهرب، ويعود إليها الكروان وكأنها هي التي تعود إليه.

وإنها لتنسى، وإنها لتلهو، وإنها لتعرض عما كان وتقبل على ما هي فيه، وإنها لفي شأن جديد غير شأنها الأول البغيض، وإذا بالطالب الصياح مقبلاً إليها من بعيد: مقبلاً في عبث ومثابرة وإلحاح، مقبلاً في دلال كأنه الشماتة، وفي شماتة كأنها الدلال، مقبلاً مقبلاً حتى ليقف على رأسها بل في أعماق رأسها، وحتى لتجمد له في مكانها كأنها الصم الذي لا حياة به، وفيها مع ذلك كل ما مضى لها من حياة.

إلى أين يا مسكينة؟

أنا (دعاء الكروان)!

نعم، ولا فرار من هذا (الدعاء)، لأن الذي يفر منه ينقلب إليه.

تقول رواية صديقنا طه في بعض صفحاتها: (. . . وها نحن أولاء ننزل مضطربات ونسعى متعثرات، وهذه أمنا تريد أن تسأل فيم إناخة الجملين، وفيم النزول في غير منزل، وهأنذا هذه أريد أن أقول شيئاً ولكني لا أكاد أدير لساني في فمي، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول. إنما هي صيحة منكرة مروعة تنبعث في الجو، وجسم ثقيل متهالك يسقط على الأرض، وإذا أختي قد صرعت، وإذا خالنا هو الذي صرعها لأنه أغمد خنجره في صدرها. ونحن عاكفتان على هذا الجسم الصريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم في قوة كما يتفجر الماء من الينبوع. نحن عاكفتان في ذهول وغفلة وبله، لم نفهم شيئاً ولم نقدر شيئاً ولم ننتظر شيئاً، وإنما أخذنا على غرة أخذاً، واختطفت هنادي من بيننا اختطافاً. وجسمها يضطرب ويتخبط، ودمها يتفجر، ولسانها يضطرب ببعض الحديث في فمها ثم يهدأ الجسم المضطرب ويسكن اللسان المتحرك ويخفف تفجر الدم، ويمتلئ الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت، ونحن فيما نحن فيه من ذهول وبله وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذه الذهول كما أخذنا.

(وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز يبلغني من بعيد، وهذا صوتك يدنو إلي قليلاً قليلاً، وهذا غناؤك ينتشر في الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الهول دون أن نراه، وها أنت ذا تبعث صيحاتك يتلو بعضها بعضاً كأنما هي سهام من نور قد تلاحقت مسرعة في هذه الظلمة فطردت من نفسي ذهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله، وجلت لنا الجريمة منكرة بشعة، والمجرم آثماً بغيضاً، والضحية صريعة مضرجة بالدماء. . . إن صوتك لينبعث في الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث، وإن صوتي لينبعث في الفضاء داعياً وليس من يجيب. . .)

وتجري الرواية في مجراها بين جوانح نفس واحدة هي أزحم بالأشباح والأصداء من كل فضاء: نفس الفتاة آمنة أخت الصريعة هنادي، وهي كلما أوغلت في باطنها حتى انقطع ما بينها وبين هذا الفضاء المحيط بنا لحق بها الدعاء وجذبها إلى حيث تستمع النداء. فتغرق آخر الأمر في صمت سعيد كما كانت تغرق في الصمت الشقي حيناً بعد حين: (ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغني فيتنزعني انتزاعاً من هذا الصمت العميق، فأثب وجلة مذعورة ويثب هو وجلاً مذعوراً، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الهدوء. فأما أنا فتنحدر على خدي دمعتان حارتان، وأما هو فيقول وقد اعتمد بيديه على المائدة: دعاء لكروان! أترينه كان يرجع صوته هذا الترجيع حين صرعت هنادي في ذلك الفضاء العريض)

وهكذا يستمع إليَّ الكروان من تعود أن يستمع إليه؛ سابح على حومة الليل يمد عرقي الظلام من صوته السريع بحبل خاطف يجذبهم إلى الفضاء، كلما انقطعوا عن الفضاء.

يجذبهم من عالم الذكرى إلى عالم الشهادة، ويجذبهم من عالم الخوف إلى عالم الطمأنينة، ويجذبهم من عالم الوحشة إلى عالم الإيناس، ثم يبدو له أن يجذبهم من الإيناس إلى الوحشة ومن الطمأنينة إلى الخوف ومن الشهادة إلى الذكرى، وينجذبون.

تسمعه السنةّ ومعك سامع، وسمعته السنة الدابرة وحدك، وقد تسمعه من قابلٍ وليست معك تانك الأذنان الأوليان، بل معك غيرهما أذنان أخريان! وربما سمعه معك

من بينهم وبين السمع حجاب، وربما سمعه معك من أغفلوك وأغفلوه. ويأتي الدعاء فيدعونا ولعلنا نحن الذين دعونه، ولكنه يأتي متوقعاً وغير متوقع، ومحبوباً وغير محبوب، وقائماً على موعده كأنه مرتبط بنظام من أفلاك الليل الذي يحبه ويأوي إليه، ويتعلم على يدي أنواره وظلماته، ويعلِّم من يتعلمون.

يا (دعاء الكروان)!

موعدنا معك الفضاء الرحيب كلما أوغلت بنا الذكرى في أغوار ينقطع ما بينها وبين الفضاء الرحيب.

ومن دعائك أنك جذبتنا خمساً وعشرين سنة أو جذبت إلينا تلك السنين الخمس والعشرين، وإنك أوحيت إلى طه ما يوحي، فإذا به يفتح لنا فضاء الليل وما فيه من أصداء وأشباح، ويفتح لنا فضاء النفس الإنسانية وما فيها من أصداء وأشباح، وإذا به يلقي إلينا بعاصم في الفضاءين من ذلك الحبل السريع الخاطف ففيه لياذ بالنجاة.

قال صديقنا الدكتور طه حسين وهو يهدي إلينا (دعاء الكروان): (أنت أقمت (للكروان) ديواناً فخماً في الشعر العربي الحديث، فهل تأذن في أن أتخذ له عشاً متواضعاً في النثر العربي الحديث، وأن أهدي إليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص).

وإني لأحسب وأنا أتقبل الهدية شاكراً أن (الكروان) سيأوي إلى العش الذي سماه صديقنا متواضعاً لأنه يرتضي العش وإن أغريناه بالدواوين. وحسبنا منه أنه يدعونا وندعوه، وأننا وإياه نلبي الدعاء.

نتكلم بلغة الاقتصاد فنقول: إن التنجيم بضاعة يكثر طلبها في أيام الحروب فيكثر عرضها لأن الناس يتوقون إلى العلم بالمصير، فيظهر لهم من ينبئهم صادقاً أو كاذباً بما يراه من مصير ولأن الناس جميعاً يخشون شيئاً ويرجون شيئاً في أيام الحروب، فيحبون من يجلب إليهم الطمأنينة بما يزيل من خشية أو يعزز من رجاء، ويتسع من ثمة مجال التنجيم والاستطلاع ولأن الناس، ولاسيما الجند، يحتاجون إلى الثقة بالغلب، أو ما يسمونه في الاصطلاح الحديث بتقوية الروح المعنوية، فيأنسون إلى ما يوافقهم من كلام المنجمين ولأن الحوادث الجسام توحي إلى كل نفس أن الأمر فوق طاقة الإنسان، وأن أعنة الأقدار في يد غير يده وعلم غير علمه، فيتجه الذهن إلى عالم الغيب وإلى الذين يدعون له العلم به والإنباء عنه ولأن النزاع بين طرفين من شأنه في كل حين أن يشحذ غريزة الرهان والسباق حتى في الألعاب التي ليس لها عند الناس خطر الحروب، ومتى شحذت غريزة الرهان فقد شحذت معها غريزة التطلع إلى نجاح هذا وفشل ذاك، أو شحذت معها غريزة الاستطلاع والتخمين، ومنها التنجيم.

هذه بعض الأسباب التي تروج صناعة التنجيم في أيام الحرب كالحرب الحاضرة، ولا ندري أهو سوء حظ أم حسن حظ ذلك الذي أغرى الصحف الكبرى في حواضر العالم بأن تتحرى كل ما يروج وتهيئ للقراء كل ما يتوقون إليه من أنباء اليوم والغد، وما يحصل الآن وما سيحصل بعد حين

ولكن الصحف على أية حال تصنع ذلك ولا تبالي أكان حسناً أم كان سيئاً ما تصنع. ففي كثير من صحف أوربا الكبرى أبواب يكتبها مخبرون (مستقبليون) غير الأبواب التي يكتبها مخبرو الوقائع الحاضرة والأنباء الجارية؛ وهؤلاء المخبرون (المستقبليون) هم أناس يحترفون بالتنجيم ويتخذونه جداً يدافعون عنه كما يدافع العالم عن علمه والتاجر عن تجارته، وينكرون أنه لعب مصادفات أو أنه تزجية فراغ أشد إنكار

جاءتنا صحف إنجلترا في البريد الأخير وفيها أحاديث شتى عن مأدبة أقيمت للمنجمين يحاضرون فيها عن صناعتهم ويدفعون فيها ما يتجه إليهم من نقد وريبة، ويذكرون لقرائهم والمستمعين إليهم شيئاً عن أسرار هذه الصناعة وأسسها، فلم يتفقوا لها على أسس ولا أسرار

فمنهم من أثبت للنجوم سلطاناً على حوادث هذه الدنيا وأخصها حوادث الحروب والنكبات، ومنهم من نفى العلاقة بين النجوم وبين الحوادث الأرضية في (علم) التنجيم الحديث

وقال بعضهم أن التنجيم يصيب ويخطئ كما يقع الصواب والخطأ في أصح العلوم، إلا أن الخطأ قليل في حساب المنجم الماهر كثير في حساب المنجم القاصر، وقد يقع الخطأ في خبرين من عشرة أخبار أو في خبرين من أثنى عشر خبراً ولا يقدح ذلك في صحة الحساب ولا في صحة (العلم) أو صحة الأساس الذي يقع عليه

وقد أطلعنا نحن على طائفة كبيرة من نبوءات الحرب الحاضرة فلم نعثر بينها على نبوءة واحدة تقطع بصحة (علم) التنجيم وتحوجنا إلى قبول دعوى المنجمين، وكلها داخل في مستطاع من ينجم ومن لا ينجم ومن يعرف أسرار العلم المزعومة ومن يجهل تلك الأسرار

فالإنباء بما سيأتي قد يتاح لأناس لهم اتصال بمصادر الأخبار أو لهم نصيب من بعد النظر، وهم في هذه الحالة يبلغون من الصدق ما لم يبلغه منجم ولا مصطنع نبوءات فمن أمثلة الاتصال بمصادر الأخبار أن الصحفي الأمريكي ريتشارد بوير كتب في الثالث من شهر نوفمبر سنة 1940 يقول: (إنهم ينظرون في جميع أنحاء الدنيا إلى روسيا وألمانيا نظرتهم إلى حليفتين. ومع هذا يبدو من الأمور المفروغ منها في الدوائر النازية أن ألمانيا ستغزو روسيا في السنة المقبلة. ويرى رجال الحكومة النازية بشيء من التقية وإن لم يبلغ مبلغ الأسرار المكتومة أن اتحاد السوفييت إما أن يسلم في إقليم أوكرانيا وإقليم النفط في باكو وولايات البحر البلطي، أو تستولي عليها ألمانيا عنوة حيثما تسنى لها أن تفرغ من إنجلترا. وقد يزعم بعض الموظفين في الحزب النازي أن

الحرب بين الولايات المتحدة وألمانيا غير ضرورية على خلاف ما تبينته بين كبار الرؤساء من جزم بضرورة هذه الحرب وأنها واقعة لا محالة...)

فهذه أنباء لو اتفقت لمنجم لباهى بها أقرانه واتخذها حجة لصناعته في أساسها، ولمهارته هو في كشف خباياها؛ ولكن الرجل الذي أذاعها قبل وقوعها صحفي لا يدعي لنفسه صفة غير صفة المخبرين الصحفيين ولا يسلك نفسه في عداد المنجمين

وإلى جانب هذا يكتب المنجم المختص بباب النبوءات في صحيفة أنباء الدنيا (أن أموراً على أعظم خطر سيتفق عليها رأسان من رؤوس الدول الكبار - ولعلهم ثلاثة - فيرتبط بها خلاص بني الإنسان)

ثم يزعم له مصدقوه أنه أحسن التنجيم لأنه كتب نبوءته في العاشر من شهر أغسطس ووقعت مقابلة الرئيسين روزفلت وشرشل بعد ذلك بأيام فتم فيها الميثاق الذي أشار إليه وربط به خلاص بني الإنسان!

إلا أن إشاعات المقابلة كانت تحوم في الجو كما يقولون قبل نشر النبوءة بثلاثة أيام، فسرى بين الصحفيين نبأ فحواه أن روزفلت وشرشل قد ذهبا إلى الاسكا لمقابلة ستالين هناك، وكذبت هذه الإشاعة في حينها وهي بلا شك مصدر النبوءة التي أسرع بنشرها منجم الصحيفة ليواجه بها القراء وهم أكبر عدداً من زمرة الصحفيين القلائل الذين تنسموا النبأ على تلك الصورة قبل وقوع المقابلة، ولهذا تردد المنجم في عدد رءوس الدول فجعله بين الاثنين والثلاثة، واستفاد بين ألوف القراء سمعة التنجيم الصادق لأن هؤلاء القراء يجهلون الإشاعات الخفية التي ينفرد بعلمها بعض المخبرين في دوائر الصحافة، فيسهل إقناعهم بأنها سر من أسرار النجوم

وهكذا يقال في كل نبوءة وقفنا عليها من نبوءات الحرب الحاضرة، فهي إما اتصال بمراجع الأخبار العليا، أو صدق نظر في قياس المجهول على المعلوم إلا أننا لا نريد أن ننكر الشعور بالأمور المقبلة من طريق غير طريق المراجع العليا، أو بعد النظر الذي يدخل في عداد الأقيسة العقلية

فقد يرى الإنسان ما سيأتي على نحو يشبه رؤية العين لأشباح الظلام، ولكنها رؤية لا تقبل التمحيص والمراجعة ولا تدخل في صناعة التنجيم، وهي مع ذلك مما ينقض التنجيم وليست مما يؤيده ويزكيه، لأنها ترد الشعور بالأمور المقبلة إلى الحس الباطن أو إلى الواعية ولا ترده إلى حساب النجوم أو إلى صناعة قابلة للتعلم والتعليم. وقد يقوى هذا الشعور حتى يتضح للعقل فيفسره كما يفسر الأقيسة ومدركات الأفكار

أما الحقيقة التي لا شك فيها فهي أن البنية الإنسانية تحس ما يهددها من الأخطار الدخيلة قبل وقوعها في بعض الأحايين. كما يقول أبن الرومي:

وللنفس حالات تظل كأنها ... بما سوف تلقى من أذاها تهدد

فتحس الأمراض المقبلة والعلل المنذرة، ولا تدري لإحساسها سبباً في كثير من الأحوال، وإن كان هذا الإحساس مقدمة للعلة وعرضاً سابقاً من أعراضها بغير نزاع وقد يهزأ بعضهم بتطبيق أبن الرومي لرأيه حين يقول:

لمـــا تـــؤذن الـــدنيا بـــه مـــن صـــروفها

يكـــون بكـــاء الطفـــل ســـاعة يولـــد

وإلا فمـــا يبكيـــه منهـــا وإنهـــا

لأرحـــب ممـــا كـــان فيـــه وأرغـــد

ولكنه على ما نعتقد هزؤ ظالم أو مبالغ فيه، لأن الأسباب الطبيعية التي تدعو إلى بكاء الطفل عند ولادته هي مقياس لسنة الدنيا في اقتران كل وظيفة بجهد ناصب، وفي تقاضيها ثمناً لكل فتح من فتوح الحياة. فهي شيء ملازم للبنية الحية، يدل عليه أن أول تنفس للهواء هو أيضاً لون من ألوان البكاء

غير أن إحساس الإنسان بما سيصيب بنيته شيء وإحساسه بما سيصيب الدنيا شيء آخر، ولا سيما ذلك الإحساس الذي يدعيه المنجمون

والمسألة بعد لا تخلو من عزائها وسلواها، فإذا أمتعض أناس منا لما يرونه من تهافت جهلائنا على العرافين والمشعوذين فهذه أوربا تهون عليهم مضضهم بإقبال أهلها

(المتعلمين) على لغو العرافة والشعوذة وإقبال صحفها الكبرى على باب من الأبواب مقصور عندنا على منشورات يزهد فيها العقلاء!

واحدة. اثنتان. ثلاث... ثمان...

ومضى صاحبي يعد الفتيات اللائي يعبرن بنا في الظلام واحدة بعد واحدة حتى أربى العد على العشرين، وكلهن يعبرن الطريق منفردات كأنهن رجال، وقل في الطريق من يلتفت إليهن، أو يريهن أنهن أخطأن بالخروج في هذا الليل على انفراد، أو يعجب كما عجب القائل:

ثـــــم قالـــــــت وأحسّـــــــتْ عَجبـــــي
مـــــن سُـــــراها حيــــث لا تســــري الأســــود
لا تَعجّــــــب يــــــا حبيبـــــي فالســــرى
عــــــادة الأقمــــــار والنــــــاس هجــــود

قال صاحبي: لو خرج هؤلاء في ليلة كليلتنا هذه في القرن الماضي كيف كن يخرجن؟

كن يخرجن والمصباح أمامهن في يد الخصي أو الخادم إن كن من ربات الخدم والخصيان، أو كن يتسللن في استخفاء كتسلل اللصوص إن لم يكنّ من ذوات اليسار.

قلت: فإن كانت فتيات اليوم لا يحتمين بحارس ولا مصباح فما أظن العلامة كلها علامة خير! من يدريك يا صاحبي لم لا يلتفت إليهن أحد من أولئك المدلجين في الظلام ولم لا يلتفتن إلى أحد؟ لعل كل عابر من أولئك المدلجين ذاهب إلى موعد! ولعل كل عابرة من أولئك المدلجات ذاهبة إلى موعد مثله! ومن لم يكن من الرجال على موعد فلعل الذي يثنيه عن المناوشة والمغازلة علمه أن الفتاة العصرية تجرؤ الابتداء أو على الإيماء والإيحاء ولا تنتظر حتى يجيء الابتداء من الرجال. فإذا رآها معرضة أو جادة في الطريق علم أن ابتداءه بالمناوشة والمغازلة لا يفيد، وأن الأكرم له أن يمضي في سبيله حتى تبدو له إشارة من إشارات التشجيع.

ليس كله يا صاحبي بخير!

ليس كل هذا من الصيانة بل فيه كثير من الابتذال والهوان، وليست كل شجاعة المرأة خيرا بل حياؤها وجبنها أكرم لها من هذه الشجاعة في بعض الآراء.

وانتقل الحديث من عابرات الظلام إلى الظلام نفسه فقال الصديق: والله لقد ألفناه حتى استحببناه، ووالله إن الإنسان ليخرج من البيت إلى الطريق كأنه على العكس خارج من الطريق إلى البيت، لأن في الظلام معنى الاستكنان والإيواء، وفي النور معنى العموم والشيوع. فإذا تجاوز أحدنا الباب فكأنه خارج من عالم حافل بالناس والمناظر إلى عالم لا مناظر ولا ناس فيه.

قلت: ما أدري إن عشنا كيف تفاجئنا القاهرة أول ما تضاء كما تضاء في أيام السلم قبل سنوات؟ أخالنا سنحسبها ليلة عيد أو مهرجان؛ وأخالهم لا يصنعون في احتفالهم بالسلم أكثر من إضاءتهم المدن كما كانت تضاء.

قال صاحبي وكأنه خاف على ظلامه الذي ألفه واستراح إليه: أو عائدون نحن إلى تلك الأضواء المسرفة لا محالة؟ لم لا نستفيد من دروس الحرب ونقنع بهذا النصيب من النور الذي يهدينا إلى حيث نشاء؟ فإن لم يقنعنا هذا النصيب فلم لا نزيده بمقدار ما نتقي بعض الأضرار التي نحذرها الآن؟. . . لم لا نقنع بربع ذلك الضوء الذي كنا نسفكه على الأرض أو على الوجوه التي هي شر من الأرض قبل سنوات؟

قلت أداعبه: نعم. أو على الوجوه التي تعدها الآن ولا تراها!! ولو رايتها لما كنت ارتقيت بالتعداد إلى العشرين وما فوق العشرين!

وكان صاحبي جائعا فوقف عند دكان من دكاكين الشطائر وقال: بإذنك يا عضو المجمع اللغوي. . . ألا تأذن لنا في (شاطر ومشطور والطازج بينهما)؟

يريد صاحبي ما شاع على ألسنة العامة من تسمية المجمع للشطيرة أو (السندويتش) بذلك الاسم المطول الذي يدل على وليمة كاملة، لا على لقمة تتناولها الإصبعان.

قلت أداعبه أيضاً أو أنتقم منه: بل في بلغة إن أردت!!

قال: أو هذه تسمية المجمع؟ أو هو تصحيح وترجيح؟

قلت: إنك لأحرى أن تصدق هذه التسمية الصحيحة من تصديقك تلك التسمية التي لا تساغ ولو على سبيل المزاح. والبلغة أخف من الطازج بين الشاطر والمشطور.

ثم ذكر صاحبي أن اليوم من أيام النبات وليس من أيام اللحوم. فعاد إلي يرد انتقامي وسألني:

أو يعجب هذا صاحبك المعري؟... ما زلتم تهتفون باسم هذا الرجل حتى أوشكنا أن نقتصر على العدس والتين مثله. فلا تزيدوا بربكم من ذكره لكيلا نلتزم البيوت ولا نرى في الدنيا غير الظلام...!

قلت: وما بالك لا تحسبه درسا من دروس الحرب الباقية؟ وما بالك لا تحمد لنا أن ذكرنا المعري حتى أوشكنا أن نرضيه وأن نقتدي به في طعامه؟

وكانت نوبة الاعتبار والاتعاظ مالكة زمام الصديق في تلك الليلة، فأخذ في تفصيل هذا الدرس الجديد، وطفق يقول ويكرر: ولم لا؟ ولم لا؟ إننا تعودنا ونعم العادة ما تعودنا. .. فلنمض في ذلك طائعين ننسى غدا أننا مضينا فيه أيام الحرب ونحن كارهون.

وراح يقول: أو ليس هذا ضرباً من الصيام المحمود؟ أليس فيه ما في الصيام من شعور بالمساواة بين الأغنياء والفقراء؟ أليس فيه ما في الصيام من ضبط للنفس وكبح للشهوات؟ أليس فيه قصد ومنفعة؟ أليس فيه صحة وحمية؟ أليس فيه تآزر بين البيت والأمة فلا يأكل البيت إلا بمقدار ما تسمح الأمة؟

قلت: بلى، فيه هذا وفوق هذا

فظن أنني أمزح سأهزأ به فتأهب قائلا: وما فوق هذا؟

قلت: على ربعك! لست أمزح ولا أنوي أن أستهزئ بنوبة عظاتك في هذه النوبة... إن الأيام التي خلت من اللحوم لفيها ما ذكرت وزيادة: فيها الحمية والقصد وضبط النفس والمساواة بين الغني والفقير، وفيها أنها ستبصرنا بمنافع السمك وطالما عجبت لإهمال المصريين إياه.

فمصر يحف بها بحران عظيمان، وفيها بحيرات كبار، ويتخللها النيل وليس هو أغنى هذه الموارد بالسمك النافع، ولكنه مورد لا نستفيد منه كل ما يستفاد

وقد كانوا في مصر القديمة يستفيدون منه ويأكلون سمكه أيام الفيضان، ويملحونه ليحفظوه إلى الفيضان المقبل، لأنهم كانوا يجهلون من أساليب الصيد في البحار وتوليد الأسماك فيها ما نعلمه الآن أما نحن فعندنا الزوارق البخارية والوسائل العصرية والمعرفة بعلوم الأحياء. فلماذا لا نستكثر من أكل السمك وهو غذاء صالح للأجسام والعقول؟

فصاح مستفهما: وللعقول؟

قلت نعم. . . وإن أناسا جادين في القول والبحث ليزعمون أن الفلسفة اليونانية مدينة للسمك بالشيء الكثير، وإن حكماء الإغريق نبغوا على الشواطئ وبين أبناء الجزر، لأنهم كانوا يستكثرون من أكل السمك وفيه (الفسفور) كما تعلم، وفي الفسفور غذاء للمخ والأعصاب، وغذاء للعقل والإدراك من هذا الطريق.

ومن فكاهات العصر الحديث ما يؤيد أولئك الباحثين الجادين فيما زعموه. . . أو لم تسمع بحوار الإنجليزي والاسكتلندي على السمك ومناصب الدولة؟

قال: لا

قلت: فاعلم أن إنجليزياً سأل رجلاً من أذكياء اسكتلندة متعجباً: ما بالكم يا هؤلاء وليست في بلادكم العاصمة ولا مراكز الدولة، تشغلون أكبر مناصبها، وتستأثرون فيها أحيانا بالوزارة والقيادة والقضاء؟

فارتد إليه الاسكتلندي مجيباً: أو لا تدري؟ إنه الدماغ، وإنه السمك. . .!

قال الإنجليزي: وما العلاقة بين الدماغ والسمك وأبناء اسكتلندة؟

فقال الاسكتلندي: إن السمك فيه الفسفور وإن المخ لا يعمل بغيره، وإنه كثير في سمك بلادنا. . .!

قال الإنجليزي: أئذا أكلت من سمك بلادكم رشحت نفسي بعد حين لمنصب من تلك المناصب الرفيعة؟

قال: بلا جدال

ونقده الإنجليزي جنيهاً وأرسل إليه الاسكتلندي سمكة وعاد بعد أيام يسأله: كيف أنت واقترابك من المناصب الرفيعة!

فهز الإنجليزي كتفيه وأجابه: كما أنا!

قال: إذن كرر التجربة

وكرر التجربة، وأعطاه الجنيه، وأكل السمكة، وعاد إليه بالسؤال مرتين وعاد إليه بالجواب عينه، فلما قال له: كرر التجربة إذا بالإنجليزي يقاطعه هذه المرة صائحا:

- أولاً يباع بالجنيه عندكم أكثر من سمكة واحدة؟!

فابتسم الاسكتلندي وربت على كتفيه وهو يقول: هذا معقول السمك قد آذن أن يظهر يا صاح!

ومن أين لنا أننا إذا طالت التجربة في مصر، قلنا لمن فهموا بعد أن كانوا لا يفهمون: هذا مفعول السمك يا هؤلاء، وهذه بركة الأيام التي لا تحمدونها الآن!

دروس من الحرب، وكم للحرب من دروس. . . فهل نذكرها؟ وهل ننساه فيضيرنا نسيانها!

ويح بني الإنسان! لو أن درساً من دروس جيل ينفع الجيل الذي بعده لما تلاحقت المصائب عليهم جيلا بعد جيل.

وويحهم مرتين! لو أن الأجيال السابقة تجرب للأجيال التي بعدها وتعيش لها لبطل عيش اللاحقين وأصبح كالنسخة المكررة من عيش السابقين

فليجربوا أو لا يجربوا، ولينسوا أو لا ينسوا، فما هم بناجين، وما هم عن تكرار التجربة بمستغنين، ولو كلفتهم السمكة أكثر من جنيه، وأبطأ مفعولها بعد قضاء الثمن مرات.

الربيع في غير مكانه!

الربيع. الربيع. الربيع!

وكررها ما شئت، فما أنت ببالغ من تكرارها بعض ما تراه من اسم الربيع مرقوماً بشتى الحروف، في كل صفحة من صفحات الكون كل بستان يقول لك الربيع، وكل شجرة في بستان تقول لك الربيع، وكل طائرة غادية أو رائحة بين الزهر والشجر تقول لك الربيع. . .!

وتقول لك الربيع كل عين لامعة، وكل وجفة متوهجة، وكل قلب خافق، وكل حياة نامية

الربيع في كل مكان

الربيع في مكانه وفي غير مكانه، ويا رب ربيع في غير مكانه يلقاك بمعنيين لا بمعنى واحد، كما يروعك الحسن غير منتظر، أشد من روعته إياك وأنت في انتظاره، وعلى عهدك باختباره في مكانه بين الضفاف والأشجار وفي غير مكانه أين؟ أين نلقاه في أوانه، بعيداً من مكانه؟

سلني وسل من واعدوه مثلي في مختلف المواعد، فيا طول ما رأيته حيث لا يراه الناس! ويا طول ما ذكرته حيث لا يذكره الناس! ويا طول ما حييته حيث لا يحييه أحد، ولا يأنس إليه في المقبرة، في السجن، في الصحراء، في وحشة النفوس التي تستعير الموت من المقبرة والضيق من السجن والظمأ من الصحراء هنالك الربيع في خير أوانه؛ وهنالك الربيع في غير مكانه؛ وهنالك الربيع الذي لا أحب أن أنساه حين يذكر الناس كل ربيع!

كانت الشجرة باسقة ناضرة، وكانت العصافير تملأها قبل مطلع الشمس وبعد مغيبها، ثم لا تزال تغنيها طوال النهار شادية صافرة، لاهية سادرة، متلاقية زوجين زوجين أو متعاشرة، ظاهرة بالفرار أو متظاهرة، ثم متلاقية في الصبيحة الباكرة، متلاقية في قيلولة الهاجرة، متلاقية في الظلمة الساترة

وكانت الشجرة على قبر فتاة وكان القبر بين مئات القبور

وكنت أراها من حجرة قريبة إلى القبور في كل شيء: في الجيرة، وفي المرض الذي أقعدني فيها، وفي الوحشة التي لا يشع خلالها رجاء

وكنا في صحراء الإمام

انظر إلى عصافيرها. عصافير المقبرة على رفات الحسناء

انظر إليها لا ترى فرقاً بينها وبين عصافير روضة على ضفاف نهر في يوم عيد أتلومها أتحمدها؟

نعم، لك أن تلومها كما قلت يومئذ ألومها:

مغـــــرّدةَ الطيـــــر بـــــين الحفَـــــر
ســــواء لـــــديك جميـــــع الشـــــجر

أفـــــوق القبـــــور غنـــــاء الغـــــرا
م، وطيـــــب المقـــــام وصـــــفو الســـــمر؟

دعيهـــــا لناعبـــــة فـــــي الـــــدجى
ونـــــاعقِ ســـــوءٍ رهيـــــب الخبـــــر

ولـــــوذي بأيْـــــكٍ يفـــــيء الهـــــوى
إلـــــى ظلـــــه ويميـــــل النظـــــر

فـــــذاك بصـــــفوك أولـــــى مقـــــا
مٍ، وأولـــــى بهـــــذا المقـــــام العبـــــر

ولك أن تحمدها كما قلت يومئذ أحمدها:

مغـــــردةَ الطيـــــر أنـــــت الأســـــدُّ
وأنـــــت الأجـــــدُّ، وأنـــــت الأبـــــر

عرفـــــت الحيـــــاة فحييتهـــــا
بحيـــــث نمـــــا غصـــــنها وازدهـــــر

ولــــــم تعرفــــــي المـــــوت بـــــين القبـــــو

ر، ومـــــاذا مـــــن المـــــوت تحـــــت الحجـــــر؟

ولا مـــــــوت حيـــــــث يضـــــــوع الشـــــــذى

ويســـــــري النـــــــدى، وتعـــــــيش الـــــــذكر

فغنِّـــــــــــي فمـــــــــا الأرض إلا حيـــــــــا

ة تمـــــــر وأخـــــــرى تلـــــــي فـــــــي الأثـــــــر

وكنت أقولها يومئذ ولا أزال أقولها الآن وأنا أعجب لنا حين ننعى على الموت قسوته، وننسى أن الحياة تواجهه بأقسى من تلك القسوة، حيثما ظفرت ببقاياه متى حفلت الحياة بالقبور؟

متى هزئ الموت بالأحياء بعض ما تهزأ بالموت زهرة ضاحكة تنمو من جوف قبر، وعصفورة عاشقة على مدفن حسناء، وتغريدة تسمعها من الروضة في يوم مهرجان كما تسمعها من صحراء الإمام في جنازة عزيز؟

تلك قسوة الحياة. وأقسى ما فيها أنها بحق، وأنها لا تخجل ولا تداري ولا تخال في الأمر موضعاً لخجل أو مداراة.

وفي السجن!

والربيع في السجن يعرف أوانه ولا يعرف مكانه

يعرف أوانه فلا يخطئه في ورقة على فرع شجرة، ولا ينساه في قشاشة منسية على الأرض يلمحها عصفور عابر فيهبط إليها، ليتخذ منها أثاثاً لمهاد غرامه، في موسم الغرام

أهذا أوان الربيع؟

نعم هذا أوانه، وهذه أنباؤه، وهذه سيماؤه!!!

أو هذا مكان الربيع؟

لقد كان ذلك بين الأسوار وراء القضبان، وكل مكان فهو منزل للربيع الطلق غير هذا المكان، في حراسة سجان!

ولكننا تلقيناه فيه، وابتسمنا له، وعرفناه غير متنكر ولا متغير، ومقتحماً علينا المكان أحب اقتحام.

ثم في الصحراء والصحراء والسجن نقيضان، ولكنهما في غرابة الربيع يلتقيان.

زهرة يفرقها من الزهرة التي بعدها مائة ميل، وكأنها من الأنس بنضرتها في جمهرة من الرياض والآجام. لا تلتفت إلى وحدتها لأنها في حجر أمها وبعين أبيها، وهل لها من أم غير الحياة ومن أب غير الربيع؟

ولكننا نحن الذين نراها بأعيننا فنخلق لها الوحشة من نفوسنا، ونفرق بين مكانها وأوانها، ولا ضير عليها ولا عليهما من افتراق يذكرنا ربيع المقبرة وربيع السجن وربيع الصحراء أن ربيع العام كله في غير مكانه وإن جاء في أبانه ربيع يقال له موسم الحياة والرجاء وأنباء الموت فيه أشيع الأنباء!

ربيع يتلاقى فيه محبان هنا ومحبان هناك، ثم يتلاقى فيه مائة ألف من الأعداء ومائة ألف من الأعداء، يتقاذفون الموت في البر والبحر والفضاء!

ربيع يترقبه طلاب الموت، ويفزع منه طلاب البقاء!

ربيع أقرب منه إلى مكانه كل ربيع في مقبرة، وكل ربيع في سجن، وكل ربيع في صحراء هذا ربيع العام!

السلامة كل ما يسأل منه، وقد كان بعض سؤله النعمة والغرام وكنت أسمعها تغرد، وأراها تطفر، وأرثي لها وهي في قفصها، وأحبها وهي لا تباليه، كأنها نقلت الحرية من فضاء الله إلى صدرها الصغير بين أفراخها الصغار تلك عصفورة الكنار عند صديق من محبي الطير في الأقفاص، وإن كنت لا أحبها في غير فضاء الله بل رأيتها تولد، ورأيتها تزقو، ورأيتها تترقى يوماً بعد يوم من الزقاء في طلب الحب، إلى التغريد في طلب الحب، إلى التغريد في الغبطة بالبنين ثم نعاها إلى الصديق ذات صباح، فكان لنعيها تعقيب طال بيننا كما يطول التعقيب في هذه الأيام على أنباء الغزوات فليعجب من هذا من يستبعد الفارق بين النبأين، كما يستبعد الفارق بين عصفورة واحدة ومائة ألف إنسان إن كان هذا هو المياس فالفارق جد بعيد، بل هو فارق لا يجوز القياس فيه

لكن المقياس غير هذا وأصدق وأكرم من هذا المقياس بين موت فيه معناه، وموت أخر فيه معناه؛ وقد يتقابل المعنيان في كفتي ميزان، إذا تجاوزت من مات وما مات وانتهيت إلى ما في الموت من سر واعتبار في مستهل الربيع ماتت عصفورة الكنار التي نقلت إلينا قبساً من الربيع في زمهرير الشتاء ماتت وهي في أول أمومة لها تستقبل ربيعها الثاني بخمسة من الأفراخ الضعاف وماتت شهيدة هؤلاء الضعاف الظالمين، لأنها جاءت لتطعمهم والحب عندها كثير، ونسيت أن تأكل لنفسها لتذكر تلك الأفواه المفتوحة كأنها فتحت لتأكل كل شيء. . . وماتت لأنها تعطي الحياة ولا تأخذ منها بعض ما تعطيه ماتت شهيدة الفداء، وماتت ووراءها تدبير حكيم أحكمته العناية في مئات الألوف من السنين

وعندما تموت عصفورة فيترجم لنا موتها ذلك التدبير، ويقد لنا ذلك التقدير، لا عجب أن يقترن موتها بموت الجحافل وأنباء المحافل، وهو في قوانين الوجود كفاء ذلك القانون لا عجب أن نحسب على ربيع العام هذه الشهيدة وأولئك الشهداء، فكلهم في سر الخليقة سواء.

سؤالان متباعدان

جاءني في هذا الأسبوع سؤالان متباعدان من طرفين متقابلين: أحدهما من أديب يسأل عن أبي تمام، والآخر من أديب يسأل عن المدرسة الحديثة في التصوير، أو عن المدرسة التي تزعم أنها تعتمد في تصويرها على الوعي الباطن ولا تعتمد على المشابهات المحسوسة

أما الذي يسأل عن أبي تمام وهو الأديب (السيد حسن قرون التونسي بكلية اللغة العربية) فيسرد أسماء الشعراء الذين كتبت عنهم كتباً أو فصولاً في كتب ثم يقول:

(. . . ولكن شاعراً واحداً لم يفز منك بالإعجاب أو السخط، ولم يظفر منك بتزيين أو تهجين، وهو أبو تمام. ما الذي أبعدك عنه وما الذي أبعده منك؟ أما أنا فأعتقد صادقاً أو كاذباً أن شعرك وشعره ينبعان من منبع واحد. . .)

ثم يقول: (فأبو تمام الذي احدث ضجة في عصره، والذي كتب عنه الآمدي وغيره، والذي كان مثالاً للشعراء يحتذونه ويقلدونه، لا يظفر في العصر الحديث ببحث أو بكتاب أو بطبع ديوانه طبعة أنيقة. ليس هناك شاعر يمثل عصره تمام التمثيل إلا هذا الشاعر. وليس هناك شاعر يعلم البحث والتفكير والتعمق إلا هذا الشاعر؛ ولكنه ينسى ويقدم المجنون ابن الرومي، ويهمل ويذكر رهين المحبسين أبو العلاء، ويكتب عن بشار وأبي نواس ودعبل ولا يكتب عنه!

(أبو تمام حزين ثائر من الأستاذ العقاد لأنه هو الذي إذا تصدى لبحث وفاه حقه، وإذا كتب عن شاعر شرقي أو غربي أعطاك صورة صادقة ناطقة طبق الأصل. . . مهما ظننت بي الظنون فأنا مطالبك بالكتابة عنه، ومهما اعتقدت بي الفضول فأنا مقتنع بفكري راضٍ بنظرتي. . .)

وأنا يعجبني الإعجاب لأنه دليل حسنُ على شعور كريم، ولا يعجبني أن يكون الإعجاب بأحد باباً للجور على آخرين

أما جوابي عن سؤال الأديب: لمَ لمْ أكتب عن أبي تمام؟ فابدأه بأن أبا تمام في اعتقادي شاعر في طليعة الصفوة من شعراء العصر العباسي وشعراء العربية عامة، وإنه حقيق بكتاب أو برسالة ضافية كغيره من الشعراء الذين كتبت عنهم أو كتب عنهم النقاد السابقون واللاحقون

ولكنني لم أعرض له لأن الغالب في كتاباتي من هذا القبيل أن ترجع إلى سببين: إنصاف مغبون، أو تجلية ناحية قد نسيها النقاد أو فهموها على وجه آخر

وأبو تمام ليس بالشاعر المغبون ولا بالمجهول القدر في زمانه وبعد زمانه. بل لعله أصاب من الرعاية والاعتراف بالفضل فوق حقه، أو فوق ما أصابه معاصروه على التحقيق

كذلك ليس في أبي تمام ناحية غامضة أو ناحية تتنازعها الأفهام والبدائه الفنية؛ وإن جرى النزاع في معنى من معانيه فهو نزاع لا يتسع حتى يتناول النفس الإنسانية في آفاقها الواسعة، ولا يترتب على البتّ فيه بت في مشكلة عاطفية أو اجتماعية أو عقدة من عقد الحياة فهو صاحب إجادات وليس بصاحب عالم

يسأل سائل: وما (صاحب عالم) هذه التي تميز بها بعض الشعراء وتجعلها ذريعة إلى الكتابة عن فريق وترك الكتابة عن آخرين؟

فأقول: إن التمثيل هنا لازم لتقريب المقصود بالشاعر الذي (له عالم) والشاعر الذي لا عالم له وإن كانت له إجادات فالملكة الشاعرية - بل الملكة الفنية عامة - هي أشبه الأشياء بالزجاجة المصورة التي ترسم ما يقابلها فالزجاجة الحساسة الواسعة لا تدع مما يقابلها شيئاً إلا رسمته وجاءت بصورة منه والملكة الفنية زجاجة مصورة تقابل العالم بأسره، فإن كانت حساسة واسعة جاءتنا بصورة من العالم كله، وأمكننا أن نعرف ما هو العالم كله كما رآه الشاعر في قصيدة وأن لم تكن كذلك جاءت بقطعة منه، وبلغت ما يتاح لها أن تبلغ في تلك القطعة المحدودة، ولكنك لا تبدل هذه الصورة بالصورة العالية وإن كانت تفوقها في التظليل والتلوين أن قطعة من مدينة القاهرة حسنة التصوير لتشتري وتقتني ولأمراء، ولكنك إذا أردت صورة المدينة برمتها فهذه

الصورة الشاملة أولى بالشراء والاقتناء من كل قطعة محدودة، بالغة ما بلغت من إتقان التظليل والتلوين

وأبو تمام يجيد في هذا المعنى ويجيد في ذلك، ولكنه لا يعرض لك العالم كله في حالة من حالاته ولا يخرج لك نسخة عالمية تقرنها إلى النسخ الأخرى التي تستمدها أمثال: ابن الرومي والمتنبي والمعري في الشعر العربي، وأمثال: شكسبير وجبيتي وليوباردي في الآداب الأوربية

ابن الرومي له عالم كامل من الحياة الفنية، والمتنبي له عالم كامل من الحياة العملية، والمعري له عالم كامل من الحياة الفكرية والروحية فالعالم بكل صورة فنية فيه ممثل في ابن الرومي، أو في تلك الزجاجة الحساسة الشاملة التي لا تدع شيئاً مما يقابلها إلا وعته على الطريقة الفنية العالم بكل صورة عملية فيه ممثل في ملكة المتنبي، كما تمثل عالم الفكر والروح جميعاً في ملكة أبي العلاء حياة كاملة تعرضها من جانبها كل ملكة من هذه الملكات فنقول: إن نسخة من صور العالم قد زادت في مجموعتنا الأدبية.

أما أبو تمام فلا يعطينا نسخة من صور العالم على نحو خاص به أيا كان هذا النحو في قيمته وفي مرماه عنده صورة حسنة جداً لمسجد السلطان حسن، وصورة حسنة جداً لقنطرة قصر النيل، وصورة حسنة جداً للهرم؛ ولكن مدينة القاهرة كلها ليست هناك، سواء (حسنة جداً) أو حسنة قليلاً، أو غير حسنة على الإطلاق وهذا الذي بالشاعر الذي له عالم؛ وهذا هو المقياس الإنساني الصحيح للشاعرية الممتازة في بابها؛ لأن الشاعرية ملكة إنسانية قبل كل شيء، وملكة لغوية أو بيانية بعد ذاك

وما قاله الأديب عن ابن الرومي لا يدل على أن كتاباً ضخماً في شرح أدبه كثير عليه؛ بل يدل على انه لا يزال في حاجة إلى كتب ضخمة إلى جانب ذلك الكتاب، للتعريف بقدره، والتنبيه إلى دقائقه، والوصول إلى فهم الأدب والشعر عن طريق فهمه

فابن الرومي في الملكة الشعرية الفنية قمة لا تطاولها القمم، مثل لا تقاربه الأمثال، طراز ليس له في الدنيا نظير نعم في الدنيا أقول ولا أقول في أدب العرب أو أدب الفرس

أو أدب الروم أو أدب أمة واحدة من الأمم في الدنيا كلها لا نعرف نظيراً لابن الرومي فيما رزقه الله من ملكة التصوير الفني ومن القدرة الشعرية على استيعاب كل مرئي رآه وكل محسوس أحسه وكل خالجه جرت بين طواياه في الدنيا كلها نقول ونحن نعني ونعلم ما نقول. ومن لم يفهم هذا فليجتهد في فهمه، قبل أن يجتهد في رفض رأي ليس عنده من أسباب رفضه مثل ما عندنا من أسباب الذهاب إليه، وأسباب تأييده بيتان اثنان من شعر ابن الرومي يصلحان لتقريب هذه الحقيقة، لأنهما نظماً بمحض الباعث إلى التصوير الفني، ولم ينظما محاكاة للموضوعات التي يتناقلها الشعراء وهذان البيتان هما قوله في وصف حقل من الكتان:

وجلـــس مـــن الكتـــان أخضـــر نـــاعم
توســـــنه دانـــــي الربـــــاب مطيـــــر
إذا اطـــردت فيـــه الشـــمال تتابعـــت
ذوائبـــه حتـــى يقـــال غـــدير

بيتان ليس لهما رنين ولا بهرج ولا بارقة من المحسنات وأفانين الأناقة؛ ولكنهما لا يدعان محسوسة واحدة من محسوسات حقل الكتان إلاْ وعياها وسجلاها والتهماها كما يلتهم الفحم الجائع ما يشتهيه

فالصورة المرئية لها عناصرها التي تتم بها من جميع نواحيها: عنصر المنظر كله، وعنصر اللون، وعنصر اللمس، وعنصر الوقت الذي تراها، وعنصر الموقع الذي تقع فيه من المكان، وعنصر الحركة.

ما من شيء يبقى في الصورة المرئية بعد استيعاب هذا، وما من شيء من هذا لم يستوعبه ذانك البيتان في كلمة (جلس) تمثيل للمنظر كله. اخترها ولم يختر كلمة حقل أو مزرعة أو ما شابه هذه الكلمات، لأنها تمثل المنظر تمثيلاً لا يتفق لسواها وأخضر تذكرنا اللون، وناعم تذكرنا اللمس، والتوسّن[1] يذكرنا وقت الوسن وشعور

[1] تَوَسُّنُ الرَّجُلِ : إتْيَانُهُ وَهُوَ نَائِمٌ

الوسن في وقت واحد، وداني الرباب المطير يمثل لنا حواشي المكان حيث تحيط بذلك الكتان، واطراد الذوائب كاطراد الغدير يمثل لنا الحركة على أحسن تشبيه وأصدق محاكاة.

تمت الصورة على هذا النحو لأن كل حاسة من حواس هذا الشاعر الخالد هي في جوعها إلى محسوساتها كالفم الجائع إلى الطعام الذي تقوم به الحياة زجاجة حساسة شاملة لا تخطئ شيئاً مما يقابلها، وتصيبه لأنها حية حية بالغة في الحياة، لا لمراعاة النظر ولا لتجويد المحسنات ولا لطرق الأبواب التي تقدم بطرقها الشعراء

إذا قرئ ابن الرومي على هذا النحو عُرف ابن الرومي شاعراً لا نظير له في آداب الدنيا، وإنما الطريق إلى قراءته على هذا النحو أن نحس كما أحس وأن نعلم ما عنده لنبحث عنه ونلتفت إليه ونظفر به حيثما وجدناه

ولمن شاء أن يذكرني ما شاء من أبيات وصفه أبيّن له ما فيها من عناصر الاستيعاب التي لم تتفق لغيره من الشعراء، فإنما وصفه لجلس الكتان نموذج قريب المتناول لسائر الأوصاف

أما الأديب (ح. نظمي) الذي يسألني عن غلاة المحدثين من المصورين فينتظر مني جوابها مسهباً عن مدرستهم ومدارس أمثالهم في سائر الفنون، لأن هذه البدعة قد عمت فنوناً أخرى ولم تنحصر في التصوير

والذي أراه أن الإسهاب هنا فضول لا حاجة إليه، لأن بطلان الأساس الذي قامت عليه هذه المدرسة قد يظهر في بضعة سطور

فالمصورون على مذهب الغلاة المحدثين ينسون قواعد الرسم وينسون ملامح الشبه، وينسون أصول التلوين، ويرسمون الرجل فلا تعرفه بملامحه ولا بظاهر شكله ولا تميز بينه وبين غيره بعلامة تتفق عليها الأنظار، لأنهم يزعمون أنهم يعرضونه لك كما يتمثل في الوعي الباطن أو كما يشعر هو في باطن وعيه، ولا يعرضونه لك كما تراه بالعين

والخطأ هنا أن (الوعي الباطن) لم يخلق ليلغي الوعي الظاهر أو يمنعنا أن نرى الدنيا، ولكنه خلق ليظل وعياً باطناً حيث هو في قرارة الضمير، نستدل عليه بعلاماته التي

تتفق عليها الأنظار. وما من أحد يبني بينه أو يطبخ طعامه أو يخيط ملابسه أو يحضر دواءه على ما يتصور هذا وذاك وأولئك في وعيهم الباطن المزعوم. فلماذا يتغير وجه الإنسان لأن له وعياً باطناً أو لأن المصور له وعي باطن، أو ما يزعم من هذا الهراء؟

ومن البديه أن التصوير (فن) له أدواته وتحضيراته وملكاته التي لا تشبه ملكات الفنون الأخرى؛ فما هي الدروس التي يتعلمها المصور ليصبح على هذا المذهب مختصاً في صناعته؟ ما هي تلك الدروس إذا نحن ألغينا الرسم والتلوين والملامح والأشباه؟ أهي دروس التنجيم عن الباطن؟ وكيف الاتفاق عليها ولا يوجد اثنان يتفقان على تسمية صورة من متعلمي ذلك التنجيم؟

الواقع أن (الوعي الباطن) له مكان واحد من شؤون هذه البدعة المرضية، ومكانه هو إظهار العلة المرضية التي تكمن في بواطن المصورين المشغوفين بكل بدعة من هذا القبيل

فما لاشك فيه انهم جميعاً قوم (تفهون) تتخطاهم العيون، فهم بين مشوه أو ضئيل أو مهزوم النفس أو عاجز عن لفت النظر أليه؛ فحيلتهم هي حيلة هذا الضرب من الناس في اتخاذ المشاكسة والتحدي والأغراب وسيلة للتنبيه إليه، وهذه هي الحقيقة الواحدة التي لها شأن (بالوعي الباطن) في مذهب هؤلاء الغلاة؛ فهم مصابون في وعيهم الباطن يترجمونه كارهين، ويعرضون على الناس من ثم أعراض مرض لا معارض فنون.

ومن هو ليوباردي؟

نعم، ومن هو ليوباردي؟
سؤال كنت أنتظره من كثيرين بعد مقالي السابق عن الشعراء الذين (لهم عالم) من الأوربيين والعرب. وقد سألنيه أكثر من واحد وحق لهم أن يسألوا؛ لأن ليوباردي ضعيف الشهرة من البلاد الشرقية ويوشك أن ينساه القراء الأوربيون على ارتفاع شأنه بين النقاد والمعجبين بالأدب الفحل والأساليب الرصينة والنزعات (الإغريقية) الصادقة في غير اصطناع ولا محاكاة
قلت في مقالي السابق: (إن أبا تمام يجيد في هذا المعنى ويجيد في ذاك، ولكنه لا يعرض لك العالم كله في حالة من حالاته، ولا يخرج لك نسخة عالمية تقرنها إلى النسخ الأخرى التي تستمدها من أمثال ابن الرومي والمتنبي والمعري في الشعر العربي، وأمثال شكسبير وجيتي وليوباردي في الآداب الأوربية) فمن هو ليوباردي هذا؟
هو بالإيجاز ثالث الثالوث الأكبر الذي اشتهر بالتشاؤم في أوائل القرن التاسع عشر: وهم بيرون الشاعر الإنجليزي، وشوبنهور الفيلسوف الألماني، وليوباردي الشاعر الفيلسوف الإيطالي الذي كان أصدق الثلاثة تشاؤماً وأحقهم جميعاً بالتشاؤم، والذي شاء القدر - الرحيم - أن يفارق الدنيا كما فارقها زميله بيرون قبل الأربعين، ولم يشأ له أن يعمر فيها كما عمر الفيلسوف الألماني إلى ما بعد الثمانين
ولد في عصر التشاؤم لأنه عصر الانتزاع من الماضي والشك في الحاضر والتهيب من المستقبل، وابتلى بكل سبب من أسباب التشاؤم ينغص لذة العيش ويرنق صفو الحياة، فاجتمعت عليه عراقة النسب مع الفاقة، واصطلحت عليه الأسقام وضآلة البنية، ودقة الحس، وفرط الذكاء، وخيبة الحب في مقتبل الشباب، وسآمة البيئة الريفية التي نشأ بينها واضطر إلى البقاء فيها، وأدركه الموت وهو أصم ونصف أعمى ومريض حرض منذ سنين ومع هذا أي فحولة في الذهن، وأي مضاء في البديهة، وأي أمانة للأدب، وأي صدق في التعبير؟

لكأنما كانت ملكاته الأدبية عوضاً معادلاً لمصائبه الجسدية، وكأنما خلق بنصيب عشرين في الذكاء وفي البلاء على حد سواء تعلم في صباه ست لغات بغير معلم، وهي الإغريقية والعبرية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والأسبانية، فضلاً عن اللاتينية!
والتهم مأثورات الإغريق واللاتين جميعاً وأشربها إشراباً حتى أصبح وكأنه واحداً من أدباء يونان الأقدمين ولما ضعف بصره طفق يشكو في رسائله إلى أصدقائه ويقول: لا أقرأ اليوم إلا ست ساعات في النهار!
وفجع المسكين حتى في هذا فنهى عن القراءة وعن الإصغاء!
ووجب عليه أن ينفق أيامه في قرية لا يشغله فيها شاغل غير التفكير الذي يحرق رأسه وجسده ويضنيه ولا يريحه. ثم ذهب إلى روما وهو مطبوع على الجد ومعاشرة العقول الكبيرة فضاق بها ذرعاً واحتواها أشد احتواء، وعاب على أهلها أنهم قوم هازلون لا يقرنهم بأهل قريته الذين يعرفون الجد وإن كانوا جهلاء لا يعرفون صورته التي صور الدنيا عليها أشبه شيء بالرسم المظلل الذي لا لون فيه غير السواد، ولكنها مع سواد لونها صادقة في كل شيء ما عدا التلوين: صادقة في خطوطها ومسافاتها وأشباهها وكل لمحة من ملامحها، ولا خداع في نقل شيء منها على الإطلاق لتسويغ رأى أو لمجاراة عقيدة. فهي الأمانة التي لا أمانة بعدها في الشعور وفي الأداء، وهي الفحولة التي تعلو به فوق مصائبه وأشجانه وبلاياه، كأنه لا يتشاءم لأنه محروم من رجاء، بل لأنه يرثي للدنيا وما فيها من رجاء لهذا العقل المتوهج عذره إذ رأى الحياة شراً ورأى أن الموت ختام لمأساة الحياة لا شر فيه. أو كما قال: (إن الموت ليس بشر لأنه ينجو بنا من جميع الشرور. وإذا أخذ من الإنسان شيئاً حسناً فهو كذلك يأخذ منه الرغبة فيه. إنما الشر الأكبر هو الشيخوخة التي تحرمه كل سرور وتبقي له اشتهاء ما حرمته، ووصب الداء العياء؛ ومع هذا يفرق الناس من الموت ويتوقون إلى الشيخوخة!)
ولهذا القلب البائس عذره إذ رأى كل حسن في الدنيا قريناً للموت زميلاً للفناء. وأي شيء أبعد عن هذه المزاملة من (الموضة) أو (الجديلة) التي يلهج بها الحسان وغير

الحسان؟ أي شيء فيه من مخالفة الموت ما في دكاكين الزينة التي تتجدد فصلاً بعد فصل وموسماً بعد موسم؟

لكن ليوباردي يعقد المحاورة بين المنية والجديلة فإذا هما شقيقتان وزميلتان. لأن الجديلة كالمنية موكلة بالقضاء على كل موجود وتقبيح كل حسن بعد استحسانه، وتغيير كل عادة ألفتها الأبصار والأسماع، وهي في سلطانها نافذة لا هوادة في أمرها، ولا مناقشة لأحكامها، ولا حيلة معها غير الخضوع والتسليم

تنادي الجديلة أختها: يا منية! يا منية! فلا تلتفت إليها المنية ثم تعيد النداء فتجيبها متبرمة معرضة: إليك عني. إني آتية إليك لا محاولة، ولكن حين لا تريدينني ولا تهتفين باسمي. فتفهمها الجديلة أنها أخت شقيقة وليست (بعميلة) أو داعية أو فريسة

وتتفاهم الأختان بعد حوار كأمتع ما يكون الحوار، ثم تتداعيان إلى السباق وكسب الجائزة في مضمار الهدم والتبديل. فتقول المنية لأختها: ساعديني!

وتقول الجديلة لأختها: لقد ساعدتك حتى الآن أكبر مساعدة في مقدوري، وتركت عادة الموت بغير تبديل، وقد غيرت فيما عداها جميع العادات!

وتشفق الأخت الكبيرة أن يجيء اليوم الذي تبطل فيه هذه العادة كما بطلت عادات فلا تدعها أختها الصغيرة على إشفاقها وحذرها، بل تجلب الطمأنينة إلى ضلوعها التي لا قلب فيها، وتشرح لها كيف تساعدها في بإرهاق الأبدان وتسميم العقول وتعويد الجوارح ما يضني ويسقم ويسلب الغبطة بالحياة. بل تقول لها إنها جعلت من (الموضة) في العصر الحديث أن يعيش الناس لحاضرهم ولا يحفلوا بعد موتهم بالذكر الحسن والخلود المجيد، وقد كان كلاهما حظاً مسلوباً من المنية وقسما تستبقيه الحياة بعد الفناء. فإذا خسرت الحياة هذا القسم النفيس فذلك كسب عظيم للمنية، وتلك هي الهدية التي تبذلها الأخت الصغيرة البرة للأخت الكبيرة التي لا تحفظ الجميل. وعلى ذلك تتفق الأختان

وللشاعر المتشائم محاورات كثيرة على هذا النحو الطريف، يعجب القارئ للعبقرية التي صبغتها بصبغة الفن الجميل وهي غارقة في الحزن والألم والسآمة، وخلقت منها

للعقول متعة باقية وهي تنعى على كل متعة وكل بقاء ولقد كانت قراءة ليوباردي وزميليه في مقدمة القراءات المحبوبة عندي إلى ما قبل الثلاثين. ثم بقيت لها قيمتها الفنية الأدبية وبطل الولع بها والاشتياق إليها. فهي اليوم عندي في مقام التقدير والذكرى، وليست في مقام الاصطفاء والمفاجأة لم هذا؟

لسبب يخيل إلى بعض الناس أنه مناقض للمعقول والمنظور، وهو أن الشباب أميل إلى التشاؤم من الكهولة والشيخوخة، وأقرب إلى الطعن في محاسن الحياة والجهل بتلك المحاسن وهي بين يديه ولا مناقضة للمعقول في هذا بل المناقض للمعقول أن يكون الأمر على خلاف هذا فالشاب يخرج من بيته إلى معترك الحياة فيصطدم بالشدائد التي لم يعرفها بين الأب والأم والإخوان والأقربين، ويرى أخلاقاً غير ما عهد وألف وانتظر: يرى أناساً ينزعون ما في يده وقد كان يرى أناساً يعطونه ما في أيديهم، ويعلم أن نجاحه يغيظ قوماً يعاشرهم ويعاشرونه وقد كان يعلم أن نجاحه فرحة القلوب وقرة العيون، ويرجو كثيراً ولا يظفر بغير القليل. والمرء إذا انتظر مائة ووصل إلى عشرين ناقم ساخط متبرم، ولكنه إذا انتظر خمسة ووصل إلى عشرة يشكر ويرضى ويستريح هذا سبب من أسباب الشكاية والتشاؤم في الشباب يزول أو يضعف كلما تقدمت به السن وجاوز أيام الدلال على الحياة

وسبب آخر أن الشباب يلتهم ما يتناوله فلا يفرق بين الطعام الفاخر والطعام المزهود فيه، كالمعدة القوية التي تستخرج الغذاء من كل الطعام، أو كالمعدة الجائعة يتساوى لديها الخبز القفار والمائدة المنتقاة فهو يظفر بالمتعة ولا يدرى ما هي المتعة ولا يقيس الفارق بينها وبين غيرها بمقياس صحيح وهذا سبب من أسباب الشكاية يضاف إلى ما تقدم فيغري بالتشاؤم في أوائل الحياة

وسبب غير هذا وذاك أن طول العشرة داع من دواعي الألفة والمودة وإن تباينت المشارب في أول اتصال. فإذا كانت الحياة قرينة ناشزة والشاب قريناً غضوباً في بداية الزواج فقد تطول العشرة فيقل النشوز ويقل الغضب، ويأخذ كل من الزوجين صاحبه على علاته، ويصل بالإرضاء والإغضاء إلى تسويغ الكريه وقبول المرفوض

واستكثار القليل وسبب غير أولئك جميعاً أن تقديرك الشيء وأنت تحس أنك فاقده عما قريب غير تقديرك إياه وهو في قبضة يديك غير مهدد بضياع.

فإذا اجتمعت هذه الأسباب لم يكن عجيباً أن يقل تشاؤم الشيخوخة ويكثر تشاؤم الشباب ولهذا جنحت إلى ثالوث التشاؤم كله فيما دون الثلاثين، وأحببت ذكراهم الآن كما يحب الإنسان ذكرى شبابه الباكر، وإن يرى بعد غير ما كان يراه تلك لمحة إلى ليوباردي

بل تلك إشارة إلى صورة العالم الحافل المرسوم بالظلال والظلمات بريشة ذلك العبقري المحروم، الذي لم يحرم الدنيا كما حرمته، متعة لب ونفثة سلوى ورحمة غراء.

احتكار الأدب

نشرت (الرسالة) في عدد مضى كلمة موجهة إليّ نعيد نشرها هنا للتعقيب عليها وهي:
(كثير من الأدباء يتهمون إخوانهم بالأنانية وحب النفس، فأدباء الشيوخ الذين يحتكرون ميدان الأدب لا يبذلون أي جهد في تسديد خطى الشباب الناشئ، ولا أعرف السبب الذي يمنع أديباً مثل الأستاذ العقاد من تأليف كتاب عن الشعراء الناشئين الذين يدل شعرهم على نبوغ وعبقرية مثلما فعل الشاعر الإنجليزي المعروف و. ب يتس الذي كتب عن روبرت بردج، وولتر دي لمار، وهيلار بلوك، وليونيل جونسون، وأرنست دوسون، في مؤلفه كتاب أوكسفورد للشعر الحديث
فشيوخ الأدب في أوربا لثقتهم بأنفسهم وحبهم لفنهم وإخلاصهم له يسددون خطى الأدباء الناشئين ويشيدون بذكر الموهوب منهم. فما رأي الأستاذ العقاد في هذا الموضوع؟... الخ الخ)
كمال الدين نشأت
وفي هذه الكلمة الموجزة كثير من الخطأ الذي يشيع بين بعض المتأدبين الناشئين ولا ينفرد به صاحب السؤال وحده، كما لاح لي من بعض الرسائل والأحاديث، أو مما تكتب الصحف في هذا المعنى، وهو خطأ يحتاج إلى تصحيح؛ وتعتقد أن تصحيحه هو أنفع وجوه التسديد التي ينشدها صاحب الخطاب.
فمن الخطأ (أولاً) أن يشايعهم صاحب السؤال على دعواهم أن أدباء الشيوخ يحتكرون ميدان الأدب لأنهم يظهرون من حين إلى حين بمقال في صحيفة أو بكتاب جديد يؤلفونه أو يجمعون فيه ما سبق لهم نشره من المقالات فلا معابة على الأدباء الشيوخ أن يصنعوا ذلك، بل المعابة ألا يصنعوه وهو واجبهم المفروض عليهم. وقد يعاب عليهم مع ذلك أنهم قليلو الإنتاج بالقياس إلى ما ينبغي لهم أو ينتظر منهم. وإنما يعذرهم أناس لأن جمهور قراء الأدب عندنا لا يقبلون على المؤلفات إقبالاً يملي للكاتب

في أسباب المثابرة ومتابعة التأليف، ويلومهم أناس لأنهم يجهلون العقبات التي تحول دون الانقطاع للكتابة الأدبية في بلادنا الشرقية.

فالمفروض على أدباء الشيوخ خاصة أن يزيدوا إنتاجهم لا أن ينقصوه؛ ولو أريد من الأديب أن يؤلف في سن المرانة والابتداء، ثم ينقطع عن التأليف بعد النضج والاكتمال، لكان هذا بدعة أخرى من بدع انقلاب الأحوال التي حقت على المتخلفين من شعوب الشرق أجمعين.

وإذا كان الغرض هو الكتابة في الصحف دون التأليف والتصنيف فليس بصحيح أن شيوخ الأدب يحتكرون الكتابة الصحفية أدبية كانت أو غير أدبية بأي معنى من معاني الاحتكار. بل ربما اقترنت بكل مقالة يكتبها أديب مشهور خمس مقالات أو ست أو سبع يكتبها أدباء ناشئون أو غير مشهورين، وتكفي مراجعة قليلة للصحافة اليومية والأسبوعية والشهرية لتصحيح الخطأ في هذا الباب.

أما أن أدباء الشيوخ لا يبذلون جهداً في تسديد خطى الكتاب الناشئين فما هو هذا الجهد المطلوب؟ وعلى من التبعة إن صح أنه دون الكفاية؟

أي جهد يسدد الخطى إن لم يسددها التدريس للطلاب أو الكتابة لمن يقرأ ويستفيد؟

أما التسديد بالمحادثة والمناقشة فما هو الجهد الذي يطلب فيه من أدباء الشيوخ؟ ولماذا نعرض هنا على الأديب الشيخ أن يجتهد ليبحث عمن يسدد خطاهم ولا يفرض على الناشئ أن يجتهد ليبحث عمن يسدد خطاه إذا اتسع له الوقت وساعفته شواغل الحياة؟

إن الكتاب الذي أشار إليه صاحب الخطاب لا يصلح للتمثيل به في هذا الصدد من أي ناحية من نواحيه. فهو كتاب يشمل الشعر منذ خمسين سنة ولا ينحصر في شعر هذه الأيام؛ وهو كتاب ندب الشاعر (يتس) لتأليفه ولم يفرغ لتأليفه ولا كان في وسعه أن يفرغ له لو لم يندب لهذه المهمة معفي من تكاليفها ونفقاتها التي يعجز عنها. وهو بعد هذا وذاك كتاب يشتمل على أسماء أناس لا يعدون من الناشئين سواء من ذكرهم صاحب الخطاب أو لم يذكرهم في خطابه. فروبرت بردج مات قبل تأليف

الكتاب وعمره ست وثمانون سنة، وروبرت بروك - إن كان هو المقصود دون روبرت بردج - مات في الثامنة والعشرين وليست له في الكتاب غير قطعة واحدة. وولتر دي لمار كان يدلف إلى السبعين عند ظهور الكتاب، وقد بلغها هلير بلوك في ذلك الحين. وليونل جونسون قد توفي قبل ظهور الكتاب بنحو أربعين سنة وهو في الخامسة والثلاثين، وأرنست دوسون توفي في نهاية القرن الماضي وهو في الثالثة والثلاثين فليس بين هؤلاء شاعر واحد يعد بين الناشئين، ولم يكن يتس مسدداً لخطاهم لأنهم بين صامد على قدميه مستقل عن الأساتذة والمرشدين، ومفارق للحياة في ريعان الفتوة أو بعد مقاربة الشيخوخة وليست المسألة هنا مسألة ثقة بنفس أو حب لفن كما اعتقد صاحب الخطاب، بل هي مسألة تاريخ محدود قد طلبت ملاحظته في الاختيار، وأعفى يتس فيه من أعباء المجازفة والانتظار وفيما عدا هذه الحالة لا نذكر حالة أخرى فرغ فيها شاعر أوربي كبير للتأليف في الغرض الذي يقترحه صاحب الخطاب على أدباء الشيوخ المصريين

وللأدباء الشيوخ العذر كل العذر بين المصريين أو بين الأوربيين إذا اختاروا للتأليف أغراضاً غير هذا الغرض الذي تنعكس به أوضاع الأمور. فان الرجل الذي بلغ الخمسين وجاوزها يحق له أن يقصر مطالعته على المفيد المحقق الفائدة ليثابر على واجبه وعلى الانتفاع بمقروءاته. فليس في وسعه أن يقرأ ست ساعات أو سبع ساعات كل يوم كما كان يفعل في بواكير الشباب. وليس في وسعه إذا اقتصر على ساعتين أو ثلاث أن ينفقها في البحث عمن يجربون الكتابة أو يشرعون في تجربتها ليقرأ مائة مقال أو مائة كتاب عسى أن يظفر بينها بشيء يستحق التنويه، ويستغني عن التنويه لا محالة إذا كان له من القيمة والجودة ما يكفل له البقاء إنما يتيسر التشجيع للأديب الشيخ في عمل واحد وهو عمل الصحافة الأدبية حين يتولى الإشراف عليها. فهو يقرأ ما يرد إليه من الشعر والنثر ويعني بتنقيحه وتقديمه ونشره ولفت الأنظار إليه، وهذا ما كنا نصنعه في الصحف التي أشرفنا على أبوابها الأدبية، ولو كلفنا الجهد المجهد في القراءة والتصحيح والتنقيح.

أما الرجل الذي تشغله الحياة بمطالبها ويشغله الأدب بمطالبه بين قراءة وكتابة، فتسديده مقصور على من يتصلون به وعلى ما هو مستطيعه. وليس مما يستطيع أن يترك كتاباً يؤلفه جهبذ من جهابذة الفن والحكمة ويضمن نفعه ومتعته ليقرأ خمسين كتاباً لا يضمن نفعها عسى أن يعثر بينها على شيء مرجو النتيجة بعد تكرار التجربة مرات هذا ضياع للوقت وضياع للجهد وضياع للأدب، وعبث تستغني عنه الكفاءة المرجوة ولا نفع فيه لمن خلا من الكفاءة، ويمنعه مع هذا كله أنه غير مستطاع على أن الأمر خطير جد الخطر من إحدى نواحيه التي يدل عليها، وهي ناحية الروح التي ينم عليها شيوع هذه الأماني والتعلات بين طائفة ولو قليلة من الناشئين فإنها روح تدل على إعفاء النفس من كل واجب، وإلقاء التبعة على كل كاهل، ونسيان كل حق غير حق الأنانية بغير عناء ولا مقابل يبدأ الناشئ بالكتابة اليوم ويريد أن يشتهر غداً بمقال واحد أو قصيد واحد ولا نقول بكتاب واحد. فإن لم يشتهر فليس اللوم عليه وعلى طمعه فيما لا يكون ولا ينفع الأدب والناس لو كان. . . كلا، بل اللوم على المشهورين الذين كان ينبغي أن يستأصلوا شهرتهم وأن يكفوا عن الكتابة وأن يفرغوا جهودهم وجهود قرائهم لشهرته هو دون غيره من الشيوخ والكهول والناشئين، وإلا كانوا محتكرين للأدب الذي يحق له هو أن يحتكره ولا يحق ذلك لأحد من العالمين!

وهؤلاء الأدباء المشهورين (الشيوخ) ما لزومهم في هذه الدنيا؟ ما لزوم تجاربهم الماضية ودراساتهم الطويلة وجهودهم المضنية وحياتهم التي يعيشون فيها أبداً بين الأذى والإنكار والكنود؟

هل لهم لزوم في نفع أنفسهم ونفع قرائهم ونفع الأدب بالاطلاع على المفيد المضمون؟

كلا. ليس لهذا كله لزوم. . .! وإنما هم لازمون لشيء واحد وهو شهرة من يريد الشهرة العاجلة على شريطة أن يشتهر وحده ولا يشتهر واحد من أنداده في السن والقدرة!!

وهل لهؤلاء الأدباء الشيوخ حق؟ هل لهم فضل يجب الاعتراف به على أحد؟

معاذ الله. . . من أين لإنسان غضب الله عليه فنشأ في الدنيا أديباً شرقياً أن يطمع في حق أو في اعتراف؟

إنما عليه أن يقرأه القارئ الناشئ عشر سنين وعشرين سنة ولا يقول له مرة واحدة أحسنت واستحققت من الكرامة والثناء؛ ولكنه هو عليه أن يقف على باب كل مطبعة ليتلقف منها كل كتاب ألفه كل شاب في العشرين فلا ينام ليلته قبل أن ينفخ كل بوق ليقول ما يحلو للمؤلف من ثناء وتنويه. فان لم يفعل فيا للاحتكار، ويا للأنانية، ويا للغدر والكفران بالحقوق!

تعس الشرق إن كانت هذه روح الجد في شباب يتولى قيادته الفكرية بعد جيل. ومن رحمة الله بالشرق ألا تسري هذه الروح في غير القليل من المتواكلين وتجربتي أنا في هذا الميدان قد يعرفها المتعقب لتاريخ الكتابة الحديثة بغير بحث طويل فما لجأت قط إلى أديب مشهور لأتكئ إلى شهرته وأستفيد من ثنائه، وما استبحت قط في كتاب من كتبي التي أطبعها أن أذيع كلمات التقريظ التي يخصني بها الكبراء ومنهم زعيم مصر (سعد زغلول)

هذه تجربتي مع من تقدموني وسبقوني إلى ميدان الكتابة والشهرة. أما الذين لحقوا بي فإذا استثنيت أفراداً جد قليلين من صحبي - وإن شئت فقل تلاميذي - فلا حق لي عندهم ولهم عندي جميع الحقوق.

قرأوني عشر سنين فما نبسوا بكلمة تقدير واحدة، وتعرضوا للكتابة أياماً فاعتقدوا أنني قصرت غاية التقصير لأنني لم أفرغ نهاري وليلي للثناء عليهم والتبشير بدعوتهم، ووجب إذن أن أفعل ما يريدون وإلا...

وهنا العثرة كما يقول شكسبير!

وإلا ماذا؟ إنني رجل لو جاءني أحد فقال لي عش ألف سنة سعيداً وإلا.. لأوشكت أن أجيبه بالرفض بعد هذا الاشتراط قبل إتمامه فإذا جاءتني شرذمة من خشاش الأرض لا يعرفون لي حقاً ويفرضون عليّ أن أنتحل لهم كل حق مصدوق أو مكذوب وإلا حطموني وهدموني وذروا ترابي في الهواء فماذا ينتظرون مني؟ ولماذا يغضبون إذا تركتهم يهدمونني؟ ألأنهم لم يستطيعوا هدمي؟ أكان من الاحتكار أيضاً أنني لم أنهدم كما أرادوا فعرفوا أنهم عاجزون وأنهم هازلون؟

إن حق التشجيع في معاملة الناشئين مقرون بحق الأدب والتوقير في معاملة الشيوخ والكهول بل حق الأدب والتوقير مقدم بحكم السبق في الزمان، لأن الشيوخ والكهول كتبوا قبل الناشئين، وبحكم الحق لأن الأديب الناشئ يستفيد حين يقرأ سابقيه وليس الأديب الكهل أو الشيخ على ثقة من الفائدة إذا يقرأ للناشئين، وبحكم الاستطاعة لأن القارئ الناشئ قد استطاع أن يقرأ فعلاً ما هو مطالب بتقديره وليس لأحد أن يفرض استطاعة الكهل أو الشيخ أن يقرأ كل ما يكتبه الدارجون في طريق الكتابة ولكنهم هنا يطلبون التشجيع ويعفون أنفسهم من واجب التوقير... ويهددون!

ومن طلب ذلك فما هو بأهل للتشجيع ومن قبل ذلك فما هو بأهل للتوقير

أما الذين يعرفون الحقوق ثم لا يحتكرونها كلها لأنفسهم فليس عندهم من سبب لاتهام المشهورين أو غير المشهورين بالاحتكار، ولا يلومون أحداً على الاشتهار لأنهم هم يتعجلون الاشتهار.

لو تكلم القدر لأسمعنا العجب من ظلم الناس، وهم يحسبون أنهم المظلومون لأنهم يطلبون ولا يجابون، ولا يسألون أنفسهم مرة لماذا يحال بينهم وبين ما يطلبون!

فربما طلبوا ما لا يكون، وربما طلبوا شيئاً وهم يريدون غيره بل يريدون نقيضه، وربما طلبوا الشيء وتوسلوا إليه بغير وسيلته، ثم يعرفون خطأهم فلا يطلبونه بعد ذلك بوسيلته المثلى

والأستاذ توفيق الحكيم أراد الصفاء بين جميع الأدباء؛ فهل أراد شيئاً يكون في هذه الدنيا؟ وهل أراد حقاً؟ وهل توسل إليه بالوسيلة المثلى؟

إن ثلاث (لاءات) مفخمات غير أصدق جواب على هذه الأسئلة الثلاث

فالصفاء بين جميع الأدباء معناه الصفاء بين جميع الناس، وليس هذا بميسور ولا هو بلازم للأدب ولا للأدباء فلماذا تصفو العلاقات بين جميع الأدباء وهي لا تصفو بين جميع الآدميين؟ إن الصفاء قد يتحقق بين طبيب ومهندس ولا يتحقق بين مهندسين أو طبيبين. وقد يتاح لرهط من الأدباء كما يتاح لرهط من أبناء الصناعات المختلفة، ولكنه لن يتاح لجميع الأدباء في وقت واحد، ولن يتاح لجميع الناس من صناعات شتى ولا صناعات متفقة. وليس تخصيص الأدباء هنا بالمطلب المفهوم إلا إذا عممنا الطلبة للأدباء وغير الأدباء، ورفعنا الكدر من جميع الأحياء. وهذا ما ليس بكائن، ولا نراه مما يكون

فالأستاذ توفيق الحكيم هنا يطلب شيئاً يجاب

ولكننا نعود فنسأل: هل طلبه حقاً؟ وهل اجتهد في تحقيقه فتوسل إليه بوسيلته المثلى؟

إن الذي يطلب الصفاء لا يبحث عن أسباب الكدر بملقاط ليخلقها خلقاً بين رجلين على أحسن ما يكون من الصفاء؛ بل هو يمحو منها ما وجد إن كان له أثر محسوس، ولا يوجد منها ما ليس له وجود ولم يحسه أحد ولا توهمه، ولا وقع في ظن من الظنون

فماذا صنع الأستاذ توفيق الحكيم؟
حمل ملقاطه ووضع مجهره على أنفه وراح ينبش ما بين السطور وأطال النبش بينهما ليصيح بعد ذلك: وجدتها! وجدتها!. . . هنا سبب من أسباب الكدر كامن بين السطور لعله لا يظهر على وجه الكلام ولكنه مستور هنالك لمن يبحث عنه ويجري وراءه، وهو لهجة تعالٍ في الشكر، أو لهجة يخيل إلى من شاء التخيل أنها تشف عن التعالي ولا تبرئ الشكر من الجفاء ثم يصيح برجلين يفهمان ما يقولان وما يقال لهما: أرأيتما؟ أليس خليقاً بكما ألا تصفوا؟ أيليق بكما أن تصفوا وبينكما هذا الذي أراه مانعاً للصفاء!
ذلك ما صنعه الأستاذ توفيق الحكيم
فهل في وصفه مبالغة؟ وهل صورناه بغير صورته القريبة التي تعرض نفسها لكل من ينظر إليها؟
أهدى إلي الدكتور طه حسين قصته (دعاء الكروان) فجعلت هذا الإهداء موضوع مقال من أعماق النفس في معنى الكروان ودعاء الكروان وذكريات الكروان، وقرأه كثيرون من الأدباء فحدثوني عنه حديث رضى وسرور، وفي مقدمتهم الدكتور طه مهدي دعاء الكروان
أما الأستاذ توفيق الحكيم فماذا صنع؟
لم يرضه ما أرضى الدكتور طه ولا ما أرضى الأدباء ولا ما أرضى كثرة القراء، وراح يتحدث ويكتب ليقول: هنا صفاء. . . فكيف بالله يليق هذا الصفاء؟
لو كان الأستاذ توفيق الحكيم يطلب الصفاء ويتوسل إليه بوسيلته المثلى لكانت له ندحه مما صنع ولو لم أكتب ذلك المقال عن دعاء الكروان.
نعم كان في وسعه أن يقول بينه وبين نفسه: لعل واجب الشكر قد أُدي في رسالة أو في مقابلة، أو سيؤدَّى في سانحة أدبية يأتي أوانها في حينها، أو لعلي أعرف الحقيقة إذا عنيت بالسؤال عنها عند أهلها.
هذا ما كان في وسع طالب الصفاء أن يصنعه ولو لم أكتب مقالي في (دعاء الكروان)

ولكن الأستاذ الحكيم لم يصنعه، ولم يزل يحمل ملقاطه ويضع مجهره على أنفه، ليخلق الكدر من شيء يبحث عنه بين السطور، ولا يراه على ظاهر السطور

أهذا هو طلب الصفاء والسعي إليه؟

فماذا يكون السعي إلى خلق الكدر والإشفاق من دوام الصفاء؟

كانت المناقشة بين الأستاذين زكي مبارك وتوفيق الحكيم قائمة يوم لقيت الأستاذ توفيقاً في إحدى المكتبات وفيها صديقنا الأستاذ على أدهم. فجرى ذكر تلك المناقشة وصارحت الحكيم فيما أراه فقلت له: إنك لم تبحث عن أسباب الإنصاف بعض بحثك عن أسباب الجفاء؛ لأنني لا أعرف ولا أذكر أنني قصرت في حق زميل إبان اشتغالي بالصحافة وتولِّي فيها صفحةً للأدب ودراسة المصنفات. فكل أديب أرسل إليَّ كتاباً في هذه الأثناء فقد نوهت به وكتبت عنه، ولكنني أنا أرسلت كتباً إلى زملاء يعرضون للمصنفات في المجلات فلم يذكروها ولم يشيروا إلى صدورها. فلماذا نسيت هذا وحاسبتني على ما تقول إنه شكر لم يبلغ ما تتخيله من الرقة والنعومة؟ لماذا تحاسب من يكتب ولا تحاسب من يهمل؟ ما الذي يعفي أولئك الزملاء من عرفان حقي، ويوجب عليّ أنا أن أبلغ الغاية التي يتخيلها كل متخيل من عرفان الحقوق؟

وتكلم الأستاذ الحكيم عن أولئك الزملاء فقلت له: إنني لا أفردهم بالملاحظة ولا أستثنيك أنت منها. فقد كتبت عنك مرتين أو ثلاثاً فكم كتبت عني؟ وما الذي يعفيك من هذا الواجب الذي لا أذكرك به إلا لمناقشة رأيك لا لأنني أطلبه أو أحتاج إليه؟

ثم بينت له موقفي من تقريظات العظماء الذين يثنون على كتبي فأشكر لهم ثناءهم ولا أنشره فيما أطبعه من كتبي، وإن كان في نشره فخر أعتز به كما يعتز به سائر المؤلفين

بينت له ذلك لكي لا يقع في روعه أنني أطالبه بواجب الكتابة أو أتقاضاه حقاً من الحقوق. فلو أردت ذلك لعمدت من قبل في عشرات السنين الماضية إلى نشر الكتابات التي وصلت إلى يدي وهي مما يسمح بنشره في جميع البلدان ثم افترقنا ولم أسمع من الأستاذ الحكيم في تلك المقابلة ما يذهب بدهشتي من سعيه إلى الصفاء بذلك

الأسلوب، ومن محاسبته إياي على الوهم بين السطور وهو يرى أناساً يسهون كل السهو عن حق الأدب وحق الزمالة، فيغضي عن الحقيقة الماثلة، وينسى السطور وما بين السطور وفارقني تلك الليلة ولا أدري ما في نفسه، ولعله كما علمت بعد أيام قد تبين صواباً فيما قلت أو في بعض ما قلت فعدل إليه وكتب مقاله المشكور عن كتابي (عبقرية محمد) فقدمه بكلمات يقول فيها: (وقد سمحت لنفسي بالسبق إلى أداء هذه التحية، لأني فطنت إلى أني المتخلف دون غيري عن أداء الواجبات، وليس لي من عذر إلا انصرافي عن باب النقد منذ أول الأمر). وهو موقف بار أحمده له كل الحمد وأعتقد أنه قد حُسب له عند القراء كما حسب له عندي في عداد الخلائق المرضية والفضائل الخلقية. ثم وجه إليّ بعد أيام أخرى خطاباً يقول فيه:

(إنك للمرة الأولى تخاطبني بهذه اللهجة التي كنت تخاطب بها الرافعي رحمه الله. أبهذه السرعة تضع الناس في صف أعدائك؟ لعلك لفرط ما قاسيت من شر الناس، ولقلة ما وجدت من خيرهم، أصبحت مثل (هملت) تستل سيفك لتضرب من خلف الأستار دون تبين الوجوه. فطعنت صديقاً وأنت لا تدري)

ولا أظن أنني أشبه (هملت) في كثير من خصاله وفعاله؛ ولكني إذا سئلت لم صنعت صنيع (هملت)؟ أفلا يجوز لي أن أسأل: ولم الوقوف وراء الأستار، وأولى من ذلك الخروج إلى وضح النهار؟ أليس هنالك بعض اللوم على من ينصت خلف الستر ليسمع ما لا يُسمع، أو ليقول ما لا يقال؟!

وبعد، فما العبرة من كل أولئك في تاريخ الأدب ونقده وسلوك الأدباء مشهورين كانوا أو غير مشهورين؟

العبرة من أولئك (أولاً) أن الأستاذ الحكيم يقول بعد الإشارة إلى ثناء الدكتور طه عليه منذّ سنوات: (...لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كتاب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض، وأن على المؤلف واجباً مقدساً هو أن يشتري من فوره سبحة كيلا ينسى أن يسبح بحمد الناقد أناء الليل وأطراف النهار..)

كذلك يقول الأستاذ الحكيم اليوم. فليذكر مقاله الأدباء الناشئون الذين يؤمنون بكفاءة تشبه كفاءته الفنية، ليذكروا أنهم يطلبون شيئاً ينكرونه جاهدين بعد بضع سنوات: يطلبون التشجيع ثم ينكرون التشجيع، وكان أحرى بهم ألا يطلبوه وألا ينكروه، فما سمعنا في غير مصر أن الأدباء المشهورين مسئولون عن شهرة كل أديب ينشأ بعدهم ولا يعرف لهم حقهم، وإلا كانوا هم الملومين المقصرين

وعبرة أخرى أن الأستاذ الحكيم يذكر التعالي في موقف الكاتب وينسى أنه اختار لأدبه عنوان (البرج العاجي) وهو عنوان الأدب المصطلح على وصفه بالتعالي بين نقاد الغرب وشعرائه. فليترك برجه العاجي إذن أو فليتركنا نحن نتعالى ونتواضع كما نشاء

وعبرة ثالثة أن الأستاذ يحن إلى صداقات في الأدب المصري كالصداقات التي أثرت عن كبار الأدباء الغربيين

وأن أناساً لتأخذهم السمعة البعيدة في زمانها أو البعيدة في مكانها فليلحقونها بعالم الخيال وعالم المثال ويسهون عن الواقع الذي لا يقبل المحال

وأعيذ الأستاذ أن يكون من هؤلاء

فتاريخ الآداب الأوربية بين يديه يستطيع أن يرجع في كل ساعة إليه، ويستطيع أن يعلم بعد المراجعة أن في الأدب العربي حديثه وقديمه صداقات تضارع تلك الصداقات مع حسبان الفارق في البيئة والزمن والمناسبة

فهل يعني الأستاذ صداقة شعراء البحيرة في إنجلترا؟ هل يعني صداقة شلي وبيرون هناك؟ هل يعني صداقة جيتي وشلر بين شعراء الألمان؟ هل يعني صداقة تولستوي وتورجنيف وديستفسكي بين عظماء الأدب العالميين من الروسيين؟

إن كان يعني هؤلاء وأمثال هؤلاء فهو واجدٌ في الأدب العربي الحديث صداقات من طراز تلك الصداقات، وواجدٌ من هناتهم في الغرب نظائر لما يشكوه من هنات الزملاء المصريين والشرقيين

والطبيعة البشرية واحدة في كل مكان. . تلك أصدق حكمة عن الناس قالها إنسان.

لقيني كاتب معروف يتشيع للبدع الحديثة حتى تقدم فيتركها ويتشيع لغيرها فقال لي: إنك أنكرت (الوعي) الباطن في التصوير، وأخذت على غلاة المحدثين أنهم يعتمدونه في صورهم، مع أنك ترجع إليه في شعرك وترسم بالقلم نظائر لما يرسمونه بالريشة

قلت: مثل ماذا؟

قال: مثل قولك في وصف قبة الفضاء إحدى الليالي:

كأنها الهاوية المقلوبة

كأنها الجمجمة المنخوبة

تهمس فيها الذكر المحبوبة

وهذا من صور الوعي الباطن وليس من صور العيان

والذي قاله الكاتب المعروف يخالف الواقع ولا يؤيد المدرسة الغالية من المصورين، أو مدرسة (السريالزم) على وجه من الوجوه

فأنا، من جهة، لم أنكر الوعي الباطن ولا موجب لإنكاري إياه، وإنما أنكرت أن يكون وجود الوعي الباطن ملغياً للوعي الظاهر وللمشاهدة الحسية والمرئيات العيانية، وأنكرت أن يكون الوعي الباطن ملغياً لقواعد التصوير قديمها وحديثها، فلا تبقى للمصور مزية على الجاهل بفن التصوير، لأنهما على حد سواء يهملان التلوين والمشابهة وأصول الرسم والتمثيل، وأبيت أن أعتقد كما يعتقد الواهمون أن (الوعي الباطن) شيء جديد في هذه الدنيا، وهو هو تلك الملكة الراسخة في قرارة النفوس قبل ظهور التصوير والمصورين، فلم يكن رسوخها هذا حائلاً بين المصورين الأقدمين وبين رؤية الأشياء كما يمثلها العيان

إن الوعي الباطن ليس من اختراعات هارتمان ولا فرويد، ولا من مصنوعات القرن العشرين، ولكنه ملكة إنسانية وجدت في مصوري روما وهولندة وإسبانيا كما توجد في المصورين المحدثين؛ فلماذا نلغي العيون اليوم ولا نرى الأشياء إلا بالتنجيم

والتخمين؟ ومن الذي قال إن حامل الريشة هو المتخصص في تنجيمات الوعي الباطن دون المعلم والمهندس والطبيب والكاتب والشاعر وسائر المثقفين وغير المثقفين؟

هذا كلامي عن (الوعي الباطن) لا يدحضه الشعر الذي ذكره الكاتب المعروف وأراد أن يسلكني به في عدد أولئك المنجمين

على أن الشعر الذي ذكره الكاتب المعروف يعطي العيان حقه ويعتمد على الحس ولا ينسى المشاكلة ولا المشابهة من جانبها الظاهر ولا من جانبها الباطن أقل نسيان

فالتجويف ملحوظ في قبة الفضاء وفي الجمجمة المنخوبة؛ وهمس الذكر يقترن بالرأس ويقترن بالسماء في لياليها المرهوبة، وإذا تسربلت السماء بسربال الرهبة، فالشعور الذي توحيه إلى النفس أقرب شيء إلى شعور الإنسان أمام الرؤى التي أحاط بها عالم الفناء والأبدية

فالمشابهة الحسية والمشابهة المعنوية متوافرتان هنا كل التوافر، وليس في (السريالزم) أثر للمشابهات ولا للتوافق في الرسم والتصوير.

على أننا نذهب مع الكاتب المعروف إلى أقصى مداه ونفرض أن وصفي الفضاء في إحدى الليالي المرهوبة بالجمجمة المنخوبة وعي باطن ليس فيه من الوعي الظاهر كثير ولا قليل

نفرض أنني رجعت إلى (الوعي الباطن) في بيت أو بيتين أو عشرة أبيات من عشرة آلاف بيت. فأين هذا من إلغاء الحس والعيان كل الإلغاء وتطليق العيون والأسماع إلى آخر الزمان؟ إن تسلل الوعي الباطن مرة في كل ألف مرة لهو احتمال جائز موافق لطبيعة السوانح الباطنية. أما الوهم الذي لا يجوز ولا يوافق طبيعة من الطبائع، فهو أن نصبح كلنا وعياً باطناً وأن تصبح الدنيا كلها موعية باطنية لا تستخدم فيها عين ولا أذن كما يستخدمهما خلق الله في المسكن والملبس والطعام والشراب والدرس والتخيل والتفكير

هذا الذي ننكره وينكره كل ذي عينين وكل ذي وعي باطن مستقر في مكانه كما خلقه الله. أما المصورون الذين يقذفون بالألوان والرسوم إلى عرض الطريق ليحدثونا باسم

(الوعي الباطن) فأول ما ينبغي أن يسمعوه منا أنكم يا هؤلاء لستم بأصحاب الاختصاص في هذه الأسرار. فإذا فشلتم في حمل الريشة وخلط الألوان فقد فشلتم في وظيفتكم المعترف بها وادعيتم لأنفسكم وظيفة لا يعترف لكم بها إنسان، ولا حاجة بالناس إليها لأنهم جميعاً أصحاب (وعي باطن) مثلكم وزيادة. . . فما حاجتهم إليكم وإلى غيركم من أدعياء هذه الكهانة المعروضة عليهم في ثوب التصوير؟

ومن المساجلات التي نُبهت إليها كلمة لأديب يكتب في (الثقافة) بتوقيع (محمد مندور) قال فيها عني في صدد الكلام على أبي العلاء ورسالة الغفران:

(. . . والعقاد يبدأ فيؤكد - فيما يعلم - أن فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه إليها أحد غير لوسيان في محاوراته في الأولمب والهاوية. وهذا قول عجيب يدخل في سلسلة تأكيدات الأستاذ العقاد التي لا حصر لها في كل ما كتب، والتي كثيراً ما تدهشنا لجراءتها؛ ففكرة الرحلة إلى العالم الآخر قديمة قدم الإنسانية، عرفها اليونان قبل لوسيان، وعرفها العرب قبل أبي العلاء)

لا يا شيخ!

العالم الأخر قديم قبل لوسيان، والجنة والنار قديمتان قبل أبي العلاء!

سبحان الله! كنا نظن غير هذا. . . كنا نظن أن الجنة والنار خلقتا بعد المعري بثلاث أربع سنوات! وأن لوسيان ظهر على الأرض فظهر معه الجحيم السفلي الذي تحدث به اليونان

أما وصاحبنا المدهوش من جرأتنا يؤكد لنا أن الأمر على غير ذلك فلنرجع إذن عن توكيداتنا الجريئة، ولنعلن التوبة بين يديه لنقول له: صحيح. صحيح والله. . . الجنة والنار كانتا معروفتين قبل أبي العلاء، والعالم السفلي كان معروفاً قبل لوسيان. . . ولندن. . . لندن نعم لأجل خاطرك كانت موجودة قبل رحلات المسافرين إليها، وكذلك والله باريس، وكذلك والله القاهرة، وكذلك والله الهند والصين وبلاد تركب الأفيال، أو بلاد تمشي على الأرض ولا تركب حتى النعال

أفادك الله يا مولانا الذي يتربع على الكرسي العريض لينكر على المساكين من أمثالنا توكيداتهم الجريئة ويعلمهم كيف تكون التوكيدات من آخر طراز

وأي توكيدات؟

توكيداته التي لا جرأة فيها هي أننا نحن المساكين، أو أن أحداً من خلق الله أجمعين، يجهل أن أبا العلاء قد تكلم عن شيء معروف حين تكلم عن الجنة والنار، وأن لوسيان لم يكن أول من سمع بالعالم السفلي بين قدماء اليونان فنحن بعد الاستئذان في قليل من الجرأة التي يدهش لها صاحبنا نجترئ مرة أخرى فنقول له إننا لم نجهل معرفة الناس بالجنة والنار وهبوط الملائكة وصعود الشياطين قبل أبي العلاء، وأن أحداً من القارئين لم يجهل هذا، ولا يسحن بأحد أن يرمي أحداً بجْهله. فهذا تحصيل حاصل مفروغ منه، وليس أدعي إلى الدهشة من مجازف يجترئ على توكيده. . . ولكننا إذا تكلمنا عن الآثار الأدبية التي تتخذ من الرحلة بين الجنة والنار موضوعاً لها، فهذا كلام آخر يجمل به أن يصغي إليه؛ وإذا جمعنا بين المعري ولوسيان في هذا الصدد فذلك مبحث يصح النظر فيه والاستفادة منه؛ أما أن يتربع متربع على كرسي الفتاوى ليحدث قراءه بوجود السماء والأرض والملائكة والشياطين قبل الكتابة عنهم والرحلة إليهم، أو بوجود لندن وبرلين قبل كتب السياحة والرحالين، فلا يستغرب أن يجترئ بعض القراء، ويا له من اجتراء، فيزحزح له كرسيه قليلاً إلى الوراء!

بل لا نظن أن القارئ يكتفي بزحزحة الكرسي قليلاً إلى الوراء إذا كان ممن يعلمون أن (العقاد) قد سبق إلى كتابة هذا، فقال قبل عشرين سنة عن رحلة أبي العلاء: (أي شيء من هذه الأشياء لم يكن من قبل ذلك معروفاً موصوفاً؟ وأي خبر من أخبار الجنة المذكورة لم يكن في عصره معهوداً للناس مألوفاً؟ كل أولئك كان عندهم من حقائق الأخبار ووقائع العيان..)

ثم قال: (فهي رحلة قديمة كما قلنا ولكنه أعادها علينا كأنه قد خطا خطواتها بقدميه وروى لنا أحاديثها كأنما هو الذي ابتدعها أول مرة...)

ومن يدري؟ فقد يكون من اجتراء العقاد أنه اختلس هذه الحقيقة قبل عشرين سنة، ولم ينتظر الإذن قبل اجترائه على الاختلاس والإدعاء!

ولا شك أن (المندورين) في هذا البلد كثيرون مع اختلاف في الأسماء والعناوين. . . فمنهم ذلك الذي تسمي في إحدى المجلات باسم (مصطفى) ليستر ما في مقاله من سوء النية وهو يتكلم عن النبي العربي، ويتميز غيظاً لأننا عرضنا لتعدد زوجات النبي في كتابنا (عبقرية محمد) فرددنا أسبابه إلى مصلحة الدعوة الإسلامية ولم نتخذ منه ذريعة لتلويث السمعة كما فعل المتعصبون من المبشرين والمستشرقين. وليس هذا بالعلم ولا بالمنطق في رأي أذناب الاشتراكية الرعناء. . . إنما العلم والمنطق أن تلوث كل عظيم في تاريخ بني الإنسان، لأن مقاصد الاشتراكية الرعناء لا تستقيم لأصحابها وفي الدنيا عظمة شريفة تستحق التبجيل والولاء. وكفى بحقارة مذهب لا يستقيم إلا بتلويث كل عظيم!

قال ذلك (المصطفى) المزعوم إننا دافعنا عن محمد فقلنا: (إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط؛ فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه تزوج بتسع نساء)

ثم قال ذلك المصطفى المزعوم معقباً على كلامنا: (ولكن ما رأي العقاد لو قال الناقد: إني أرى المسيح قاصر الجنسية وما أنفي عنه هذه الصفة)

ورأي العقاد أن الناقد لن يقول ذلك لأنه كان من أساطين المبشرين. فإن أعْدته الاشتراكية الرعناء بسوء أدبها فجوابه إذن أن نرده إلى تاريخ النبي كما فعلنا فنريه بما يفقأ عينه أن الرجل الشهوان يجمع بين تسع زوجات من الأبكار الحسان وهو قادر على ذلك كل القدرة ولا يختار زوجاته كما صنع النبي من المسنات المتأيمات اللائى لم يشتهرن بالجمال، ثم تكون البكر الوحيدة منهن بنت أبي بكر الصديق التي يرجع التزوج بها إلى أسباب المصلحة الإسلامية قبل كل اعتبار

فهل (تنبسط) الاشتراكية بهذا الجواب أو يملأها سم البغضاء وصديده لأن في العالم الإنساني رجلاً باقياً بغير تلويث!

وقال ذلك المصطفى المزعوم: إن العقاد (يقيم الحجة على نبوة محمد باضطراب الأحوال وقت نشوئه في بلاد العرب. . . ترى أين يكون إقناع العقاد لو انبرى مسلم - قبل أن يتصدى من لا يدين بالإسلام - وقال: إن الأحوال الحاضرة أشد قساوة مما مضى في عهود الإنسانية جميعها. . . وإذن فالحال المعاصرة تستلزم نبياً ينشر الخير والعدل. فأين هذا النبي ممن عرفهم العالم حالياً. . .)

والعجيب أن يسألني هذا المصطفى المزعوم عن رأيي وقد بينته صريحاً في الكتاب نفسه حين قلت: إن العالم حائر في طلب العقيدة أو (طلب المسوغ للوجود. لأن الوجود وحده لا يكفي الإنسان إلا أن يكون على طبقته مع الحيوان. فالإيمان للمستقبل، وعسى أن يكون المستقبل للإيمان. . .)

قلت ذلك في ختام الكتاب وجعلته خلاصة الرأي فيه وموضع العبرة منه، ولا أزال أقول كما قلت دائماً إن خلاص العالم مرهون بالإيمان. وإن حياة الناس بغير عقيدة نبيلة هي حياة حشرات ولكن الإيمان الذي يحتاج إليه العالم لمن يكون إيمان المعدات والأمعاء، لأن الإنسانية لن تحتاج إلى رسل وحكماء ليعلموها عبادة الطعام والشراب، وإن أحقر حصان معلق في مركبة نقل ليعلم من هذه الفلسفة ما يعلمه كارل ماركس ولنين وإخوان هذه لعصبة أجمعين

إنما يحتاج العالم إلى إيمان يليق بأبناء آدم، ولا يحتاج إلى إيمان يزعم أنه يخلصه من ضرورات المعدة بعبادة هذه المعدة في الصباح والمساء، وفي ساعة العمل وساعة الرياضة، وفيما يدير عليه تجارب العلم ومطالب الفن وأشواق النفس وعقائد الضمير.

قبّحت عقيدةٌ كهذه العقيدة إن قضى بها النحس على أمة من الأمم. فهي عقيدة لن تخلص الناس من ضرورات المعدة وخسائسها بل تفرض عليهم عبادتها وتسجل عليهم الخضوع لرهبة الجوع إلى آخر الزمان. وقبّح من رسل أولئك الرسل الذين لا جديد عندهم يعلمونه الناس وراء ما علمته الحشرات قبل ملايين السنين. وأبى الله أن

(تنبسط) الاشتراكية الرعناء إن كان تحقير عظماء الإنسانية وتحقير الإنسانية كلها فرضاً لزاماً لمن يسترون شرورهم بأمثال هذه الدعوات.

تكلم سان بيف - إن صدقتني الذاكرة - على أدب المذكرات الخاصة الذي شاع بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر في طائفة المثقفين والمثقفات من أهل فرنسا فعلل شيوع هذا الأدب بحب الظهور أو حب التحدث عن النفس والعكوف عليها. وقال ما فحواه: إننا نحن الفرنسيين نحب أن يتحدث عنا الناس وأن نتحدث عن أنفسنا فكتبنا. فأن عز علينا ذلك في المحافل والأندية خلونا إلى أنفسنا فكتبنا عنها في مذكراتنا الخاصة وجعلنا من سيرتنا موضوعاً يشغلنا كأننا أبطال المسرح ونظارته في وقت واحد. وهذا هو عنده - إن صدقتني الذاكرة مرة أخرى - تعليل أدب المذكرات الذي شاع قبيل عصره بين الفرنسيين والفرنسيات

وصاحب هذا التعليل لم يوفّ السبب الصحيح كل التوفية فيما نراه فإن المذكرات الخاصة لم تشع بين الفرنسيين وحدهم في تلك الفترة، ولكنها شاعت كذلك بين الإنجليز وبدأت عندهم على الأرجح قبل ابتدائها عند الفرنسيين. فأثرت عنهم اليوميات من أوائل القرن السادس عشر إلى أيام الثورة الفرنسية، وكانت لهم فيها أفانين لا تنحصر في نوع واحد من أنواع الملاحظة والتدوين والأغلب في اعتقادنا أن كتابة المذكرات الخاصة عادة سرت إلى أبناء فرنسا وإنجلترا معاً من عادة الاعتراف التي دان بها التابعون للكنسية الكاثوليكية زمناً في كلتا الأمتين. فكان إفضاء الكاتب بأسراره إلى دفتره المكنون ضرباً من الاعتراف بين يدي الكاهن بالخطايا والذنوب وخفايا النيات، وأصبحت كتابة المذكرات هي باب الاعتراف الوحيد الذي ظل مفتوحاً لمن تحولوا عن الكنيسة الكاثوليكية وعدلوا عن الاعتراف بين أيدي الكهان وربما أضيفت إلى هذا السبب أسبابٌ أخرى نفسية كمزاج البوح والمكاشفة الذي يطبع عليه بعض الناس، وأسباب أخرى سياسية واجتماعية كاضطرام الفتن واختلاف العادات، وصعوبة المفاتحة بالأسرار بين أناس متدابرين مستريبين فيما يضمر كل منهم من العقائد والميول

والدكتور طه حسين قد جمع بين حسن الإلهام وحسن التعليل حين عرض لهذا الأمر في الصفحات الأولى من روايته الجديدة (الحب الضائع) فقص لنا قصة الفتاة التي انتقلت من الاعتراف للقسيس إلى الاعتراف للدفتر وقال لنا بلسانها: (إني لأفكر في هذا فأذكر مواقف وقفتها في عهد الطفولة ولا أزال أقفها إلى الآن وقد كدت أبلغ العشرين من العمر. وهي مواقفي من القسيس...)

إلى أن تقول: (. . . فأخترع الخطايا اختراعاً وألقيها إلى القسيس متكلفة غالية في التكلف. فيقبل القسيس مني حيناً ويرفض حيناً آخر. حتى انتهى به الأمر ذات يوم إلى أن كلفني أن أعترف له بكل ما أثقلت به نفسي من هذه الأكاذيب والأباطيل ونبهني إلى أن الكذب عليه كذبٌ على الله، وإلى أن هذه الخطيئة الساذجة في ظاهر الأمر قد تستحيل إلى خطيئة مهلكة لأنها تعودني الكذب، وتغريني بالتكلف، وتدفعني إلى النفاق، وتنشئ بيني وبين الآثام صلات قد تنتهي بي إلى الشر. فأقلعت منذ ذلك اليوم عن انتحال الخطايا وتكلف الآثام للقسيس، ولكني ألاحظ الآن أني قد جلست إلى هذا الدفتر لأنتحل الأحاديث وأتكلف الأسرار وما في نفسي من حديث وما لضميري من سر. . .)

فها هنا طفلة أحبت الاعتراف لأنها أحبت أن تتشبه بالفتيات الناميات ولو في انتحال الخطايا واختلاف الذنوب، ثم حال القسيس بينها وبين الاعتراف الكاذب فرجعت إلى قسيس صامت لا يمنعها أن تعترف بما تشاء ولو لم تكن فيه مدعاة اعتراف، وهو الدفتر الذي تطويه عن الانتظار وتجد عنده مزيجاً من متعة البوح ومتعة الكتمان

هذا مزاج الاعتراف واتخاذ الدفاتر الخاصة معاً قد مثل لنا على صورته الجلية الصادقة في أطوار هذه الفتاة التي يحدثنا عنها مؤلف (الحب الضائع)

ولعلنا نلمس في هذه الحقيقة طابع الصدق الفني والصدق الواقعي الذي اتسمت به الرواية في سرد حوادثها ورصف نسائها ورجالها

تأخذ في قراءة هذه الرواية وتعبر منها صفحة بعد صفحة فلا يزال يرتفع في خلدك شعور بالسؤال: مني كنت هنا قبل الآن!

أو لا تزال تشعر كشعور الرجل الذي رأى وجهاً عرفه ولا يذكر أين رآه أول مرة، أو كشعور الرجل الذي رأى مكاناً تخيله ووصف له وظن أنه نزل به يوماً ولا يذكر متى كان ذلك اليوم ثم تعرض مقروءاتك من بعيد وقريب فيتراءى لك من بينها اسم (فرتر) الذي لا ينساه طويلاً من عرفه بعض حين

أي نعم هو (فرتر) بعينه... هو فرتر لا مراء

أفمعنى ذلك أن رواية الحب الضائع تشابه رواية فرتر في وقائعها؟

أفمعناه أنها تشابهها في سياقها أو أسلوب كتابتها أو طريقة في فن القصص أو مواقف الأبطال الموصوفين فيها؟

كلا. لا تشابه من هذا القبيل بين الروايتين، وكل ما بينهما من التشابه أنهما تتحدثان لنا عن حب يائس انتهى بامرأتين صديقتين إلى الموت. وهذا في الحقيقة موضوع عام تشترك فيه روايات لا تحصى، ثم لا تذكرك واحدة منها بالأخرى إنما التشابه في جو الطيبة والوداعة الذي يغمر القارئ وهو يتقدم في قراءة الروايتين وليس هذا كل ما هنالك وكفى!

بل هي طيبة لا تشبه كل طيبة في لبابها، لأنها طيبة جادة تعرف كيف تستسلم وكيف تجمح وكيف تنطوي على نفسها وكيف تقبل الحياة بشرائطها هي لا بشرائط الحياة وهي كذلك طيبة لا تحسها من مصدر واحد في الرواية، فلا تحسها من الزوجة وحدها ولا من الزوج وحده ولا من الصديقة التي خانت فقتلت نفسها ولا من الأسرة التي فرقها الموت أو جمعتها الشيخوخة والأسى بل هي طيبة الجو كله، وإن برزت فيه الخيانة كما تبرز الشياطين في حظيرة الملائكة العلويين

وهي طيبة العلاقات والأواصر التي تخلق البيئة وتشمل من فيها، فإذا هم كلهم طيبون يريدون ذلك أو لا يريدون فتاة تتزوج بخطيبها الذي اختاره لها أهلها وقد فجعتهم الحرب في أعز الأبناء. ثم تحب هذا الزوج وتخلص له وترزق منه صبياً يؤكد هذا الحب بينهما، ثم تساق إلى الأسرة صديقةٌ فجعت في قرينها فيلقاها الزوجان بالحفاوة والمودة والمؤاساة، ثم تنشأ بين الصديقة والزوج علاقة لم يحسبا لها حساباً، وكان ينبغي أن

يحسبا لها بعض الحساب، فتهرب الصديقة من خطر الخيانة إلى مكان بعيد، وتعالج المقاومة ما استطاعت حتى تعجز عنها وعن الصبر فتعود، ولكنها لا تطيق مقام الخيانة بين الزوجين فتحتال هي وعاشقها على اللقاء في مزار معهود. ويكبر على ضمير الرجل إثم الخيانة فيسوغه بالفلسفة التي يراها خيراً له من مصارحة نفسه بخيانة زوجة تخلص له ولا تفكر في غير الإخلاص ولو على سبيل القصاص. أما الفلسفة التي أهتدي إليها، فهي القول بتعدد الزوجات واستطاعة القلب أن يوفق بين حب اثنتين في كثير من الأوقات، أو كما قال الدفتر الذي تكتبه الزوجة لنفسها ونعلم منه وقائع القصة مروية بلسانها حيث تقول: (. . . كما نسمر في بيتنا كما تعودنا أن نفعل مع جماعة من الأصدقاء الذين تعرفينهم، وكنا نتجاذب الحوار في موضوعات مختلفة كما تعودنا أن نفعل، فانتهينا إلى الحب وانتهينا إلى الوفاء، وأفضنا في ذلك حتى عرض مكسيم لعادة تقرها بعض الجماعات المتحضرة: عادة تعدد الزوجات، وإذا مكسيم يدافع عن هذه العادة دفاعاً حاراً ويذود عنها ذياداً عنيفاُ، وأنا أسمع ذلك ضاحكة منه أول الأمر، ثم منكرة للغلو فيه، ثم دهشة لهذه الحماسة التي يظهرها مكسيم، ثم منتبهة لما كان يرد به فيليب من ألفاظ لا تخلو من تلميح وتعريض، ثم نتفرق وقد وقر في نفسي من هذا الحوار شيء لم يخل من تنغيص لما كان بيني وبين مكسيم من صفو. . .)

هرب الرجل من ألم الضمير إلى الفلسفة كما يفعل الرجال في معظم الأحوال.

أما المرأة، فقد هربت من ألم القلب إلى ملاذ آخر لعله أهون عليها من فلسفة الرجال، وهو الموت!

نعلم ذلك من الأسطر الأربعة التي هي كل ما نبأنا بها المؤلف بلسانه بعد ختام الدفتر على نحو من الاقتضاب كأنما هو اقتضاب القطع بالسكين. . . (وأصبح الناس ذات يوم وقد قرءوا في صحف الإقليم نعي سيدتين أهدت كل واحدة منهما نفسها إلى الموت، وجعل الناس في المدينة إذا لقي بعضهم بعضاً يلمون بهذا النبأ ويقول بعضهم لبعض: يا عجباً! كأنما كانت على ميعاد!)

هنا مظهر الطيبة القوية كلها أو مظهر القوة الطيبة كلها فهنا صدمة طاغية تودي بحياتين ويوشك أن تودي بثالثة، أو هي قد أودت فعلاً بما هو مساك تلك الحياة وهو الاطمئنان وسكينة الضمير

تمت هذه الخاتمة القاصمة دون أن تنفرج الشفاه بكلمة واحدة تبعثر آلام الصدور في آذان من يعنيهم الأمر ومن لا يعنيهم من الفضوليين ولو كانت طيبة سخيفة لاستنفدت نفسها في اللجاجة والثرثرة والقال والقيل في غير طائل ولو كانت قوة تخلو من الطيبة لما خلت من الإجرام والفضيحة والتنغيص الذي لا يطاق ولكنها الطيبة التي قلنا إنها تعرف كيف تستسلم وكيف تجمح، وتعرف كيف تحب وكيف تموت. ومن عجائب الدنيا أنه لا يعرف كيف يحب وكيف يموت إلا من هو أحق الناس بالحياة

والسؤال الذي يخيل إلى أنني سامعه من كل لسان في هذا الموقف هو: أفي العالم اليوم مثل هذا الحب! وإن كان في العالم أفي أوربا؟ وإن كان في أوربا أفي الديار الفرنسية؟

وهنا الكشف الذي يستحق أن تكتب من أجله الروايات والمصنفات، لا الرواية الواحدة ولا المصنف الواحد فحب النزوات ما استغرق قط نفوس بني الإنسان في هذا الزمان ولا في غير هذه النزوات وفرنسا ليست ببدع في ذلك بين أمم العالم الحديث. فليست فرنسا كلها باريس ولا باريس كلها بأحياء السهر والمجون، بل هناك فرنسا أخرى كتب عنها العارفون واختبرها الناقدون الملهمون الذين لا يكذبون، وبسطوا للناس من أوصافها ما يأذن بحب كهذا الحب، وجدٍّ كهذا الجد، وطيبة كهذه الطيبة، وكرامة كهذه الكرامة، وإن كثرت من فوقها الفقاقيع التي تحجب القاع، وتخدع فيه الأبصار والأسماع

وضمان هذه الحقيقة أن القلب الإنساني حيث كان يفقد قابلية العيش إذا هو فقد قابلية الحب الذي يعز عليه أن يضيع، والذي يؤثر أن يضيع الحياة ولا يضيعه وهو باق بعده بين الأحياء إذا فني من قلب الإنسان في أرجاء الدنيا هذا المعين المقدس فهي الدنيا الفانية أو هي الأسطورة التي يستحمقها الخيال قبل أن تستحمقها العقول

وهذا هو الكشف الذي من أجله وحده تستحق رواية (الحب الضائع) أن تقرأ وتحفظ، وفيها غير ذلك ما تستحق من أجله القراءة والحفظ والتأمل الطويل

وقد اشتمل غلاف الرواية على توابع أخرى من القصص الصغار التي تنتهي الواحدة منها في بضع صفحات، تختلف في نمط التأليف وفي سرد الحادث وصور الأبطال، ولكنها تتفق في مزية واحدة تحمد للمؤلف الكبير، وهي مزية الجد في تصوير العاطفة التي هانت على ألسنة الناس وعلى نفوسهم في مجالس أهل الفضول. فليس الحب الذي تحكيه هذه القصص الصغار نزوة جسد، ولا مشغلة فراغ ولا لعبة عازلين، ولكنه كما يجمل بالإنسان كأس تصلح أن يملأها الموت كما تصلح أن تملأها الحياة، وتغترف من معين كامن فيما وراء الطبيعة كما تغترف من معين يسطع عليه نور الشمس وتخفق عليه نسمات الفضاء.

أعجلني السفر - وابتغاء القرار بعد السفر - أن أكتب إلى الرسالة في موعد كتابتي إليها. وقد فاتني أن أكتب إليها، ولم يفتني أن أذكرها؛ فليس بيدي ذلك وكل من لقيت مذكري بها، حتى في وعثاء الطريق.

برح القطار القاهرة، فلم يمض غير قليل حتى أثار علينا من العثير ما يملأ الخياشيم ويوشك أن يملأ الصدور؛ ووجدتني مرة أخرى في حياتي أوازن بين منفذ مفتوح وغبار ثائر، وبين منافذ مغلقة وجو رائق. ولا صعوبة في الموازنة إذا كان الجو الذي يثور فيه الغبار جو تفكير وشعور وارتياء، فالغبار الثائر هنا أرحم وأدنى إلى الاختيار.

ولا صعوبة في الموازنة كذلك إذا كان الجو الذي يثور فيه الغبار جو خياشيم وصدور؛ فالجو الرائق هنا هو الأرحم والأدنى إلى الاختيار، وإن ضاقت الصدور بالحر والحرج؛ فضيق الصدور في الواقع أهون من ضيق الصدور في المجاز.

أغلقت النافذة واسترسلت في نسق من هذا التفكير أدرى كيف بدأ ولا أدري كيف أنتهى، لأنني ختمته في عالم الأحلام، ونمت والضجة من حولي وقد كان النوم عصياً ومن حولي السكينة والقرار.

ثم مضى القطار لا أسأله أين مضى ولا يسألني أين مضيت؛ حتى أشرقت الشمس على معالم الإقليم القنائي الذي يصح أن أعيد فيه ما قاله أبن الرومي:

فـــــإذا تمثـــــل فـــــي الضـــــمير رأيتـــــه

وعليــــــه أغصــــــان الشــــــباب تميــــــد

لأنني قضيت فيه أوائل عهدي بالخدمة الحكومية، ولبثت فيه زمناً أنتظر التثبيت فيحول بيني وبينه عيب واحد يا له من عيب! وهو أنني دون الثامنة عشرة بسنتين.

وأطلت أنظر الثامنة عشرة التي انتظرتها هنالك فترة من تينك السنتين، وأطلت النظر في مكاني. وحسبني بعض الرفقاء في القطار: هل من خدمة؟ ثم أسرع قائلاً: لا تؤاخذني

أن أتطفل عليك بالسؤال فإنني لست بمتطفل في الحقيقة! لأنني أعرفك منذ عهد بعيد: ألست فلاناً؟ إنني ليسرني يا سيدي أن أؤدي لك بعض الخدمة التي أستطيعها، فهي دَينٌ لك علينا أجمعين.

قلت: يخيل إلي أنني أنا أيضاً أعرفك. ألست من برقة؟

قلت ذلك لأنني علمت أن في القطار نخبة من سراة برقة وأدبائها، وعرفت بلده من لهجته التي يسهر تمييزها بين لهجات مغربية عديدة لطول ما تحدثت إلى أبنائها في الصحراء.

فقال: نعم!

وبدأ الحديث في الأدب

وعطف بعد هنيهات إلى الرسالة وموضوعاتها وكتابها، فإذا صاحبي ملم بأدب مصر في هذا العصر إلماماً يندر بين شبان من المصريين. ولحق به أصحاب من قومه يكبرونه سناً ويشبهونه كياسة وأدباً، فإذا هم ملمون بشئون مصر العامة أحسن إلمام يتاح لغريب عنها، وإن كان اهتمامهم بالقادة والرؤساء أوفر من اهتمامهم بالكتاب والشعراء.

وإذا في برقة وطرابلس أحزاب لأدباء مصر وأحزاب لقادتها السياسيين، ومساجلات وفكاهات لا نسمع بمثلها في مصر، وهي أحق شيء أن نستمع إليه.

ولم أشأ أن يكون الحديث كله عن مصر وأدبائها، فسألته عن برقة وأدبائها، وما فيها من شعائر الحركة الأدبية، ولا سيما بعد احتلالها.

فراعني أن أسمع شعراً حسناً ينضج بالشاعرية المطبوعة، ويجري في صيغة عربية سائغة، وما سمعت بأسماء قائليه قبل ذاك وإنهم لأولى بالذكر من كثيرين.

أنشدني قصائد شتى لشاعرهم رفيق المهدوي، فاستزدته وقلت له: إنكم لعلى حق أن تفخروا به وأن تذكروه باسم (شاعرنا) كلما ذكرتموه، فرب قصيدة من هذه القصائد التي سمعتها هي أنفع في التعريف بكم والإصغاء إلى قضيتكم من دعاية الساسة الذين يجهلون الدعوة ولا يوجهونها إلى أحسن الأسماع وأصدق القلوب.

ومما أنشدنيه له قصيدة على وزن جديد يقرب من الوزن الذي اختاره الزهاوي لقصيدته:

ويلا يا ويلا! ... ما أقوى السيلا

ليلى سلَّيني ... سليني ليلى!

فقال في وصف الشاعر:

كالنحلة في الروضة تعبث بالنوار

إن رفرف كالواقف أو حوَّم أو طار

لا يقنع بالورد ولا زهر النسرين

فيميل من السرو إلى شجر المرسلين

كالظامئ يتلهف واظَمَأ المسكين!

لم يرو صدى الغلة من نُطفِ الأزهار

ما لاح له زهر إلا وتمناه!

كم صادف ما يحذر من خادع مرآه

(يحذَره حيناً ويعود فيهواه)

قل واهاً للشاعر من واه محتار!

كالنحلة في الروضة تعبث بالنوار

وأنشدني أبياتاً له فيها مداعبة وشكاية، وقد نفي من وطنه وكتب إلى بعض أخواته:

بعـــــد الســـــــلام وتقــــديم احترامــــــاتي

أهــــديك يـــــا ســـــيدي موســـــى تحيـــــاتي

إلى أن يقول:

والله مــــــا باختيـــــــاري أن أفارقــــــــه

لـــــو لـــــم ينغصـــه حكـــم الظـــالم العـــاتي

فارقـــــت مــــوطن آبـــــائي علـــــى مضــــض

مممـــا تجرعـــــت مــــن هـــم ويـــلات

تــــأثرتني عيــــون القـــــوم ترصـــــدني

تحصــــي خطـــاي فتحصـــيها خطيئـــاتي

ومـــا جنيــــت ســـوى إنكـــار منكـــرهم

بمـــــذودي فتغــــالوا فـــي معـــاداتي!

وظل ينشدني للمهدوي وزملائه وأستزيده، لأعرف ليبيا حقاً، وقد عرفتها حقاً، وقلت لأصحابي: إن ليبيا حية وفيها من يعبر عنها هذا التعبير. فاستوصوا بشعرائكم خيراً، فأنهم لأدل عليكم وعلى قضيتكم من جميع ما عرفناه عنكم وعبر القطار بأسوان عاجلاً، فإن كنت قد أطلت النظر عند (قنا) لأرى الثامنة عشرة وما دونها، فقد أطلت النظر إلى أرباض (أسوان) لأرى السادسة والخامسة وما دونهما. . . فرأيت حتى استوفيت.

وتبيت الباخرة على النيل بين الشلال وحلفا ليلتين.

ففي تينك الليلتين كان السمر إلى هزيع من الليل عربياً في كل فن من فنونه، فما أحسب أن أمراً يهم العرب قاطبة قد تركناه في سمرنا فلم نعرج عليه ولم نطل الوقوف عنده.

ولم يرعنا مما ينغصنا إلا صوت طفل صغير من الليبيين يتكلم الإيطالية، لأنهم فرضوها على الصغار وأبعدوا ما بينهم وبين التمكن من العربية بمسافات وآفاق.

فعدنا إلى حياة اللغة العربية، وإلى مهمة أدباء العرب وصحافة العرب، ولا سيما الصحافة الأدبية.

ثم وصلنا إلى ما قبل حلفا وانتظرنا في الباخرة إنجاز مراسم الدخول والحيطة الصحية. فإني لأنظر من باب المقصورة إلى النيل إذ أقبل نفر من الفتيان الذين يلوح عليهم أنهم طلبة وموظفون. فسألوني: أأنت فلان؟ قلت: نعم. كيف عرفتم؟ فابتسموا وقالوا: لا تؤاخذنا إن قلنا من صور المجلات، ولا سيما الفكاهية!

قلت: يا أصحابي إن هذا لا يرضيني أو لا (يملقني) كما يقول الأوربيون. . . أو ترون الشبه قريباً بيني وبين تلك الصور إلى هذا الحد؟ قال قائل من الواقفين حولنا ليرضيني أو يملقني على حسب ذلك التعبير: بل هي مبالغة الرسامين في بعض معارف وجهك المميزة لك قد دلتهم عليك.

وما هو إلا أن فرغنا من شأن الباخرة وانتقلنا لقضاء الليل في مركبة القطار حتى كان أول حديث طرقه هؤلاء الفتيان ومن صحبهم بعد ذلك حديث الرسالة وآخر المساجلات الأدبية فيها. وبدأ لي في الخرطوم كذلك أن هذه المساجلات تعقد حولها حلقات مختلفات من المتشيعين لهذا الفريق أو لذاك، وبدا لي منذ أول الطريق أن أدباء ليبيا والأقطار العربية والسودان يأخذون علينا أنهم يعرفوننا ولا نعرفهم، ويتتبعون أخبارنا ولا نتتبع أخبارهم، وأن الأديب منهم يستطيع أن يحدثنا عن جميع كتابنا وشعرائنا ولا يستطيع أحد منا أن يحدثهم عن كتابهم وشعرائهم، وإن كانوا جدراء بالحديث.

وهذا كله صحيح ولكن السبب الذي يردونه إليه غير صحيح؛ فالمصريون لا يفوتهم ما يفوتهم من أدب ليبيا والأقطار العربية والسودان لأن اهتمامهم بالعرب أقل من اهتمام العرب بمصر، كلا وأقولها عن يقين، وإنما يفوتهم ما فاتهم لأن صحف مصر تصل إلى كل مكان في بلاد العربية، ولا يصل إلى مصر من صحف تلك البلاد إلا القليل. ويخطر لي في هذا الصدد أن صديقنا الأستاذ الزيات قد فكر في تخصيص أعداد لكل أمة من أمم الضاد يحيط فيها بشئون تلك الأمة أدباً وثقافة ومرافق أخرى؛ فإذا مضى في تحقيق تلك الفكرة فقد أتم سفارة الرسالة فأصبحت لها السفارة المزدوجة بين مصر وجاراتها وأخواتها، فتسفر للمصريين عندهم، وتسفر لهم عند المصريين، وتعمل في وحدة العرب ما لا يرجى أن تعمله السياسة، لأنها تفرق ولا تؤلف، وتلتوي ولا تستقيم.

هذا بعض حديث تلك (السفارة) في رحلة عاجلة بين القاهرة والخرطوم. ولو شئت لطال وطال، لأنه حديث موصول يتجدد كل أسبوع، بل كل يوم اجتمع فيه ندى من القراء والأدباء، وهم يجتمعون هنا عامة الأيام.

لكني أختمه الآن بما لا يخرج عنه من مساجلات الرسالة أيضاً؛ فقد سئلت هنا رأيي في مناقشات بعضهم لي حول رسالة الغفران وصداقات الأدباء.

فأما رسالة الغفران والشبه في محاوراتها بين ما كتبه أبو العلاء وكتبه لوسيان فلست أنوي أن أعود إليه وقد أغناني عن العودة إليه ما كتبه الأديب الجبلاوي حين سأل المعترض أن يذكر أحداً غير لوسيان تقدم المعري بذلك الحوار. أما رحلات الجنة والنار فنحن قبل عشرين سنة قد ذكرنا وأكدنا إنها ليست بالشيء الجديد.

وأما صداقات الأدباء فالمناقشات فيها أعجب وأطرب! نحن نأخذ على الأستاذ الحكيم أن يضرب لنا المثل بصداقات الأدباء في أوربا لأنها لا تخلو من العلات، فيجيئنا من يعترض فلا يكون اعتراضه إلا تكريراً لما قلناه، وهو أن صداقات الأدباء الأوربيين ليست على المثال الذي تصوره الأستاذ الحكيم!

وأعجب من هذا وأطرب أن نشير إلى صداقات الأدباء في إنجلترا ونذكر بيرون وشيلي فيكون الاعتراض أنهما لم يتقابلا في إنجلترا بل تقابلا في إيطاليا. . . فهما إذاً قد أصبحا من أدباء الأمة الإيطالية وخرجا من عداد الأدباء في الأمة الإنجليزية!

مثل هذا المحال لا نرد عليه، ولا ننوي بعد اليوم أن نرد عليه. وحسبنا أننا لم نلق من قارئ هنا إلا وقد رد على ذلك الاعتراض بالإعراض.

الخرطوم

أمسينا في جو مفعم بالزجر والعيافة، مغلف بالأحاجي والأسرار: يتكلم المتكلم فإذا هو عائف أو زاجر من حيث يريد ولا يريد، وإذا هو معرض عما بين يديه وتحت عينيه لينظر إلى عالم الغيب ويستعجل العلم بغده المحجوب، وبالذي يجري في ساعته تلك على مدى الألوف من الأميال

وحق للناظر تلك الليلة أن يعرض عما بين يديه وتحت عينيه! فماذا كان في الحق بين يديه وتحت عينيه؟

منظر واحد يتكرر ثم يتكرر ثم يتكرر في غير تبديل!

هضاب ورمال، ثم هضاب ورمال، ثم هضاب ورمال. . . ثم نيل ينتظمها ويجري في خلالها، ليزيد التشابه بينها ولا يزيدها شيئاً من التبديل أو التنويع فإذا طالت نظرة العين إلى تلك المتشابهات فهي كالعين المنوَّمة التي حدجت بالنظر شيئاً واحداً حتى غاب عنها وغابت عنه، فاستسلمت لما يوحي إليها من الأنباء، وما يكشف لها من الأسرار هنالك علمنا منشأ الزجر والعيافة من قديم. فلا يزجر الزاجر ولا يعيف العائف إلا وبه نقص من حظ العيان، وحاجة إلى العلم بالفهم والسماع وكنا في مثل تلك الحاجة ليلة الزجر والعيافة فتركنا معركة العلمين ناشبة في بدايتها ونحن لا نسمع كثيراً ولا قليلاً عنها، وانقضى الليل وطرف من النهار ولا خبر ولا رواية، ولا إشاعة كتلك الإشاعات التي يخترعها المرجفون ولها صبغة من الخبر والرواية وما معركة العلمين في تلك الليلة وفي كل ليلة تأتي بعدها إلى أقاصي التاريخ؟

هي معركةٌ سماها القدر ولم يسمها الجيشان ولا صحف الأنباء أو مطلقو الأسماء على معارك القتال هي معركة علمين اثنين تتلخص فيهما جميع الأعلام التي تظل المتقاتلين اليوم في كل ميدان علم الحرية وعلم الطغيان!

علم الدفاع وعلم الفتوح والغارات وأي العلمين ارتفع في تلك المعركة ففيه مصير عالمين وخافقين ومشرقين، وفيه ابتداء زمان وانتهاء زمان وتلك تلك المعركة التي

انقطعنا عن أخبارها ليلة وطرفاً من نهار. ثم بلغنا الشلال، فعلمنا أننا سنقضي في الباخرة نيفاً وأربعين ساعة، لا نحن بالعالم متصلون، ولا العالم بنا متصل، حتى تستأنف الصلة به عند تخوم السودان

نيف وأربعون ساعة بغير أخبار!

وفي الباخرة مع ذلك طائفة من رجال الصحافة ورجال الأعمال تعودوا عشرين سنة على الأقل ألا تنقضي عليهم أربعون دقيقة بغير خبر جديد، عن أمور بالغ ما بلغ شأنها فهي من سفساف الحديث إلى جانب الحديث عن العلمين فمن لم يتعلم الزجر والعيافة في تلك الليالي المحجبات فما هو متعلم، وقد تعلمناهما فأحسنَّا العلم بهما من درس واحد لم تسبقه دروس..

أقبل الليل فألقت الباخرة مراسيها عند الشاطئ إلى الصباح.

وخرجنا من المقاصير نتنسم الهواء جادين ونتنسم الأخبار متفكهين، وذهب كل منا يسأل صاحبه مازحاً: ما أحدث أنباء المساء؟ فيجيبه: أي مساء؟ الجمعة أو الخميس أو الأربعاء فكل أخبار هذه الأيام سواء

وإنّا لكذلك إذ انحدر أمامنا مركب سريع موقر بالأبقار السمان...

فصاح صائح: بشارة خير!

وصاح ثان: نعم، وأي خبر! فهي أبقار لا تذهب إلى مصر لتموين الأستاذ روميل وأصحابه بطبيعة الحال!.. ولا تصل إلى القاهرة قبل ثلاثة أيام.

وانطلقت الفكاهة والجد أي منطلق في ذيول هذه العجماوات؛ فمن قائل: إنها تكلمت وسكت الناس؛ ومن قائل: إن بقرات يوسف عليه السلام كانت سبعاً وكانت في المنام، وهذه سبعون وفوق السبعين تراها في اليقظة رأى العين. أحسن البشارة وما أصدق التعبير!

وكان صاحب القدح المعلى في تلك العيافات والتعبيرات طبيباً لوذعياً يسخر من الخرافات فقلنا: وقد تمت المعجزة بحمد الله، واصطلح الطب والسحر لحظة في هذه الليلة بفضل الجهل بالأنباء.. وللجهل فضله الذي لا ينكر في بعض الأحايين

ثم توالت الأنباء من هذا الطراز: كل مركب منحدر يعبر عن شئ كثير، بغير سؤال وجواب، وبغير اعتساف في التأويل والتعبير

وأسفرت ليلة الزجر والعيافة عن صباح مشرق كأوضح ما يكون صباح وتشرق شمس في سماء ونظرنا. . . فماذا رأينا؟

عجيبة من عجائب التوفيقات: فقد رأينا على الشاطئ قبالتنا هيكل الصباح المشهور بين الهياكل المصرية، ورأيناه في اللحظة التي بُني لها، وأعدت محاريبه للقائها والامتلاء بشعاعها وضيائها: وهي لحظة الشروق هذه مطالع هاتور هذه محاريب أبي سمبل، وهذه تماثيلها الأربعة الفخام لا تسأم النظر إلى الدنيا في مجلسها، ولا تسأم الدنيا من النظر إليها وهذا هو الوادي الذي قدسوه قبل ثلاثة آلاف سنة، وجعلوه حرماً لربته هاتور، ولأرباب كثيرين فهي إذن ظلال الهيكل الساحر التي شملتنا في جو الزجر والعيافة منذ ألممنا بواديها ونحن لا ندري وهي إذن بقية من كهانات سبقت جميع الكهانات، وأخذ منها الوادي أو هي قد أخذت من الوادي بنصيب وكان تمام التوفيق أن نبيت الليل في جوارها ثم لا نطلع عليها إلا مع طلوع الصباح، وقد فضت له مغالقها وكشفت له محاريبها، وعانقته هنيهة عابرة في لجة من النور وعبرنا صامتين

وأنصتنا وأطلنا الإنصات، لأننا نختلس السمع من وراء ثلاثة آلاف عام. وماذا يمنعنا أن ننصت فنسمع؟. . . ثلاثة آلاف عام لا تنأى بنا عن السمع في ذلك السكوت كانوا يقولون في تلك اللحظة من وراء الجدران الضخام، ومن وراء جدران أضخم منها وأفخم، وهي جدران الدهور:

(أتيت أيها البصر الهادئ وتمزقت الظلمات ورجعت الأشباح إلى ظلماتها، واهتزت الأرض بالبشائر، وافترت الثغور!

(تحيات يا رائد السماء، إنّا لك خاشعون

(وإن الحياة لتبتسم بك يا كريم. وإن الماء ليتنفس بك يا واهب الأنفاس، وإن الزهرة لبك تزهر، وإن الوردة لبك تعطر، وإنها لتحيات إليك يا رائد السماء، وإنا لك لخاشعون!

(صورت نفسك فما لك مصور، وكذلك صورت في ملكك أول نهار، وخلقت نفس الصباح، ونفس الإنسان، وكل ما نماه عالم الإنسان

(حجبت سرك في النور الأعظم فلا يستشفه بصر مبصر، وإنا لنحييك يا رائد السماء، وإنا لك في سرك لخاشعون!

(يأيها الوليد القديم لكل نهار جديد، نستقبلك فنرقص فرحاً في كرامتك، ونحنو لك خاشعين!)

كانوا ينشدون هذا النشيد من وراء الجدران كانوا ينشدونه بكل لسان، ويرسلونه إلى كل سمع، فلا يضيرهم أن يخذلهم لسان واحد في تلك اللحظة، وهو اللسان الذي لا يقول بعد الموت، ولا يخترق حجاب القبور إيه أيتها التماثيل الضخام! فيم تتحدثين في تلك الجلسة وقد طالت بك آلاف السنين؟

كم قلت؟ وكم لم تقولي؟! وكم رأيت وكأنك ما رأيت؟ وكم غمرتك الرمال وأنت لا تحفلين، وغمرتك الأنوار وأنت لا تحفلين، وغمرتك الأنظار المستطلعات وأنت لا تحفلين... فيم احتفالك! وفيم صبرك وانتظارك؟ وإلام تجلسين؟ إلام إلام تجلسين؟!

قلت لأصحابي: هذه جلسة تاريخية ليس لها قرار، لأنها كلها قرار!

قال قائل منهم: طوبى لها قرارها! وطوبى لها هذه الجلسة التي اطمأنت إليها: لا حروب ولا أشجان، ولا أهواء ولا أضغان، ولا اكتراث للإنسان ولا لعالم الإنسان

قلت: على رسلك يا صاح. . . لو استطاعت أن تبتسم لكلامك لامتلأت أفواهها بالابتسام، ثم جلجلت بالضحك حتى ارتجت لها الهضاب والآكام.

أهذه التماثيل الضخام بمعزل عن الحروب والأشجان، وعن الأهواء والأضغان، وعن الاكتراث للإنسان وعالم الإنسان؟

هي حديث حرب، وهي حديث حب، وهي حديث شجن، وهي حديث إنسان يتكلم من وراء الزمن إلى إنسان

وخطوة واحدة وراءها تريك رمسيس في مركبة الحرب يقلب الصفوف على الصفوف، ويرسل الحتوف وراء الحتوف، ويفخر بالنجاة وهو مارق من بين ألوف وخطوة أخرى

وراءها تريك الفاتنة (نفرتاري) وهي كالغصن الريان بهواه وهوى عاشقيه وخطوة أخرى وراءها تريك المطامع والأهواء؛ تلعب بالكهان والرؤساء، وتزدلف إلى السطوة والثراء، وتنطق بالهجر والمراء كلا. يا صاح! هي الحرب في هذا المكان والحرب في كل مكان، وهي الأهواء الآن والأهواء في كل آن، وهي الصخور الصلاب تسكت سكوتها فتسمع منها لجب الفرسان، ونجوى الحسان، وسعاية الأقران والأعوان هي حرب ينبئنا بها حجر، وحرب ينبئنا بها بقر، وحرب ينبئنا بها كل قائل وأعجم، ولا يعوزه ترجمان

وما كَررَي؟

شئ من الشرق أو من الغرب، ويشار إليه بضمير المذكر أو ضمير المؤنث، وقديم هو أم حديث؟ كثير من الناس لا يعلمون! وكان ينبغي أن يعلموا ولو بعض العلم، لأنه شئ متصل بما نحن فيه، وبما العالم كله فيه، ولو بعض الاتصال

اسم كَررَي متصل بتاريخ مصر والسودان في العصر الحديث.

ومما لا شك فيه أنه على اتصال بالحرب العالمية الحاضرة في جملة أسبابها البعيدة التي توارت الآن وراء أسبابها القريبة. فإن كانت للحرب العالمية الحاضرة، وللحرب العالمية التي قبلها أسبابٌ لها سنوات، فاسم كَررَي لا ينفصل من أسبابها الأولى أقل انفصال؛ لأن علاقته بالأطوار الأوربية أواخر القرن الماضي كأوثق علاقة تكون.

كَررَي كان له شأن في تحول المآرب الاستعمارية عند كثير من الدول التي أثارت الحرب العالمية الماضية، وعادت فأثارت الحرب العالمية الحاضرة

كان له شأن في سياسة (بين القاهرة ورأس الرجاء)، أو (بين القاهرة والكاب)

وكان له شأن في اندفاع الألمان إلى القارة الأفريقية، وفي موقف فرنسا من مراكش وأفريقية الشمالية، وفي ظهور إيطاليا على شواطئ البحر الأبيض بعد شواطئ البحر الأحمر، ثم فيما تلا ذلك في تجدد الأحلام بالدولة الرومانية ومتى اتصل شأن كَررَي بهذا، فقد اتصل بجميع ما يخوض فيه العالم اليوم، وكان له من قبل ذلك اتصال بمصر والسودان.

كرري هو الوادي الذي انهزمت عنده جيوش الخليفة عبد الله، ودخل وادي النيل من جرائه في تاريخ جديد، ولك أن تقول: بل هو العالم كله قد دخل من جرائه في طور جديد.

وقفتُ على ساحة (كرري) في مثل الوقت الذي جرت فيه وقعته الفاصلة

كانت زيارتي للوادي في أوائل أغسطس، وكانت الوقعة في أوائل سبتمبر، قبل أربع وأربعين سنة فالمنظر الذي رأيته هو منظر الوادي يوم الوقعة بغير كبير اختلاف: هو النهار الضاحي، وهي السحب التي تبشر وتنذر: تبشر بالمطر وتنذر بالصواعق، وكانت وما يبالي بها أحد صبيحة يومه المشهود، لأنهم كانوا يرجون ما هو أرجى من المطر، ويرهبون ما هو أرهب من الصواعق، ويستقبلون مشرقاً يعرفون ما يستقبلهم من مغربه إذا انتصروا، وما يستقبلهم منه إذا انهزموا: مجد أو موت، والفاصل بينهم وبين واحد منها بضع ساعات وكم تصنع بضع ساعات في تواريخ الأمم؟

هناك التلال المتجهمات للشمس، أعلاها لا يعلو فوق مائة متر في الفضاء

وهناك الحجارة والحصباء، أحدث أخبارها التي تتحدث بها إليك غضبة بركان قديم!

وهناك الأخدود الذي كانوا يتوارون فيه من المستطلعين فيواريهم ويخفي آثارهم، لأن مطية الهواء لم تكن في ذلك العهد مما يكشف ذلك الخلاء، ولا أي خلاء

وهناك السكون ثم السكون ثم السكون. سكون اليوم، وسكون أمس، وسكون عام مضى، وسكون أعوام، ما عدا ذلك اليوم في ذلك العام

ولو أنك سألت (كرري) ماذا صنعت يا كرري؟ أو ماذا صُنع فيك؟ فيم تراه يجيب؟

أكبر الظن أنه يستعيدك السؤال مرات! ماذا صنعت؟ ماذا صنعت؟ لا أدري!

- لا بل صنعت كثيراً (يا كرري)... أفلا تذكر؟ ألم يبق في ذكراك غير هذا السكون؟ ثم هذا السكون، ثم هذا السكون؟

- غضبة بركان قديم لم يغضب منذ آلاف السنين؟ أتسألني عن هذا وتلك آثاره تنبئك بغير سؤال؟

- لا. بل غضبة بركان أقرب من ذاك جداً إلى ذاكرة من يذكر، ولا أثر له فيك يغني عن سؤال! ألا تعرفه؟ ألا تعرف تلك الحمم؟ ألا تعرف تلك النيران؟

- تلك براكينكم يا صاح تسألون عنها أنفسكم وتصلون منها بحممكم ونيرانكم، وتحتفظون بآثارها وآثاركم، وتسمونها الأسماء، وإن هي إلا هواء يعبر بي كهذا الهواء وكرري لا يقول غير هذا لسائله، إذا قال.

لكن (كرري) جماد مسكين لا يعلم إلا ما يعلمه الجماد المسكين، ولم يدخل قط في علم الجماد المسكين أن براكينه صرخة في فضاء ما لم يتصل بهذا المخلوق الضئيل الذي هو نحن الآدميين! وأين غضبة ذلك البركان الذي تنبئنا به حجارة كرري من براكين هذه الأيام؟ وأين هو من معقبات ذلك اليوم الذي تقدم قبل أربعة وأربعين عاماً في خلاء أم درمان؟

ذلك بركان غضب ولم يعرف كيف يغضب. ذلك بركان حليم جد حليم. ذلك بركان يعرف نار الأرض ويعرف نار الصاعقة ولا يعرف النار التي يجمعها الإنسان في أوعية صغار، كل وعاء منها كأنه جبل من نار!

أو هو قد عرفها فمرت به كما يمر كل شئ بالجماد، وبالإنسان الذي فيه قرابة من الجماد وغمضة العين هنا هي أولى بالنظر من فتحها في سطعة هذا الضياء، فلن ترى إن فتحت عينك في الوادي إلا يومك الذي أنت فيه، وقد تغمضها فترى أعواماً وراء أعوام وكأني رأيت الوادي يموج بالعمائم البيض والطرابيش الحمر والقبعات الصفر والوجوه التي فيها من اختلاف الألوان كل ما في العمائم والطرابيش والقبعات وكأني رأيت النصر يدور بين المعسكرين، فلا يدنو حتى يبتعد ولا يبتعد حتى يدنو، ولا يزال بين إقبال وأدبار، وبين طلوع وأفول في سحابة نهار

لقد كان في الميدان جيشان من الماضي والحاضر، ولم يكن به جيشان من عصر واحد. فحكم الزمن بمصير المعركة قبل أن يلتقي الجيشان كانت الحضارة والمدفع الرشاش والأسطول الصغير في أحد الجانبين وكانت البداوة في الجانب الذي يناضله، وليس معها من سلاح غير الحراب أو راميات بالنار تشبه الحراب، وكل أولئك من عمل الحضارة نفسها في أوان فات

وقيل إن السيف الذي شهره المهدي كان سيفاً لبعض الفرسان التيوتون[1] في الحروب الصليبية عليه طابع شارل الخامس ثم انتقل إلى سلاطين دارفور، وهو تاريخ فيه من الحق أكثر مما فيه من الأساطير

---

[1] طائفة عسكرية دينية ألمانية.

فهذا السيف كان رمز القوة التي أعتز بها الخليفة عبد الله، فلم يزد عليه من العصر الحديث ما هو أقوى منه بكثير، إلى جانب المدفع الرشاش

لقد حارب بعد زمانه بسبعمائة عام، فأحرى ألا يصيب في غده ما لم يصيب في أمسه، وهو إذ ذاك أمضى سلاح وأما الشجاعة فلا شجاعة فوقها، يتمناها لجيشه كل قائد في كل قتال وأما النظام فيخطئ من يحسبه لغواً في جيش الدراويش لأنهم كانوا على نظام في الحركة لا يخرج من زمام القيادة، وإن كانت القيادة نفسها مضللة الزمام وأما الحيلة فهي ليست في ذلك الجيش بالقليلة، بل لعلها كانت وشيكة أن تفلح في يومها، لو لم يتأخر الموعد ببعض القادة عن الهجوم في حين الحاجة إليه إنما كانت الغلبة لزمن على زمن، ولغد على أمس، وكل معركة فيها الغد والأمس قرنان متصاولان[1] فالغد صاحب الغلبة فيها لا مراء وكنت أقرأ عن حروب عمر بن الخطاب وأنا أطوف بين بيت الخليفة وكرري وأذكر هذا الصراع إلى جانب ذلك الصراع أكان القدر هو الذي ساقني في تلك الفترة إلى كرري، أم هو الذهن يشتغل بالشيء في حين من الأحيان فيرد كل ما يراه وكل ما يسمع به إليه؟

ليكن هذا أو ذاك. فقد علمت شيئاً من (كرري) وأنا أنظر في حروب الفاروق مع دولتي الفرس والروم، ولم أكن لأجمع بين العبرتين لولا أن وقفت بكرري وعرضت فتوح عمر وأنا واقف هناك

إن العقيدة لتظفر بما تريد وهي مع الغد على وفاق، ولا تظفر بشيء ذي بال وهي مع الغد على عداء ولم تكن العقيدة ناقصة في جيش الخليفة عبد الله، بل كان له حظ منها كأوفى الحظوظ، وكان الرجل من الدراويش يهجم على النار بغير سلاح ولا يبالي الموت، فقصارى جزائه من هذه الشجاعة كان أن يموت وكانت العقيدة زاد المسلمين في جيوش عمر فشجعوا وظفروا وعاشت عقيدتهم بعد من ماتوا، لأنها كانت عقيدة يحارب معها الغد وتجري في طريق التقدم، فلا تتصارع العقيدة والغد إلا كان النصر للغد على العقيدة، ولا يتفقان ويغلبهما غالب كائناً ما كان حظه من الجند والسلاح.

---

[1] تصاول اللاَّعبان تواثبا وتنافسا

عجب صديقنا الأستاذ الزيات لابن آدم (المخلوق الوحيد الذي يرى الشيء الواحد بعينيه الاثنتين أبيض تارة وأسود أخرى على حسب الصبغ الذي يلونه به الهوى)
وضرب لذلك أمثلة شتى، منها أن راديو باري أذاع منذ ليلتين أن فريقاً من الطلاب الهنود تظاهروا في بمباي فأعترضهم فئة من الشرط الإنجليز فتفرقوا في شوارع المدينة أباديد بعد أن أصيب نفر منهم بجروح. ثم عقب المذيع على هذا الخبر بأن الاعتداء على المتظاهرين بالضرب ينافي المدنية، ويجافي الخلق، ويصم الذين ارتكبوه بالقسوة الوحشية والبربرية الأثيمة. ثم أعلن المذيع في هذه الإذاعة نفسها أن مليوناً من جنود المحور قد اقتحموا بالدبابات الثقيلة والطيارات المنقضة والسيارات المدرعة منازل ستالينجراد على الروس وفيهم النساء والأطفال والشيوخ والمرضى، فدكوا كل بناء، وسحقوا كل حي، وركموا أشلاء القتلى في الحجرات والطرقات على صورة لم يرها الراءون ولم يروها الراوون. ثم أخذ هذا البوق البشرى يهذي بفضل هذا النصر على المدنية، وينوه بعظيم أثره في مستقبل الإنسانية) وأتى الأستاذ بأمثلة متعددة في هذا المعنى تؤيد شقاء الإنسانية بين العقل والهوى وإنه لشقاء باق لن يزول أبداً، ولن يزال الهوى يرينا الشيء شيئين واللون لونين ما دمنا نحس ونرى، وقد أعيا الهوى كل ذي عقل فلست ترى ... إلا صحيحاً له حالات مجنون
وقد تناوله صديقنا الزيات من هذه الناحية فأبرزه في صور الحياة اليومية التي لا يخطئها من يرقبها فهل هو نقص لا يوازنه جانب كمال؟ وهل هي آفة لا عزاء فيها لبني آدم؟ وهل نغير ما طبعنا عليه من هذه الخليقة بما طبعت عليه سائر المخلوقات من توافق وتشابه حالات؟

مصيبتنا أننا لا نستطيع!

لأن الإنسان لا ينقص إلا من حيث يزيد. فهو يعرف الخطأ لأنه يعرف الصواب، ويختل في هندسته من حيث يتقن تنحل هندسته كل الإتقان، لأنه أعلم بالهندسة من النحل

لا لأنه أجهل منه بفنونها وأنواعها. . . فهو يشتري الخطأ بثمن، لأنه لا يشتري الصواب إلا مخلوطاً به، مضافاً إليه

نحن نرى الشيء أشياء لأننا نرى

أما سائر المخلوقات فهي لا ترى إذ تنظر بعينيها. وإنما الأصح أن يقال إنها تلمس الأشياء بالعين على نحو من اللمس بالأيدي، فلا تقبل عندها التعدد والاختلاف

وهكذا الآدميون الذين يشبهون تلك المخلوقات إنهم يلمسون الأمور بأعينهم كما يلمسونها بأيديهم، ولكنهم لا يرونها متعددة الحالات، متعددة الألوان، متعددة الوقع في الخواطر والأهواء؛ وإن تعددت عندهم قليلاً فهو أقرب تعدد إلى التوحيد

كنت أقول لبعضهم والألمان يدخلون باريس: إنهم سينهزمون

وكنت أقول لبعضهم والألمان يتقدمون الأراضي الروسية: إنهم سينهزمون

فكانوا يقولون: ولكننا نرى أنهم سينتصرون لأنهم منتصرون. . . فأقول لهم: ما هذا برأي. هذا لمس بالعين. هذا ما تبصرونه كما تبصره كل عين حيوانية تفتح أجفانها، وإنما الرأي غير هذا. الرأي ما يبصرك بالانهزام وأنت تنظر إلى النصر الملموس. فإن لم يفدنا الرأي هذه الفائدة فلا خير فيه، ولا حاجة بنا إليه مع وجود العيون والأجفان. إذ حسبنا بالعيون والأجفان أن تفتحها فنلمس بها، ثم لا نفكر ولا نرى خلاف ما تبديه

وهكذا يبصر الإنسان وجوه الرأي لأنه لا يرى الشيء على حالة واحدة ولا يستوفيه كله في صورة حاضرة فهو يبصر الوجوه الرأي في الضرب مثلاً لأنه يحسه لذيذاً في حين ومؤلماً في حين ولا يحسه في بعض الأحايين يحسه لذيذاً حين يكون هو الضارب، ويحسه مؤلماً حين يكون هو المضروب، وليس يحس له لذة ولا ألماً حين لا يكون ضارباً ولا مضروباً ولا شأن له في الحالتين

ومن العسير عليه جداً أن يعرف ما هو الضرب إذا عرفه على وجه واحد، ولم يعرفه على شتى الوجوه

ومن البعيد جداً أن يراه بالحق إن لم يره بالهوى على اختلافه، فيحبه ويبغضه وينظر إليه بين الحب والبغض، و (يراه) بعد ذلك مستجمعاً بجميع هذه الوجوه

وهذا هو باب الكمال في تعدد الأهواء وتعدد الحكم على العمل الواحد إذ نعمله نحن وإذ يعمله الخصوم، وإذ يعمله من ليس من الخصوم ولا من الأصدقاء

وكل صورة من صورة هذه تمام لغيرها، ولا سبيل إلى التمام فيها بغير هذا التعديد

يقولون في الصعيد: إن نواتياً سمع مضغاً قوياً في مخزن الخبز الخاف من سفينته، فأشفق من نفاذ المؤنة في الطريق وصاح مغضباً: من هذا الذي يقضم في الخبز قضم الحمار؟

فقيل له: ابنك حسن!

قال: اسم الله عليه! أهو الذي يقرش هكذا قرش الفوير؟

والرجل قد صدق بعض الصدق فيما سمع من قضم حمار ومن قرش فوير، فإن أكل ابنه من الخبز يسره ولا يؤذيه، وإن انطلاق الغريب عليه يؤذيه ولا يسره. ويبقى أن يسمع المسافر الذي لا يسمع حماراً ولا فويراً، ولكنه يسمع الصوتين على حسب ما عنده من الزاد

وما أعجز الإنسان أن يتبين حقيقته بهذا الصغر وبهذه البساطة ما لم يسمع من جانب مخزن الخبز صوت حمار وصوت فأر وصوت إنسان

هذا نقص في خليقة بني آدم يؤدي إلى تمام وإنما هو نقص دائم إذا وقف حيث هو ولم تجتمع صوره الكثيرة في صورة واحدة هي أدنى إلى الصدق وأبعد من الهوى وأوسط في الرأي بين مختلف الآراء وذلك هو النقص الذي يحبه جماعة من أصحاب المذاهب الاجتماعية ويفرضون دوامه ويحضون على الاقتداء به في فهم التاريخ، ونريد بهم الشيوعيين فهم يجعلون الهوى فرضاً لزاماً في معالجة كل حقيقة من حقائق الحياة ويكتبون التاريخ فيذمون من لا يستحق الذم، ويثنون على من لا يستحق الثناء، لأنهم يستوحون المصلحة الشيوعية، ويعلنون أن الخروج من هوى المصلحة في تقدير الأمور مستحيل فأما أنه مستحيل فلا، لأن الإنسان يعرف الفرق بين صوابه وهواه، وإن أحب هواه وآثره على الصواب فإذا كانت له قوة خلق تصحب المعرفة غلب الهوى بالجمع بين معرفته وقوة خلقه، وأصبحت مصلحته تابعة لما يلزمها من جادة قويمة في

رأيه ولكن الشيوعيين لا يغلبون هوى المصلحة، لأن الخروج منه مستحيل، وإنما يغلبونه لأن تغليبه نافع لهم فيما يقدرونه ويفسرون به الأمور

ولا نقول: إن الشيوعيين وحدهم يغلبون الهوى في تفسير التاريخ وتصوير الحقائق، فهذه خليقة شائعة بين جميع الناس ملحوظة بين أصحاب المذاهب بلا استثناء

ولكننا نقول: إن الشيوعيين وحدهم هم الذين جعلوا ذلك فرضاً لا مناص منه، ولم يجعلوه عيباً يصححونه ويخجلون من إعلانه وهذا هو الفارق الكبير بين الرأيين فعلينا أن نعترف بالهوى ولا نجهل صنيعه في أفاعيل الأمم والأفراد، ولكن علينا أن نغالبه ما استطعنا كلما عرفناه واقتدرنا عليه

وهذا هو الواجب في كل عيب من العيوب، أياً كان سببه وأياً كان الناظر إليه

فأذكر أن (برتراند رسل) الفيلسوف الرياضي الباحث الاجتماعي الكبير قد أشار في بعض كتبه بإباحة العلاقات بين الفتيان والفتيات (بغير بنين) ليتم لهم اختبار الحياة الجنسية قبل الاضطلاع بتبعاتها، ولأن المنع رياء ما دامت الإباحة قائمة فعلاً وإن سترت عن أعين المجتمع والشريعة

فأما اختيار الحياة الجنسية فليست الإباحة سبيله الوحيد، وليس الزواج بعلاقة جنسية وكفى فيكون اختباره من طريق ذلك الانطلاق

وأما أن الإباحة مطلوبة ما دامت حاصلة، فهذا الذي يشبه عندنا مذهب الشيوعيين أن الهوى مفروض ما دام من عادات بني آدم فالسرقة موجودة ولا نعالجها برفع العقوبة عنها، والسقم الذي يأتي من الطعام موجود ولا نعالجه بتسويغ الطعام المسقم للأبدان؛ وإنما وجود هذه الآفات هو الذي يدعونا إلى محاربتها واستئصالها؛ إذ نحن لا نحاربها وهي معدومة غير مكروهة الوجود هو الهوى إذن نقص في طبيعة الإنسان تميز به بين المخلوقات لأنه طريقة إلى التمام فلا نرميه ولا ندخره، ولكننا نتناوله بضاعة للاستبدال كلما تسنى لنا أن نبدل به بعض الصواب وهوى واحد لا يصلح تمناً مقبولاً في هذه التجارة ولكن خمسة أهواء متقابلات هي أصلح الأثمان

للمقايضة فيها، فليس أقمن بأضعاف الهوى من تعدد الأهواء أيشقينا ذلك التبديل والاستبدال؟

نعم لا مراء... ولكن من الذي قال إننا خلقنا لنسعد؟ ومن الذي قال إن السعادة في استئصال الأهواء؟ لم يقل ذلك أحد؛ وإن قاله لم يحفله سامع. ولم تزل دنياه ماضية في شقائها وسعادتها وهواها.

من مؤلف الأمثال؟
تلك الآيات القصار من موجز البلاغة من صائغها ومنتقى ألفاظها ومودع الحكمة في خلالها؟ إنها أسلوب غير أسلوب الفرد في كلامه، ولكن الأمم لا تجتمع للتأليف والصياغة فيقال أنها من تأليف أمة في أجيالها المتعاقبة. وهي بلا ريب لم تؤلف نفسها ولم تكن قولاً بغير قائل. فأصدق ما يقال فيها إنها كلام فرد صقلته الأمم جيلاً بعد جيل، وإنها وحي الإنسانية أجرته على بعض الألسنة وتعهدته بعد ذلك بالتنقيح والمراجعة فليست هي لغة فرد ولا صياغة أمة، ولكنها مساهمة من كل بما يستطيع فيها. فالفرد يستطيع أن يصوغ الكلام، والأمة تستطيع أن تقبل أو ترفض حتى يستقيم لها القول على ما تحب، ومن هذا وذاك تتجمع الأمثال

وقد اتفق في أمثال الأمم أمران عجيبان كأنهما متناقضان لا يتفقان فأمثال الشعوب تتشابه في مغزاها، وتتوارث في محصولها ومؤداها، حتى يصح أن يقال في هذه الناحية إن الأمثال إنسانية عالمية يتفق فيها جميع الناس.

لكن أمثال الشعوب مع هذا قومية وطنية تدل على أهلها وتنم عن خلائق ملة بعينها، فلا تقرأ أمثال العرب دون أن تعرف منها شيئاً عن العرب لا تعرفك مثله عن الفرس أو الترك أو الروم، ولا تقرأ نخبة من أمثال الأوربيين إلا فرقت بينها وبين نخبة من أمثال الآسيويين أو الأمريكيين. فهي تكشف لنا الإنسانية لأن الأمم كلها من بين الإنسان، وتكشف لنا كل أمة على حدة لأن الناس يختلفون كما يتفقون، ولا تناقض بين الأمرين

ظهر في العهد الأخير كتاب إنكليزي عن الأمثال الروسية من أوفى ما كتب عن هذه الأمثال. فأوجز ما يوصف به إنه يلقي لك ضياء على كل حادث عظيم في تاريخ هذه الأمة ماضيها وحاضرها، منذ جلت عن سهوب آسيا إلى أن وقفت في حربها مع الألمان موقفها المجيد الذي قلت نظائره في تاريخ الحروب!

تقرأ هذه الأمثال فتوقن أن الروس والجرمان لا يعيشون في السلم والوئام إلى زمن طويل. وأول هذه الأمثال قولهم: إن (ما ينفع الروسي هلكة للألماني)... ومصداق ذلك في الحرب الحاضرة غير بعيد ومن تلك الأمثال وفيها الدلالة على الحرب التي يحسنها الروسيون، أن البحر جميل من الشاطئ، وأن البعيد عن البحر بعيد عن الأحزان، وأن الموت أخ للجندي الروسي، وأن امرأة هذا الجندي ليست بزوج ولا بأيم، وأنه (ما كل رصاصة تصيب عظمة في الجسد؛ فقد تصيب الرصاصة الفراغ!)

وقلما دخل الروس حرباً إلا تركوا بعدها أمثالاً تنبئنا ببعض أنبائها. فمن بقايا حرب نابليون مثلهم القائل: (ما أسعد الفرنسي بغراب!) لأن جنود نابليون كانوا يتصيدون الغربان التي تأكل قتلاهم فيطبخونها وهم هلكى من الجوع!

ومن بقايا حروبهم مع الترك ذلك المثل الذي يفيض بالسخرية والشهادة لشجاعة الخصمين: (يتساقط الترك، ولكننا والحمد لله صامدون في الميدان... بغير رؤوس!)

ولعلنا لا نعرف جهاد الروس في طلب الحرية من بضع كلمات كما نعرفه من الكلمات القليلة التي يجمعونها في قولهم: (تبحث عن شجاع... اذهب إلى السجن!)

فقد مضى على الروس حقاً ذلك الزمن الذي كانت فيه السجون أجدر الأمكنة أن تبحث فيها عن الرجل الشجاع، وذلك زمن الثورات، أو زمن الجهاد في طلب الحرية، أو زمن التمرد على السلطان الذي لا خير فيه

ويذكر القراء أن قياصرة الروس كانوا من أكبر الدعاة إلى السلم في عهدهم الأخير، وأن حكيم الروس الكبير - تولستوي - كان أكبر دعاة السلام في أوائل القرن العشرين. ولكن الروس وحدهم هم الشعب الذي سجل خيبة الأمل في السلم كما تمناه منهم الرؤساء والمصالحون، فقالوا في أمثالهم: (إن السلم الدائم ليدوم... ولكن إلى أول حرب مقبلة...)

وهكذا أوحت الحكمة إلى ألسنة الدهماء، ما لم توحه إلى الساسة ولا إلى الحكماء وكل خلائق الروس ظاهرة في أمثالهم الشعبية، وليست خلائقهم في حروبهم وثوراتهم وكفى؛ فهم معروفون بالتواكل والاستسلام للقدر فيما ينوبهم من عثرات الجدود،

وذلك ظاهر في قولهم: (إذا طرق بابك الجد العاثر فافتحه له على مصراعيه). . .
يريدون أن الجد غالب على أمره؛ فكل حذر في اتقائه لا يفيد وهم معروفون بالمداورة بين القادرين المسيطرين عليهم، وذلك ظاهر في قولهم: (صل لله ولكن لا تهيج الشيطان!)
وهم معروفون بالحذر الدائم، وهو ظاهر في قولهم: (للخوف عيون واسعة) وقولهم: (من الحياة نخاف لا من الموت!)
وهم يتباطئون عن الجد كما يظهر من مثل الفلاح القائل: إلى الغيط. . . ما آلم هذا المغص في الأحشاء! إلى ألحان. . . هاتي المعطف يا امرأة، وعجلي!)
وتواكلهم مع معيشتهم في البيوت تظهر من أمثلة كثيرة في معارض شتى، منها: (إذا أقدمت على الزواج فلا تطيلي همك. . . ستعلمين متى يحين الموعد المقدور للبكاء ساعة يضربك زوجك!)
ومنها: (تزوج كبراهن وانظر إلى أمها وأبيها، أما الصغرى فلا تتزوج بها إلا وقد نظرت إلى أختها الكبرى)
ومنها: (زوجي سيئ أخافه، ولكني أكون معه فلا أخاف من أحد غيره!)
ومنها: (سأحفظ حكايات الخرافة متى رزقت الأحفاد)
وبسبيل من هذا وإن ظهرت فيه مناقضة للتواكل قولهم: (حسبما تهيئ فراشك يكون رقادك!)
وقولهم: (عش كما يتاح لك، ومت كما تتمنى!) أو قولهم: (من لم يكن صحيحاً في العشرين، عاقلاً في الثلاثين، غنياً في الأربعين، فلا أمل له في الصحة والعقل والغنى، حتى يموت)
ويقولون وفيه دليل على سوء الظن بالدنيا: (نرفع عقائرنا بالغناء فيسمعنا الناس، ونرفع عقائرنا بالعويل فليس للناس آذان)
ويقولون: (إن كان لابد من غرق فالبحر اللجي خير من البركة الآسنة) وفيه مشابهة لقول المتنبي:

إذا غـــــــامرت فـــــــي شـــــــرف مـــــــروم

فـــــــلا تقنـــــــع بمـــــــا دون النجـــــــوم

فطعـــــــم المـــــــوت فـــــــي أمـــــــر حقيـــــــر

كطعـــــــم المـــــــوت فـــــــي أمـــــــر عظـــــــيم

ويقولون وفيه صدق الغرض وإن لم يكن فيه صدق التاريخ: (موسكو أحرقتها شمعة بدرهم)

فشمعة بدرهم قد تحرق موسكو حقاً، وإن لم تكن أحرقتها في حرب نابليون

ومن أبرع أمثالهم قولهم: (يولد الإنسان ليموت، ولكنه يموت ليحيا)

ومنها في فضل الوقاية: (يخاف الهواء الأصفر ممن يخافه) ومنها في المساواة والفوارق بين الناس: (عيوننا تملأها شمس واحدة، وبطوننا لا يملأها طعام واحد) ومنها: (من سكن بجوار المقابر لم يحزن على كل فقيد) ومنها: (راقب الجدي من أمام، وراقب الحصان من وراء، وراقب الشرير من كل جانب) ومنها في رشوة الحكام: (من باب الطريق صد ومن باب السر ترحيب)

وعلى الجملة يندر أن نعرف الروس من كتاب واحد كما نعرفهم من هذا الكتاب الذي جمع لنا المئات من أمثالهم المنتقاة

ونعتقد أن هذا هر شأن الأمثال في كل أمة وفي كل طبقة وفي كل جيل، وربما أغنتنا ثلاثة أمثال أو أربعة عن قراءة سفر مطول في أخلاق بعض الأمم خلال فترة من الفترات

فأي كتاب يدلنا على أخلاق المصريين في القرن الماضي كما يدلنا عليها مثلهم القائل: (أردب ما هو لك لا تحضر كيلة، تتعفر دقنك وتتعب في شيله) أو مثلهم القائل: (اللي يجوز أمي أقول له يا عمي) أو مثلهم القائل: (إن عبدوا تور حش وارمي له) وما شابه هذه الأمثال

فثلاثة أمثال من هذا القبيل تلخص لنا تاريخ الاستبداد في ذلك القرن وما أحدثه في مصر من التفكك واجتناب التعاون ومداراة الظلم والإذعان لكل آمر والعجز عن كل مقاومة

ومئات منتقاة من هذه الأمثال في شتى المعارض تجمع لنا من الأخلاق القومية والدلائل التاريخية ما يتفرق في كتب مختلفات تتكلم عن الأخلاق ولكنها لا تعرض لنا تلك الأخلاق عرضاً مجسماً كما تعرضها الأمثال

ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ قلة التمثل بالأمثال في هذه الأيام سواء بين المصريين أو بين الأمم الأخرى

فأبناء العصر الحاضر لا يحفظون أمثال أمتهم ولا يكررون ما يحفظونه منها، وليس هذا بعجيب إذا نظرنا إلى الخلق الغالب بين أكثر المحدثين فقل في أبناء عصرنا من يقتدي بالسلف أو يحب أن يقال عنه أنه ممن يقتدي بهم في المعيشة والسلوك. ولا معنى لسرد الأمثال ما لم يكن ديدن السلف حجة مقبولة بين القائلين والسامعين

إنما الخلق الغالب في عصرنا أن يباهي الرجل في يومه بمخالفة أمسه، وأن يجري في كل حين على بدعة لم يسبقه فيها سابق قبل حينه، وأن يتهالك على الجديد ولو لم تكن له مزية غير الجدة العابرة. وهذه حالة من الحالات النفسية لا توائمها متابعة الأمثال، أو تحريها في الأقوال والأعمال؛ بل هي تستدعي كلاماً يناقض المثل في لبابه ومرماه، وهو الارتجال المقتضب الذي لا يتعدى ساعته إلى ما وراءها، ولا يصلح للتكرار والاستشهاد ولهذا تسنح الفرصة اليوم للحرص على ذخائر الأمثال، والاستزادة من مجموعاتها التي يخاف عليها النسيان والإهمال؛ فإنها لموصولة يوماً لا محالة، وإن طال عهد الانقطاع والارتجال.

بين الروسيين والصينيين مشابهة محسوسة وهي اشتراك كل من الأمتين في الاتصال بالمغول من طريق المجاورة والمعاشرة والمصاهرة، واقتباس كل من الأمتين كثيرا من عادات المغول ومأثوراتهم في القصة والمثل والجديلة. فمن قرأ القصص والأمثال الصينية لم يعدم بينها وبين أمثال الروسيين وقصصهم مشابهة ظاهرة في الأسلوب والمزاج، ولم يكد يتخيل بين الأسلوبين فارقا بعيدا في غير الحواشي والتفصيلات. أما الجوهر فواحد أو يكاد أن يتوحد كما يتوحد الاقربون والصحبة المتلازمون

فإذا استحضرت أمثال الروسيين وتخيلت قائلها رجلا واحدا خيل إليك أنه إنسان صبور رصين مستسلم يعرف الدنيا معرفة هادئة، ويتحدث عنها تحدث سخر ممزوج بالآلفة والمحبة، وهذه هي الصورة التي تبدو لك من قراءة القصص وألا مثال الصينية مع فارق يسير تلمحه في جملة الأمثال وقد تخطئه في المثل الواحد والمثلين، ونريد به أن صقل الحضارة أظهر في أمثل الصينيين، وأن خشونة البداوة والفلاحة أظهر في أمثال الروسيين، ويتفرع على ذلك أن الصيني أقرب إلى السلم، وأن الروسي أقرب إلى الحرب، وان كانا يتلاقيان في خصلة متماثلة وهي أنهما يباشران الحرب دفاعا فيصبران عليها ويستبسلان فيها، ويباشرانها هجوما وعدوانا فلا يتحركان طويلا للهجوم ولا يحتفظان كثيرا بحماسة العدوان

وقد ظهر هذا جميعه في حرب الصين واليابان وفي حرب الروس والألمان، فظهرت شجاعة الصينيين وصبرهم كما ظهرت شجاعة الروسيين وصبرهم، ولم يعهد للأمتين قبل الآن مثل هذه الشجاعة ومثل هذا الصبر في حروب الهجوم والعدوان

وقد تحولت من أمثال الروسيين إلى أمثال الصينيين كما تتحول اليد من فاكهة إلى فاكهة مثلها على شجرتين متقاربتين في بستان واحد، فلم أشعر أنني أبعدت النقلة بين القطفتين وان كان لابد من خلاف بين ثمرة وثمرة وان قطفتا من شجرة واحدة

والصينيون أولع أمم العالم قاطبة بالمثل السائر والنادرة المنجمة على حسب العبر والوقائع. وليس هذا بعجيب مع ما هو معلوم من محافظة القوم على شعائر السلف وتبجيلهم لذكرى الآباء والأجداد ورجوعهم بالحكمة كلها إلى عظات الأقدمين. وفي ذلك تأييد لما أسلفناه في ختام مقالنا السابق عن أمثال الروسيين

قلنا في ختام ذلك المقال أن إهمال العصريين لرواية الأمثال غير عجيب إذا نظرنا إلى الخلق الغالب بينهم، (فقل في أبناء عصرنا من يقتدي بالسلف أو يحب أن يقال عنه انه من يقتدي بهم في المعيشة والسلوك، ولا معنى لسرد الأمثال ما لم يكن ديدن السلف حجة مقبولة بين القائلين والسامعين)

والصينيون يستحدثون اليوم ما يستحدثون في عادات المعيشة وآداب السلوك ولا يزالون على ديدنهم القديم من تقديس الآباء وتوقير السنن المأثورة عنهم، فلا جرم يحرصون على الأمثال حرصا لا نعهده بين المحدثين وطلاب الاستحداث في أنحاء العالم، ولا جرم يودعون في أمثالهم من روح الشعب ما هو أبلغ في الدلالة عليهم والإبانة عنهم من الأسفار والموسوعات

قال دكتور هنري هارت في مقدمة منتخباته من الأمثال الصينية: (كل إنسان في الصين يتمثل الأمثال. . . وقد سمعتها من لسان الإمبراطور كما سمعتها من لسان الخادم الوضيع، فهي عندهم العملة الجارية في اللغة، والدرب المختصر في المحادثة. وكثيرا ما تغنى عن الناقشات الطويلة وتحل العقد الشائكة. فيشوق المشاهد أن يصغي إلى المعارك الكلامية التي لا تني تتردد بين أهل تلك البلاد، إذ يعرض الخلاف الصغير فيزدحم حوله الجمع الكبير من الكسالى والمستطلعين، وإذ يحتدم المختلفان قليلا قليلا وكلهم مولود على استعداد للتمثيل، فيلوح للمشاهد أن العنف واقع لا محالة وان لم يكن الصينيون مشهورين بالملاكمة وقليلا ما يعتدي أحدهم باليد على أخيه، ثم يتفق فجأة يتقدم أحد الواقفين - ويغلب أن يكون من الكهول أو الشيوخ - فيتكلم ويأتي بمثل موجز موافق للمقام، فكأنما تلك الكلمة النافذة المحبوكة هي الكلمة التي كان ينتظرها الطرفان المتشاجران، فتنحل العقدة المعضلة، ويتراجع الخصمان،

ويتخافت صوتاهما العاليان، وترتفع ابتسامة في مكان العبوس، وتنتهي المشاجرة على خلاف ما يود المشاهدون من طلاب الضجيج والعجيج)

وهذا المشهد الذي وصفه المؤلف قد نراه في مصر ونذكر الكلمات التي تفض بها مشاجرات الطريق، فهي في الغالب أمثال شائعة، وفي الأغلب عظات من الكتاب والسنة النبوية، ولكنها في القرى أعم منها في الحواضر الكبيرة، ولحكمة السلف ومقام الشيخوخة فيها أثر غير قليل ولكنك لا تقرأ مئات الأمثال عندهم ومئات الأمثال عندنا حتى تلمح الفارق بين الأمتين وان اتفقنا على بعض العادات والخطرات

فأول ما يبدهك من جملة أمثالهم أنهم أبيقوريون يحبون الترف المريح، ويألفون الدعة الفلسفية التي تسكن إليها النفس كما يسكن إليها الجسد، ويؤثرون الترشف من النعيم على الغرق فيه، ويقنعون بتجزئة السعادة إذ لا سبيل إلى السعادة الكاملة التي تدوم ولا يخشى عليها زوال

ومن أبدع أمثالهم التي تنم على هذا المزاج قولهم: (من عاش يوما خاليا عاش يوما خالدا) وقولهم: (ألف ريال لا تشتري ضحكة واحدة)؛ وقولهم: (الأمراض تدخل من الفم والمصائب تخرج منه)؛ وقولهم: (البركة قلما تقبل أزواجا، والمصائب قلما تقبل فرادى)

وقد أوردنا للروسيين مثلا يعبر عن الفوارق الاجتماعية يقولون فيه: (أن عيوننا تملأها شمس واحدة وبطوننا لا يملأها طعام واحد). وهو شاهد بارع من شواهد الطبيعية يقاربه في معدنه قول الصينيين: (الصيف للجميع والشتاء على حسب الكساء)

وأوردنا للروسيين مثلا لرشوة الحكام إذ يقولون: (من باب الطريق صد ومن باب السر ترحيب) ويشبهه عند الصينيين في موضوع الرشوة وفعل المال في قضاء الحاجات قولهم وهو مختلف بعبارته متفق بمؤداه: (عشرة ريالات تحرك أرباب الهيكل ومائة ريال تحرك السماء نفسها!)

والقوم معروفون بقدم العهد بالدماثة المدنية وحسن الحفاوة في الاستقبال، وهو ظاهر من تعويلهم في التجارة على الابتسام إذ يقولون ما فحواه: (إن الذي لا ينفرج

فمه بابتسامة لا ينفرج له باب دكان) ومن استعظامهم داء الجلافة إذ يقولون: (إنها داء ليس له عند الطبيب دواء)

ومن قولهم فيما يشبه ويتصل به: (إن فتح دكان لسهل، وإنما الصعوبة أن يظل مفتوحا...)

ومن أمثالهم التي تدل على الطبيعة الحذر فيهم أو تدل على نصحهم بالحذر والاحتراس: (أحمل مظلتك والسماء صاحية، وادخر مئونتك وجوفك شبعان) و (الجمال لا يوقع الرجال في الشرك، إنما هم الذين يقعون فيه) و (لا تشتم امرأتك في المساء وألا نمت وحدك!) و (المرأة الشائهة والخادمة الغبية كنزان لا يقومان) و (لا ترسل الباز حتى تبصر الأرنب) وهكذا في عشرات من الأمثال

وربما كان الصينيون في طليعة الأمم التي هانت فيها أقدار المقاتلين وعظمت أقدار الحكماء والنساك، ولهذا تتواتر عندهم الأمثال التي تدل على نفاسة الحكمة وصعوبة الحصول عليها من قبيل قولهم: (الذهب له ثمن والحكمة بغير ثمن) وقولهم: (طالب العلم كالصاعد في وجه التيار إن لم يتقدم فهو منحدر)

وقولهم: (خذ الخمر قطرات والحكمة جرعات!) وقولهم: (المعرفة كنز يتبع صاحبه حيثما ذهب) وقولهم: (العلماء ذخائر الأمم) وقولهم: (من علمني يوما فهو أبي مدى الحياة)

وقد اشتهروا كذلك بالسكن إلى حياة الأسرة وجيرة الوطن، فحفلت أمثالهم بالتغني بالبيت والوطن؛ واجتمع أفضل ما قالوه حول هذا الغرض في مثلين نموذجين أحدهما قولهم: (لا يخلو البيت من راحة ولا خارج البيت من تعب) وقولهم: (لتكن حسناء أو شوهاء فهي بلادي. وليكن قريبا أو غير قريب فهو أبن وطني!) وربما زادنا علما بقوام البيت عندهم قولهم: (الزوجة لفضيلتها والخليلة لجمالها)

ومن نماذج السخرية المطمئنة في أمثالهم قولهم: (بائع البطيخ يقول أنه حاو!) وقولهم: (كلب ينبح على شيء، وألف كلب تنبح على نباحه) وقولهم: (نولد ولا نحضر معنا شيئاً،

ونموت ولا نذهب بشيء) وقولهم: (الغراب أسود هنا وأسود في كل مكان) وقولهم: (إذا خلقت السماء آنسانا فله طلب لا محالة!)

وهم قديرون كالروسيين أو قديرون كعامة الشرقيين، فليس أكثر في أمثالهم من التسليم للقدر وقلة الجدوى في خلافه على تعدد في اللفظ وتوحد في المعنى، كما يقولون، وفيه شيء من سخريتهم: (يقول الإنسان هكذا هكذا وتقول السماء ليس كذلك ليس كذلك!) أو يقولون: (ما يبرمه القضاء لا ينقصه إنسان) أو يقولون: (من خلق للسعادة فلا يعجل وراءها) أو يقولون (كل كأس وكل لقمة مقتدرتان لفم، لا يأخذهما غيره)

ولا نهاية للمواضع والمناسبات التي يستشهد فيها ببعض هذه الأمثال الصينية التي يخطئها الإحصاء

إلا أن الشاهد الأكبر فيما نحن بصدده هو هذا الاهتمام من قبل الأمم الغربية بكل جانب من جوانب البحث في البلدان التي تلتفت إليها أنظار الناس على أثر الحوادث الحربية أو السياسية التي تقع فيها. فما مضت أشهر على اشتغال الصحف بقضية الصين حتى امتلأت رفوف المكتبات بالمجلات والرسائل والمجلدات عن كل شيء يعرف - أو ينبغي أن يعرف - من أحوال تلك البلاد، فهذا يكتب عن النهضة الصينية، وذاك يكتب عن زعماء الصين، وغيرهما عن تاريخ السياسة الأوربية في الشرق الأقصى، وغيرهم يكتب عن فن الصين أو أغاني الصين أو عقائد الصين أو محاسن الصين، إلى أشباه ذلك مما يقترن بالصين وأبنائها ولو من بعيد

ومثل هذا حدث في اهتمامهم بروسيا بعد ثورتها الاجتماعية أو بعد حربها الأخيرة مع النازية، ويحدث مثله كذلك حول كل مسألة من المسائل القومية أو العالمية التي ترتبط ببلد من البلدان، حتى ليصح أن يقال إن الحرب عندهم ليست شرا محضا يجلب الخراب وينزل بالبلاء ثم ينتهي أثره عند ذلك، لأنها في الواقع سبيل من سبل المعرفة وباب من أبواب التعارف، وطريق إلى كشف الظلمات عن مجاهل العالم قاضية ودانية.

تستعد الأمم المقاتلة للحرب في المدرسة كما تستعد لها في مصانع الذخيرة والسلاح، فليس من النافع منع التسليح أو قصره على مقدار مرسوم إذا لم يكن مقترناً بمنع الأسلحة الفكرية والعدد الخلقية التي تتحفز أبداً للحرب ولا تستريح طويلا إلى عهد السلام

هكذا يقول الفيلسوف الرياضي الكبير (برتراند رسل) في مجلة (الفورتنتلي) من مقال عن الجامعة العالمية أو عن التعليم العالمي الذي يمحو العصبية ويهيئ العقول للسلم والمعاونة بين الأقوام والأجناس والأوطان

وبرتراند رسل كما يعرفه قراؤه رجل من أقدم دعاة السلم بين كبار الحكماء والعلماء، وكانت دعوته إلى السلم في إبان الحرب الماضية سبباً لحبسه وتغريمه وانقطاعه عن التعليم

فهو الآن يتأهب لدعوة جديدة من طريق جديد، وتلك هي طريق التربية العلمية التي ينبغي أن تعم جميع الطلاب في جميع الأوطان، وأن يكون لها غرضان مقترنان ولا تكتفي بغرض واحد ينحصر في العلم والمعرفة (الأكاديمية) كما يسميها. فإنما الغرض الأكبر أن يكون التعليم على نهج يؤدي إلى تعميم السلم وحسم بواعث القتال، خلافاً للنهج الذي سار عليه حتى الآن في معظم البلدان

قال: (من الواجب أن تكون للجامعة المنشودة وثيقة تشتمل على حقوق مرعية تقضي فيما يتعلق بالأساتذة والطلاب على السواء أن تفتح أبوابها لجميع الأجناس وجميع الأديان وجميع الآراء السياسية؛ ما عدا تلك التي ترفض المعاونة العالمية، إذ هي لن تفلح في دعوتها العالمية إن أخفقت في تحقيق هذه الشريطة. ولكل رجل أو امرأة على استعداد علمي أن يدخلها فلا يحول بينه وبين دخولها لونه الأصفر أو لونه الأسمر أو لونه الأسود، ولا إنه من بني إسرائيل أو من البوذيين أو المسلمين أو الهندوكيين، بل لا

يجوز فوق هذا أن يحول بينه وبين دخولها إنه لا يؤمن ببعض العقائد والمقررات كائناً ما كان)

وعنده أن ما جرى عليه العرف حتى اليوم يناقض هذه المساواة العالمية حتى في تدوين تواريخ العلوم. فالقاعدة التي تعرف عند الإنجليز باسم قاعدة بويل تسمى قاعدة ماريت بين الفرنسيين، ويذكر الكتاب الإنجليز أحياناً أن بريستلي هو كاشف الأوكسجين، وفي ذلك غبن للعالم لافوازييه. ويميل الرياضيون الألمان إلى اعتبار جاوس مؤسساً للهندسة (غير الإقليدسية)، وقد أسسها في الواقع لاباتشفسكي الروسي. وطالما اختلفت الكتب الإنجليزية والأمريكية في الكلام على اختراع زورق البخار، إلى اختلافات أخرى من هذا القبيل أشهرها الاختلاف بين نيوتن وليبنتز على اختراع حساب التفاضل والتكامل مما عاق جورج الأول عن اصطحاب ليبنتز عند قدومه إلى البلاد الإنجليزية وما جر إليه ذلك من تعطيل الرياضيات في هذه البلاد قرناً من الزمان أو يزيد

ويقول الفيلسوف: (إن الأمم الكبرى جميعاً على تفاوت في الدرجة تزيف التاريخ وتتعرض له بالتمويه والتعديل. فحركة العصيان الهندية يتعلمها الأطفال الإنجليز من وجهة نظر واحدة، والواجب في الجامعة العالمية أن تعطي وجهة النظر الهندية من الرجاحة ما تعطاه وجهة النظر الإنجليزية. وكذلك يجب عند شرح تاريخ الحرب الإسبانية الأمريكية أن تلاحظ الحيدة المستقلة بين أسبانيا والولايات المتحدة. وهذه وما شابهها نقائص لا تسلم منها أمة واحدة في العالم بأسره ولكنها أسوأ ما تكون في ألمانيا وإيطاليا واليابان)

إلى أن يقول: (إن هيجل في فلسفته التاريخية يرى أن (الروح) الذي يسيطر على عظائم الحوادث يتجسم تارة في هذه الأمة وتارة في تلك، وأن كبار الرجال الذين يختارهم ذلك الروح المسيطر على الحوادث لبلوغ غايته هم أناس مرفوعون فوق قوانين الأخلاق والآداب على مثال الإسكندر وقيصر. وقد اختار الروح أمة الجرمان لتحقيق ما يريد في عصرنا هذا)

وبعد أن شرح الفيلسوف الرياضي الكبير نظام الإدارة ونظام التعليم وتحضير الكتب للدراسة في الجامعة العالمية قال: (إن الدعوات الوطنية إنما نجحت في الأغلب الأعم لإحساسهم أنها تجري مع المصالح الوطنية في مجرى واحد. فإذا أريد للنظرة العالمية الجديدة أن تفلح وتؤتي ثمرها فمن الضروري أن تتمثل للناس موافقة للمصالح الوطنية على ذلك المنوال)

وهنا تتلاقى آراء كثيرة قد تتشعب وتتدابر في غير هذا الملتقى الواضح المأمون من جميع نواحيه فليس المقصود بالتعليم العالمي أن يجور على المصالح الوطنية، وإنما المقصود به أن يبطل النزعات التي تجور على مصلحة العالم بأسره أو مصالح الأمم الأخرى في تعاونها على السلم والحضارة.

فالوطنية والعالمية لا تتناقضان، لأن خدمة العالم بأسره لن تضير وطناً من الأوطان، ولاسيما الأوطان التي لا تملك القوة ولا تتذرع بها أن ملكتها إلى الطغيان على الآخرين.

وقد رأينا بعض المفكرين الداعين إلى التآلف بين الشعوب على أساس العالمية أو أساس الحكومات المشتركة ينزعون إلى التشكيك في عناصر الوطنية لأنها شيء يصعب التعريف به وفهم معناه، فإذا قيل مثلاً إنها قائمة على الوحدة الجغرافية فالفاصل بين الأرض الفرنسية والأرض الجرمانية فاصل اتفاقي من معظم نواحيه، وإذا قيل إنها الوحدة الجنسية فليس في الأرض أمة تخلو من مزيج الأجناس، وإذا قيل إنها الوحدة اللغوية فليس باللازم أن تقترن المشاركة في الوطن الواحد والمشاركة في اللغة الواحدة، وإذا قيل إنها وحدة الدين فقد تجتمع في الأرض الواحدة عدة أديان وعدة مذاهب من دين واحد، وإذا قيل إنها وحدة الحكومة فقد يخضع الناس لحكومة واحدة مكرهين مستعبدين، وإذا قيل إنها التراث التاريخي فهذا ولاشك من أقوى عناصر القومية ولكنه لا يخلقها ولا يمنع التفاهم بين أصحاب التراث المختلف على حكم واحد أو صلة حكومية متكافلة.

إلى آخر ما يقول أولئك المفكرون الداعون إلى التآلف العالمي وهم مخطئون فيما نراه

وقد ناقشنا هذا الرأي في موقف كموقفنا الحاضر منذ سنين فقلنا: (إن كلاماً كهذا يمكن أن يساق لإضعاف المزايا الإنسانية وتقريب الفوارق بين الإنسان والحيوان، ثم هو لا يفضي إلى نتيجة ولا يدل على معنى مستقيم. . قد تقول مثلاً ما هي معالم الإنسانية التي تفرق بين الإنسان والحيوان؟ أهي اللغة؟ كلا! فإن أناساً كثيرين يولدون بكما لا ينطقون ولا يعقلون. أهي أعضاء الأجسام؟ كلا! فإنه ما من عضو في إنسان إلا يقابله عضو مثله أو يقوم مقامه في حيوان: أهي انتصاب القامة؟ كلا! فإن بعض الأحياء تمشي على قدمين وبعض الناس يزحفون على الأربع. أهي عناصر الدم؟ كلا! فإن التحليل قد يكشف فرقاً بين دم الرجل ودم المرأة وبين دم الشيخ ودم الصبي وكلهم من بني الإنسان؛ وزد على هذا أن الدم ليس بمزية الإنسانية العليا، فإن أناساً في ذروة العظمة قد يرجح عليهم في نقاوة الدم وصحة تركيبه أناس في حضيض الذل والجهالة. أهي قابلية التناسل؟ كلا! فإن الخيل والحمير تتلاقح وهي من نوعين، والبغال لا تتناسل وهي من نوع واحد، وقد يعيش الرجل والمرأة معاً عيشة الأزواج ولا ينسلان)

فصعوبة التعريف والتفريق لا تنفي وجود الأشياء التي نريد أن نعرفها ونفرق بينها، والوطنية شيء موجود لاشك في وجوده وإن تعددت عناصره حتى تعذر الجمع بينها في وطن واحد

ومن الخطأ أن نناقض بين العالمية لأنهما في الواقع غير متناقضين، وإذا بنيت الدعوة إلى التعاون بين شعوب العالم على أن هذا التعاون يغض من الغيرة الوطنية فمصير تلك الدعوة معروف من الآن، وهو الإخفاق السريع

وإنما الصواب ما قال الفيلسوف الرياضي الكبير حيث رأى أن ضمان النجاح للدعوة العالمية مكفول بالتوفيق بينها وبين مصالح كل أمة تلبي تلك الدعوة وتشترك في المعونة وهذا الذي نرجو أن يكون وأن يتوافى إليه شعور الأقوياء والضعفاء معاً بعد الحرب الحاضرة ويبدو لنا أن تعدد الأقوياء سيلجئهم قسراً إلى التعاون بينهم على رعاية حقوق الضعفاء فينفتح من ثم باب التعاون بين هؤلاء وهؤلاء

فليس في الوسع أن يطغي قوي واحد على أنداده الأقوياء، وليس في الوسع أن يتفقوا على قسط متساو من المصلحة المشتركة يمنع التنافس ويحسم النزاع. فلا نغلو بالأمل إذا قلنا إن الطريق الأيسر لهم والأجدى عليهم هو الاتفاق على التعاون بينهم وبين الضعفاء، والتفاهم على معاملة وسطى فيها رعاية للحق ورعاية للمصلحة الجامعة ورعاية لمصلحة الأمم أمة أمة على حدة. فقلما يرجى فلاح لمطلب من مطالب بني الإنسان يبنى على الحق وتنسى فيه المصلحة، أو يبنى على المصلحة وينسى فيه الحق، وآية الرجاء في مصير الدعوة العالمية أن الحاسة الخلقية وأن الوجهة النفعية فيها تتقاربان وتتساندان.

في ليالي القمر، وفيما بين الخريف والشتاء، ليس أجمل ولا أروع من مشية طويلة في صحراء (ألماظة) أو ما يليها من الطرق المعبدة بين الحدائق والرمال هاتيك ليالٍ تسبح في بحار من سحر النور وسحر الصحارى وسحر التاريخ، بل النبوة إن صح ما قيل معززاً بالأسانيد أن موسى عليه السلام تلقى العلم هو وبنتاءور ونخبة من الحكماء والعظماء بجامعة (أون) في هذا الجوار، على أزمنة مختلفات وما أذكر أنني مشيت في هذه الطرقات مع أحد إلا سألني: على اسم مَن من العظيمات أو الجميلات سميت هذه الصحراء بالماظة؟ وما معنى كلمة الكربة أو القربة أو القربى التي يطلقها الناس على الطريق المؤدي إليها من غير طريق قصر البارون؟

ومجال التخيل أو مجال العبث هنا فسيح أما مجال الصدق والتحقيق فهو لا يتسع لأكثر من سطور: ألماظة هي (المجزا) أو الـ بالإيطالية ترجمة للمخزن بالعربية، والكربة أو القربى كما يكتبها بعضهم هي الـ بالإيطالية ومعناها (المتحني) أو المتعرج كما يترجمها زميلنا (المرصفي) رحمه الله لو سئل فيها

وقد نعلم أن بعض المهندسين والمفتشين في ترام مصر الجديدة كانوا عند نشأتها من الطليان، وكانوا يتحدثون عن المخزن فيقولون (المجزا) وينطقها العمال بعدهم (الماذا) أو ألماظة على سبيل التصحيح، وخير من ذلك أن يقال على سبيل التغليط!

وكانوا إذا ذكروا المحطة الأخيرة قبل مدخل ألماظة ذكروا (الكرفا) أو موضع الانحناء فينطقها العمال بعدهم (الكربة) ويعربها بعضهم (بالقربى) على سبيل الحذلقة أو التحريف فهذا هو الجد في أصل (ألماظة) و (الكربة) في غير تخيل ولا عبث ولا اختراع

أما مجال التخيل والعبث فكما قلنا فسيح، وكما يستطيع كل مخترع أن يخترع باب على صحراء!

ونحن نعرف الذين يسألون فيجيبون ولا يسكتون، ونعرف الذين يخلقون الأسماء أو يخلقون القصص والتواريخ حول الأسماء، فلو سئل واحد من هؤلاء: ما ألماظة؟ ومن

هي رحمها الله؟ أو سئل: ما القربى؟ ومن أي شيء تقترب بإذن الله؟ فماذا تراه يقول؟ وأي قصة لا يجوز أن تتألف وتتضخم في جواب هذا السؤال، وتفسير معنى الاسمين العجيبين وما فيهما من الشعر ما يغري بالاختراع؟

لقد رأينا كيف اخترعت قصة (أنس الوجود والورد في الأكمام) حول قصر مهجور بجزيرة (فيلة) عند الشلال؟ ورأينا أن القصر أصبح معقلاً مبنياً لفتاة يعشقها فتى مفتون بها يتعقبها من وراء البحار والأنهار والجبال والرمال؟ ولمن يبنى مثل هذا القصر إن لم يبن لبنت وزير؟ ولماذا يبنى إلا للحيلولة بين عاشقين؟ ذلك أمر معقول أدنى إلى العقل من التاريخ، ولهذا غلب اسم أنس الوجود على القصر حتى عرف به في الكتب وضاع بين الألسنة والأسماع ذلك الاسم الذي يسميه به المؤرخون

قال الراوي: أما الماظة والقربى وقصر البارون فلها حديث عجاب، ونبأ مستطاب، يدهش الألباب، وتتحلى به الصحيفة والكتاب.

فالأصل في الماظة (الماسة) على التحقيق، لأنها كانت جوهرة مكنونة تحاط بالظلمات والسدود، ويقام من حولها الحراس والأجناد

وكانت (الماسة) هذه جوهرة مومومقة على سبيل المجاز، وفتاة معشوقة على سبيل الحقيقة التي يعلمها الراسخون. حجبوها لأنهم عشقوها فتعقبوها، وحاروا كيف يخفونها ويكتمون سرها لأن الذين تعقبوها كانوا ينفذون إلى كل سر ويحيطون بكل مكان. . بنت وزير ولابد أن تكون حتى يستطاع نقلها من سهل إلى جبل ومن بحر إلى بر ومن بستان إلى صحراء، وابن أمير لابد أن يكون ذلك الذي هام بها وتعقبها حتى يستطيع أن يخيف الوزير على فتاته ويستطيع فوق هذا أن يهتدي إليها حيثما ضلله المضللون، وأن يطمع في اغتصابها ولو حماها منه الكماة المستبسلون عرفنا السر إذن ووضعنا أيدينا على مفتاحه المكنون، ولم يبق إلا أن نتعقب المتعقبين إلى حيث يفلحون أو يخفقون

قال الراوي: وخرج الأمير الصغير يتنسم الأخبار، ويجوب الأقطار، ويتقلب بين الجزر والبحار، فوقف على كل جزيرة، ومخر في كل بحر، وسأل كل راكب، وتحير عند كل

طريق؛ إلى أن أراد الله اللقاء، وأذن بانقضاء الفرقة والجفاء. فوقع المحب الوامق على المسئول الذي يجيب عن كل سؤال، لأنه ساحر يضرب الرمل ويعرف طريق الرمال قال له يا بني، إن نجم صاحبتك في الرمل وليس في الماء، فاخرج إلى صحراء مصر بعيداً من بحر القلزم وبعيداً من بحر الروم، وعلى ملتقى الخطين من هذين البحرين، وامش كذا مئات من الخطوات، واتل كذا صفحات من الرقى والتعاويذ، وأدن إلى قصر شامخ وصرح باذخ، فاحمد الله على بلوغ المراد، وانحر هناك الجزور للقصاد والوراد، ولكن حذار أن يخدعوك، وإياك إياك أن يسترجعوك، فإنك إن دخلت القصر الشامخ وجدته خواء لا أنيس فيه، فزعمت أنهم كانوا فيه ثم تركوه ينعي من بناه، ونكصت على أعقابك وأنت على مدى لحظات من ديار الحبيب الموعود حذار يا بني أن يخدعوك، وإياك إياك أن يسترجعوك فإذا بلغت تلك القصور، فلا تقف عندها إلا ريثما تنحر الجزور، وتنصب القدور، وتطلق البخور، وتشكر ربك الشكور، ثم دع القصر المعمور، واضرب في الخلاء المهجور، فهنالك تنحني وتدور، وعند المنحنى تستقبل مطالع النور، ومنازل البدور، وتنادي يا ألماسة يا ألماسة فينكشف المستور، وينفتح ما وراء السور، ولي منك البشارة يوم تقام الأعراس ويشدو في الحي قمري السرور، وبشير الحبور

قال الراوي، فلما جاوز القصر، وانحنى إلى القفر، صاح وا فرحاه! وا طرباه. . . دنت القربى والحمد لله!

وكان وراءه مسجل الأسماء الذي حضر كل تسمية في الأرض والسماء، فقال: هذا هو حي (القربى). . . فسمع الناس الدعاء، وكانت (الكربة) على منعرج الصحراء!

قصة أين منها قصة أنس الوجود والورد في الأكمام؟ وأين التوفيق بين ألماظة والقصر الهندي بصحراء مصر الجديدة، من التوفيق بين أنس الوجود ومعابد البطالة بجزيرة الشلال؟

في ليلة من ليالي القمر الماضي كنت أتمشى مع صاحب يُستحب الحديث معه على مقربة من تلك الصحراء، فبدر السؤال الذي بدر قبل الآن عشرات المرات، وكنت

أستطيع الإيجاز فأروي لصاحبي قصة (المجزا) و (الكرفا) في كلمتين معجلتين، وأستطيع الإطالة فأنسج له رواية مسهبة تطول وتطول، ثم تعاد فتجر من ورائها الذيول. فآثرت الإطالة على الإيجاز، وأفضت في الاختراع والتلفيق على نحو يجمع بين التاريخ والرواية، وذكرت السنوات وسميت الأسماء وأصحبت الحديث بالتعليق، الذي ينوب عن (التأثر) والتصفيق، وانتهيت من القصة كأنني أشكك فيها، وألقي التبعة على ناقلها وحاكيها، فكان شكي مدعاة لقبولها، والجنوح إلى تصديقها، والنفرة من مكذبيها، ثم انتهت الإطالة إلى مداها، فأردت أن أصلها بإيجاز من غير لحمتها وسداها، فلا يسألني القارئ عن الخيبة التي قوبلت بها الحقيقة الواقعة، فلعلها كانت ابلغ من الحماسة التي قوبل بها التلفيق والاختراع، ولا يعجبني كراهة المخزن والكرفا فإنها لن تروق القلوب الفتية كما تروقها ألماسة والقربى، وهكذا معظم الحقائق ومعظم الأوهام ومعظم الأسماع ومعظم العقول وكم للحق من وحشة! وكم للوهم من حظوة! وكم من الناس يأبون أن يصدقوا ما يرون ويسمعون لأن صدق الحياة أليم، فإذا هم يصدقون من يحجبون الصدق عنهم لأنه حجاب مزخرف وثير

وعدنا في الطريق فإذا نحن على مقربة من مسجد يتوسط بين القصر والمنحنى، فعاد صاحبي يقول وكأنه ينتقم مني بما يقول: وأظن هاهنا كان موضع الجذور والقدور، ومقام الصلاة من ذلك المحب الشكور!

قلت: مرحى! مرحى! فهكذا قال الراوي ونسيت، وهكذا يفيد التعليم في السامع النجيب!

يقول شكسبير: وماذا في اسم؟

كثير يا شكسبير!

الضحك في صورته الجسدية تنفيس عن الجسد المكظوم ذلك معناه الحرفي كما نراه رأى العين. فالضحك في صورته الجسدية حركة متتابعة في الصدر والحلق والفم يكثر بها تجدد الهواء في الجسم المكظوم، فيشعر على أثر هذه الحركة بطلاقة بعد حبس، وفرج بعد ضيق وخليق بهذه الحقيقة المحسوسة أن تقودنا إلى عرفان معنى الضحك من الوجهة النفسية، أو من الوجهة الفكرية فهو أيضاً تنفيس عن النفس المكظومة، أو الفكر المكظوم، وهو تعويض للحرية الضائعة، والطلاقة المحدودة ولهذا تكثر الحاجة إليه في أيام الاستبداد ولهذا تشتهر الأمم التي طالت فيها عهود الاستبداد بكثرة التنكيت، وشيوع النوادر المضحكة بين أبنائها وربما كان هذا مرجع الشهرة التي اشتهر بها المصريون في طوال العصور الغابرة، حين كانوا يُبتلون بالدولة الطاغية بعد الدولة الطاغية، تنالهم بالعسف والجور، وينالونها بالنكات والنوادر، فإذا هم يلوذون من الضحك بدرع تعينهم على الصبر وسلاح يعينهم على الانتقام.

وللاستبداد موقفان متناقضان من الضحك والضاحكين فالمستبد المسيطر على الناس بالجبروت والطغيان يريد أن يهولهم وينزل منهم منزلة القداسة والتنزيه، فلا يحب أن يصبح بينهم عرضة للضحك، ولا أن يجترئوا عليه بالعبث والاستهزاء، ولو من وراء ظهره ولكنه بعلم أنه يضيق عليهم الخناق، وأنه يلجئهم إلى التنفيس عن صدرهم بوسيلة من الوسائل، ولو على حسابه كما يقولون إن لم تكن ثمة وسيلة أخرى. ولهذا قيل إن الزعماء النازيين - وفي مقدمتهم هتلر - يقربون إليهم فئة من المضحكين والمتندرين يسمعون منهم نكات الجماهير وفكاهات العامة والخاصة، ويجتهدون مع هذا في تحويل النكات والفكاهات عنهم ما استطاعوا، ليضحك الشعب ويحتفظ الحكام المستبدون بهالة الرهبة والوقار في وقت واحد ولست أذكر أن أصحاب الدعوة النازية غضبوا لشيء قبل الحرب كغضبهم لقول الخصوم عن الشعب الألماني إنه

شعب محروم من ملكة الفكاهة، وأنه لا يعرف الضحك والسخرية، وإلا لما طال صبره على المظاهر الحكومية التي هي أدعى الأشياء إلى الضحك والسخرية!

فقد أثارت هذه التهمة غضب جوبلز وتلاميذه فأوعزوا إلى الصحف الناقدة عندهم أن تقيم الدليل على بطلانها، وراحت هذه الصحف تعقد عندهم أن تقيم الدليل على بطلانها، وراحت هذه الصحف تعقد المباريات لأصحاب النوادر والتعليقات الفكاهية وتغريهم على الظهور تارة بالتنويه والثناء، وتارة بالجوائز والمكافآت. وكانت البدعة الشائعة في تلك الأيام بدعة تقصير الملابس والإفراط في التجرد بين النساء الأوربيات ومنهن الألمانيات، فانهال المتندرون على هذه البدعة بالتنكيت والتسخيف واتخذوها هدفاً للمباريات والمسابقات. وأذكر من نوادرهم في ذلك نادرة لا بأس بها فاز صاحبها بإحدى الجوائز الأولى، وهي أن رجلاً دخل المنزل فرأى امرأته في كساء جديد يشبه أكسية الحمام في القصر والخفة، فبادرته قائلة: ألا تعلم يا فلان أنني ظفرت بخائط يبيعني الكسوة التي أحتاج إليها بالتقسيط؟

فنظر إليها حانقاً وقال: (وأظن هذا هو القسط الأول من الكسوة؟...)

واعتقد الدعاة النازيون أنهم أبطلوا تهمة خصومهم بجملة هذه النكات، وأثبتوا للشعب الألماني ملكة الفكاهة التي ينكرها عليه المنكرون على أن الواقع - بنجوة من المفاخرات القومية والخصومات السياسية - أن أبناء الحواضر في ألمانيا لا تفوتهم النكتة اللاذعة، ولا تخلوا تعليقاتهم على الحكام والنظم الحكومية من الفكاهة الصادقة، وإن لم يبلغوا فيها شأو أبناء العواصم الأخرى كفينا وموسكو ولندن وباريس

ويغلب على اعتقادنا أن الصرامة النازية قد شحذت هذه الملكة ولم تقتلها، لأن هذه الصرامة تلجئ الناس إلى التنفيس عن صدورهم بالنكات والفكاهات، وكل ما هنالك أنها لا تنطلق على الألسنة ولا في الصحف كما تنطق في البلدان التي تملك القول والنشر ولا تبتلي فيهما بالحجر الشديد وقلما خرج من برلين - أو من ألمانيا على العموم

- صحفي أو ناشر أو مذيع من الذين أقاموا فيها أيام الحرب إلا جاء معه بجعبة حافلة بالنوادر والفكاهات التي يتهامس بها أبناء برلين وميونيخ وغيرهما من الحواضر الكبرى أحد هؤلاء وليام شيرر الذي كان يذيع من ألمانيا لمحطات الإذاعة الأمريكية المعروفة باسم (اتحاد كولومبيا) وقضى في أواسط أوربا سبع سنوات ثم غادرها بعد أن ضاقت به الحال وتعذر عليه أن يبلغ سامعيه شيئاً يستحق عناء التبليغ

ضاقت به أسباب الإذاعة لأنهم كانوا يحذفون معظم كلامه أو يحذفون كلامه كله في بعض الأيام، وكانوا إذا حذفوا كلامه كله خشوا أن يعزو السامعون ذلك إلى شدة الرقابة على الأنباء فاعتذورا عنه بغير علمه قائلين: إنه لا يذيع الليلة لأنه تأخر عن الموعد! ولم يقولوا إنه لا يذيع لأن الكلام الذي أعده للإذاعة قد حذف كله، أو لم يبق منه ما يستغرق الوقت المقدور لأنبائه وحاول في بداية الأمر أن يعالج ذلك بما في وسعه فأقلع عن الصراحة ما استطاع وتعرَّض منها بالتلميحات والإشارات وتحميل اللهجة شيئاً من معاني السخر أو التوكيد أو الإيحاء. فما راعه ذات يوم إلا رقيب يلازمه ويشير على بعض الكلمات بالمداد الأحمر، ويقيس الفواصل بين جملة وجملة في أثناء الإلقاء حذراً من أن يكون المتكلم قد أراد بطول السكوت أن يلفت السامعين إلى أطواء كلامه السابق أو المقبل. فلما استحال عليه أن يقول كل ما يريد، وأن يقول بعض ما يريد، وأن يقول بالإشارة والسكوت ما يستحق أن يقال، لم يجد بداً من الرحيل، فرحل وفي ذاكرته وأوراقه جعبة من الخواطر والحواشي والتعقيبات تنبئ العالم بأضعاف ما كان ينبئهم به في أحاديثه ورسائله، وضمنها جميعاً كتاباً من الكتب النادرة في تاريخ الحرب الحاضرة، فما انقضى على صدوره عام واحد حتى كان قد أعيد طبعه ثماني مرات

في هذا الكتاب طرَف من فكاهات أهل برلين وفكاهات الموقف هنالك على الإجمال، تدل على أن الإنسان في إبان الخطر يحتاج إلى منفس الفكاهة - إلى الضحك - حاجة لا يبالي معها بالموت أو العذاب، لأنها حاجة فردية شعبية لا حيلة فيها للحرب وضروراتها ولا للسطوة وطغيانها. فلا بد من التنفيس أو الانفجار

قال فيما رواه من تلك النوادر إن مدير مصلحة الوقاية نصح إلى الناس أن يبكروا بالنوم أول الليل قبل موعد الطائرات المغيرة. فكان أناس منهم يستمعون نصحه وأناس يؤثرون السهر وانتظار الموعد وهم أيقاظ

فإذا انطلقت زمارات الإنذار أقبل اللاجئون إلى المخابئ يحي بعضهم بعضاً بمختلف التحيات أسعد الله صباحكم!. . . تلك تحية الذين بكروا بالنوم فلما استيقظوا تبادلوا التحية التي تعودوا أن يتبادلوها عند اليقظة

أسعد الله مساءكم!. . . تلك تحية الذين لم يناموا بعد، فهم يتبادلون تحيات السامرين في المساء هيل هتلر!. . . تلك تحية الذين ناموا من أول الحرب، ولا يزالون نائمين. .

وقال إن أهل برلين يزعمون أن هتلر وجورنج وجوبلز ركبوا طيارة فسقطت وهلكوا. . . ومن الذي نجا؟. . . الشعب الألماني وربما كانت فكاهة الموقف أدعى إلى السخر من الفكاهة التي يخترعها المخترعون فمن ذلك ما سمعه المراسل من بعض أهل (كولون) وأكد صدقه، وهو عجيب لولا أن الحروب لا تخلوا من عجيب

قال: إن الكساوى الرسمية قد كثرت في البلاد الألمانية أثناء الحرب حتى تعذر التمييز بينها فمن ذلك أن ضابطاً من سلاح الطيران البريطاني تلكأت به طيارته على مقربة من كولون فهبط على الأرض ودخل إلى المدينة يائساً من النجاة لتسليم نفسه، وتوقع أن يقبض عليه الشرطة أو من يصادفه من رجال الحكومة فلم يقبض عليه أحد ممن رأوه، بل كانوا يقفون له ويتلقونه بالتحية ويخلون له الطريق فاطمأن بعض الاطمئنان وكانت معه ورقات من عملة النقد الألمانية يحملها الضباط الطيارون عادة كلما حلقوا فوق ألمانيا، فخطر له أن يمضي بعض الوقت في دار للصور المتحركة ريثما يتفق له ما هو مقدور له من الاعتقال أو النجاة فطلبت منه العاملة نصف الأجر المكتوب على التذكرة، لأنه يلبس الكسوة العسكرية ثم خرج من دار الصور إلى حيث سلم نفسه إلى ديوان الحكومة، وذكر لهم أنه أمضى بعض الوقت في المدينة ولم يقبض عليه أحد. فلما سألوا عاملة التذاكر فيمن سألوه: هل بعتِ هذا الرجل تذكرة لحضور الصور

المتحركة هذا المساء؟ قالت نعم. وبنصف الأجرة مع السرور، لأننا لا نظفر في كل ليلة برجل من سلاح هتلر الممتاز! ذلك أن الضابط كان يحمل على كتفه هذه الحروف الثلاثة: (س. هـ. م) أي سلاح هوائي ملكي. . . ففهمت العاملة وفهم السابلة معها أن الحروف اختصار لسلاح هتلر الممتاز، وهو أحق الأسلحة عندهم بالتوقير، وأندرها في أطراف البلاد!

إن صحت هذه القصة فهي من فكاهات القدر، وعندما تجب الفكاهة على الناس لا تندر بينهم فكاهة الأقدار ولكنه ضحك كالبكي

وصدق ابن الرومي حيث قال:

إن مــــــــن نابـــــــــه الزمـــــــــان بخطـــــــــب

لأَحـــــــــق امـــــــــرئ بـــــــــأن يتســـــــــلى

ومن كان في وسعه تسلية الفكاهة، ففي وسعه من التسلية كثير.

نحو من النحو!

(. . . نعلم ما كتبتموه، عن العلاقة بين كبرياء المتنبي وولعه بالتصغير في الهجاء، وإنه أكثر ما يُرى مصغراً حين يهجو مغيظاً مخنقاً أو يستخف متعالياً محتقراً كما يقول عن كويفير والخويدم والنويبية والأحيمق والأعيّر والشويعر وأهيل والزمان وأهيل العصر إلى آخر هذه الأمثلة التي أكثرتم من ضربها وقلتم (أنه إذا لم يصغر المهجوّ باللفظ صغره بالمعنى، فكان أعداؤه اللئام عنده شيئا قليلا كما قال:

يؤذي القليل من اللئام بطبعه ... من لا يقلكما يقل ويلؤم

وإنه قد يلعب بهذا الإحساس المائل في نفسه على الدوام لعب المرء بعادة مغروسة فيه فيتخذ منه نكتة نحوية كقوله

على ذكر ابني عضد الدولة:

وكان ابنا عدو كأثراه ... له ياءي حروف أنيسيان

يريد أن يقول: إذا كاثر العدو عضد الدولة بابنين كابنيه فجعل الله ابني العدو كياءين تضافان إلى كلمة إنسان فتزيدانه في عدد الحروف وتنقصانه في القدر.

ثم قلتم: وهذا غير غريب من رجل شديد الإحساس بالصغر واعتاد التصغير باللفظ وعرف عنه إدمان الاطلاع على كتب النحو).

(وقد اطلعنا أخيراً على مقالة في مجلة الثقافة لبعضهم يقول فيها: إن هذا من طغيان النفسانيات على الأدب، وأن التصغير في شعر المتنبي لم يكن لتكبره وإنما هو أداة من أدوات الهجاء يعرفها شعراء هذا الفن في الأدب العربي وفي غيره من الآداب: أداة لصيقة بفن أدبي بذاته لا وليدة لطبيعة نفسية عند من يستخدمها، وليست هناك رابطة تلازم بين التكبر والتصغير حتى ولا في شعر المتنبي نفسه لأنه قد يستخدمه للتعظيم كما قال:

أحاد أم سداس في أحاد ... لييلتنا المنوطة بالتنادي

إلى آخر ما جاء في مقالة الثقافة.

فهل لكم أن تدلوا برأيكم في تعقيب الكاتب لأنه تفسير لرأيكم وفيه بيان لمسألة من مسائل النفسيات والأدب؟... الخ)

محمد جابر

والذي نراه في التعقيب الذي أشار إليه الأديب أن استعمال التصغير للتعظيم لا يبطل استعماله للتحقير، وأن صيغة التصغير ليست أداة لصيقة بكل هجاء كما جاء في مقال الكاتب بمجلة الثقافة، فلا يزال استخدام المتنبي هذه الصيغة بتلك الكثرة التي لم تعهد في شعر غيره أمراً يرجع إلى خلائقه الشخصية ويرجع البحث فيه إلى النفسيات التي لا انفصال بينها وبين الأدب، لأن الأدب قبل كل شيء تعبير عن شعور، وليس أولى من النفسيات بالبحث في كل شعور.

فليست صيغة التصغير أداة لصيقة بالهجاء، ولم نرها قط بهذه الكثرة في أشعار الهجائين المنقطعين لهذا أو المشهورين به قبل سائر الأبواب.

والمتنبي لم يكن من شعراء الهجاء المشهورين به في اللغة العربية، وإنما اشتهر به شعراء آخرون كالحطيئة وجرير والفرزدق ودعبل وابن الرومي على التخصيص.

فلم لم يكثر التصغير في أشعار هؤلاء الهجاءين؟

ولم كان المتنبي منفرداً بهذا الإكثار؟

مرجع الأمر إليه لا إلى الهجاء، وأقرب شيء أن يخطر على البال أنه صبغ هجاءه بصبغته النفسية فأختلف من هذه الناحية لأنها هي ناحية الاختلاف بينه وبين غيره من الهجائيين على أن الهجاء ضروب وليس ضرب واحد في اللغة العربية أو فيما عداها من اللغات ومرجع الأمر في تعدد ضروبه إلى تعدد النفوس وتعدد الأمزجة وتعدد الشعور الذي يشعر به الهاجيِ نحو من يهجوه

فهناك هجاء الرجل الوضيع المهين

وهناك هجاء الرجل المتكبر العزيز

وهناك هجاء الرجل المهذب الشريف

وهناك هجاء الرجل المتوقح البذيء

وهناك هجاء التهكم والسخرية، وهجاء العنف واللدد، وهجاء النقد وهجاء الإيذاء ومناط التفرقة بينها هو النفسيات وما تشمله من فوارق الحس والعاطفة، وليس المرجع فيها الى باب في علم النحو يتكلم على مواضع التصغير

وأعجب شي يقال هو أن المتنبي لم يستصغر المهجوين ولم يكثر من التصغير لأنه متكبر، بل أكثر منه لسبب أخر... ثم لا يدري أحد ما هو ذلك السبب آخر؟

لم يمتنع الاستصغار بسبب التكبر؟ ولم لا يكون التكبر سبباً للاستصغار؟ أي عجب في ذلك؟ بل أي مخالفة فيه للمعقول والمعهود! بل أي شي أقرب منه إلى الفهم والتعليل؟

أيمتنع هذا القول لأنه من النفسيات وكل ما كان من النفسيات فهو ممنوع غير مقبول؟

أيمتنع لأن قراراً مجهولاً لا نعرف نحن مصدره قضى بمنعه وتحريمه وإقصائه من عالم الفرض والتقدير؟

إننا لا ننفي أن المتنبي كان متكبراً مطبوعاً على الكبرياه، ولا ننفي أن التكبر مطبوع على أن يستصغر الناس، ولا ننفي أن صيغة التصغير تستعمل للتصغير والتحقير، فلماذا ننفي ولع المتنبي بالتصغير مرجعه إلى طبيعة الكبرياء فيه؟

لماذا؟ للنفسيات التي يسمع باسمها من يسمع فيظن أنها حجاب حائل بين المتنبي والاستصغار بصيغة التصغير؟

أما أن المتنبي قد أستعمل التصغير للتعظيم والتكبير، فهو إذا صح لا يمنع أن التصغير يستخدم أيضاً للتصغير، بل هو الأصل والتعظيم مجاز عارض عليه

يقول أحد إنني رأيت المليمات في أيدي الفقراء، فيجيء سامع بالنفسيات - أو قل سامع بالاقتصاديات - فيقول: كلا. كلا. هذا بعيد! هذا غير معقول! هذا إقحام للاقتصاديات في شئون الحس والعيان! لأنني رأيت بعيني المليمات في خزانة المصرف الكبير، وفي خزانة الغني العظيم!

نعم ظريف كذلك الكلام الذي يبطل باب التصغير للتصغير جملة واحدة لأن التصغير قد أستعمل حينا في معنى التكبير. . .!

على أن البيت الذي قيل إن المتنبي خالف به هذه السنة لا يدل بمعنى من معانيه على أنه قد نسى فيه الكبرياء أو نسى عادة الاستصغار فهو يقول في وصف الليلة التي ضاق بها: أحاد أم سداس في أحاد ... ليلتنا المنوطة بالتنادي ومن الميسور أن يلحظ القاري لهجة التأفف في تصغيره تلك الليلة المبرمة، كأنه يستكبر أن يعروه الضيق من ذلك الشيء الصغير، وإن لج به المطال وهبه مع ذلك كان ينوي التعظيم والتقديس لتلك الليلة المبرمة ولا ينوي أن يتأفف منها ويستكثر عليها أن تبرمه وتثقل عليه، فهل كلمة في قصيدة واحدة تبطل عشرين كلمة في عشرين قصيدة!؟ وهل يحصل كل هذا لأجل خاطر (النفسيات) قدس الله سرها وبارك في عمرها!

ولقد كان كثيراً من كاتب المقال الذي أشار أليه الأديب صاحب الخطاب أن يزعم أن الحقير والتكبير في صيغة التصغير يتساويان، فأما أن يقول إن التحقير هو الممتنع الذي لا يقبل، وأن الاستصغار من جانب التكبر المطبوع على الكبرياء هو الغريب المريب فتلك نفسيات لله درها من نفسيات!! وفنون حماها الله من فنون!!

وما نشك في أن الأديب (محمد جابر) رجل يريد أن يضحك ولا يريد في الحقيقة تفسيراً لما هو غني عن التفسير؛ فإن لم يجد شبعه من الضحك في طراز تلك النفسيات ومعرض تلك الفنون فغاية ما عندي من القول أن المتنبي رحمة الله لم يشرفني بأمانة سره، ولم يطلعني على دخائل صدره، فإذا كان قد ذكر لبعضهم أنه لم يولع بالتصغير لقصد التصغير فهو وذمته فيما ادعاه، وللأديب عليه اليمين الحاسمة إن تردد في قبول دعواه!. أما نحن فغاية ما نعلمه أن المتنبي كان رجلا متكبرا، وأن المتكبر يستصغر الناس فلا عجب أن يولع بصيغة التصغير. وهذا حسبنا وحسب القاري فيما زعمناه

الإصلاح المرتجل، أو الإصلاح الجزاف، قلما ينفع وقد يضير ونعني بالإصلاح المرتجل أو الإصلاح الجزاف كل إصلاح لا ينظر فيه إلى الحاجة التي تدعو إليه، ولا إلى الأساس الذي يقوم عليه. فهو كالدواء الذي يعطى قبل معرفة الداء، أو كالعلاج الذي يعالج به الجهلاء كل داء: يفيد إن أفاد مصادفة واتفاقا، ويضير - إن ضار - لأن الشأن فيه أن يضير فلا بد لكل إصلاح من أساس يقوم عليه، ومن حاجة يغنى فيها بمقدارها وعلى حسب البيئة التي تنشأ فيها ولا بد لأولئك كله من تقدير صحيح لكثير من الأمور نقول ذلك لان حديث الإصلاح في العالم يجري على كل لسان، وينقله المتحدثون في مصر ليقيسوا عليه ما يقبل المقياس، وبخاصة ما نقلته الأنباء البرقية عن (مشروع بيفردج) في البلاد الإنجليزية، وما يرتبط به الشعب التي لا عداد لها في نواحي السياسة والاقتصاد والأخلاق ولا نريد هنا تفصيل القول في هذا المشروع، فلهذا التفصيل وقته حين ترد ألينا البحوث المسهبة التي أحاطت به من جانب القبول ومن جانب الإنكار، ومن جانب آخر غير القبول والإنكار وهو الاعتراف بالأساس كله - أو ببعض الأساس - ثم التعقيب عليه بالإضافة أو التعديل. فحسبنا الآن أن نقول إن المشروع يشتمل على النظم التي تكفل إعانة العجزة والعاطلين ووقاية الأطفال وتأمين الصحة العامة وتعويض المصابين في الأعمال القومية، وما شاكل ذلك من ضروب الإعانة والصيانة والترفيه. حسبنا هذا الآن إلى أن يحين الأوان للبحث المفصل في أجزائة، والمقابلة المفصلة بينه وبين نظائره من مواطن الإصلاح في البلاد المصرية، وفي البلاد الشرقية على التعميم. إلا أن الوقت قد حان - بل حان جداً - لإقامة هذه المشروعات الإصلاحية كلها على أساسها القويم، حذرا من يوم نصاب فيه بالإصلاح المرتجل أو الإصلاح الجزاف، فلا ننجو من غوائله إلا بعد حرب أخرى كالحرب الحاضرة، وساءت تلك من نجاة هي والمصيبة سواء!

هذا الإصلاح على أي أساس يقوم؟

إن بعض الفضلاء الذين عقبوا على مشروع بيفردج في مصر قد فهموا منه أنه غلبة للمذهب الحكومي على المذهب الفردي في معقل الفلسفة الفردية، وهو البلاد الإنكليزية وقبل التعقيب على هذا الفهم لا غنى لنا عن بيان وجيز لما نقصده من المذهب الحكومي والمذهب الفردي في صدد هذا الإصلاح، وصدد كل إصلاح من قبيله فالمذاهب الاجتماعية تتشعب كثيراً بين الأمم الأوربية، ولكنها بعد هذا التشعب تنحصر في طرفين اثنين جامعين، وهما توسيع الحرية الفردية أو توسيع الرقابة الحكومية فالديمقراطية تميل إلى توسيع الحرية الفردية والنازية والفاشية والشيوعية - أيضاً - تميل إلى توسيع الرقابة الحكومية وأنصار الديمقراطية يرون أن الرقابة الحكومية ينبغي أن تتناول الأقل الأقل من شئون الأفراد الخاصة والعامة، ولا تمتد إلى شأن من شئون العقيدة أو التربية أو المعاملة إلا بحساب شديد وقدر مقدور لا يتجوز في المزيد

وأنصار الرقابة الحكومية ينوطون بالحكومة تدبير الثروة العامة وتدبير التربية العامة والهيمنة على الأعمال ورؤوس الأموال والعلاقة بين أصحاب المصانع وعمالهم وأصحاب المتاجر والمشترين منهم، كأنما جميع هؤلاء موظفون في شركة كبيرة أو ديوان كبير والميل الغالب بين الإنجليز هو الميل إلى الحرية الفردية سواء تمثلت في الديمقراطية أو في نظام من النظم التي تشبهها وتؤمن بصلاحها.

نزع القوم إلى ذلك في مسائل الاقتصاد، وفي مسائل السياسة، وفي مسائل الاخلاق، وفي مسائل الآداب والفنون والعلوم. فالحرية الفردية عندهم هي النعمة التي لا تعد لها نعمة، والحكومات كلها عندهم إنما هي وسيلة من وسائل تحقيق هذا النعمة الكبرى: معيار صلاحها هو مقدار فلاحها في تحقيق هذه الغاية التي لا تعلوها غاية وتخلص مذهب القوم هذا في كتاب هربرت سبنسر عن الفرد والدولة، أو عن (الإنسان) والحكومة، تكبيراً لمكان الفرد، وحداً من مكان الدولة وساعد القوم على الإيمان بهذا المذهب أنهم من قديم الزمان فرديون غالون في حب الحرية الفردية، أو هم فرديون تاريخياً وجغرافياً ونفسياً باتفاق الزمان والمكان، وأحداث الحياة،

وتطورات النفوس هم سكان جزيرة منعزلون، وأقاليمهم كانت فيما مضى ولايات منعزلة يشبه أن يكون كل أمير في ولاية ملكاً مستقلاً لا يدين للحكومة العامة بغير الولاء من بعيد؛ وهم ركاب سفن تعودوا أن تكون كل سفينة كأنها وحدة مستقلة فوق الماء وتحت السماء؛ وهم تجار يحرصون على حرية الأخذ والعطاء؛ وهم من سلالات الشمال (الضبابي) التي تعود أهلها الإيواء إلى المنازل كأنها القلاع والحصون لا يطرقها طارق بغير إذن من أصحابها.

فهم حريون فرديون معرقون أفنستطيع أن نقول اليوم إن مشروع الإصلاح الجديد قد قلب هذه الأوضاع جميعها رأساً على عقب وخرج بهزيمة الحرية الفردية في معاقل الديمقراطية؟

إن قلنا ذلك فنحن ناقضون لمنطق الحوادث، بل منطق الحرب الحاضرة على الخصوص لأن الحرب الحاضرة في صميم لبابها حرب بين المعسكرين المتقابلين: معسكر الحرية الفردية ومعسكر الرقابة الحكومية.

فمنطق الحوادث إذا انتصر الديمقراطيون ألا تهزم الديمقراطية، ولا تنتصر عليها الرقابة الحكومية في نطاق واسع بعيد الآماد وجائز أن تقتبس الديمقراطية بعض الحسنات من النظم الأخرى التي تقبل (الاندماج) في بنيتها ولكن الذي لا يجوز أن تنتصر فيصاب مبدأها بالهزيمة، وينهدم أساسها الذي قامت عليه إنما الحقيقة أن مشروع بيفردج وما يحكيه من مشروعات الإصلاح هو انتصار للديمقراطية على الفاشية والشيوعية في جوهر الخلاف بين المعسكرين هو انتصار للقول بتعاون الطبقات على القول بحرب الطبقات، ومن ثم فهو انتصار للديمقراطيين على المعسكر الذي يقابلهم في الحرب الحاضرة فالديمقراطية هي حكم الأمة بالأمة للأمة، ولا تناقض بين هذا المبدأ - أو هذا الأساس - وبين تعاون طبقات الأمة على المعيشة الاجتماعية وأنصار الرقابة الحكومية هم القائلون بحرب الطبقات، وهم الذين يرجعون بالتاريخ من قديم إلى غلبة طبقة واحدة وتسخير سائر الطبقات لمنافع تلك الطبقة، ويعتقدون أن تفسيرهم للتاريخ الإنساني يقتضي في النهاية أن تتغلب الطبقة

العاملة وحدها على الدولة فتنزع الأموال والأملاك وتدخلها في حوزة الدولة التي لن يكون فيها يومئذ غير طبقة واحدة فعبرة الحرب الحاضرة هي انتصار الديمقراطية التي تقول بتعاون الطبقات بل تقول بعموم مذهب التعاون في العلاقات الدولية والعلاقات الداخلية على السواء

وإذا كان للتاريخ الإنساني معنى فهذا هو منطق الحوادث في صراع اليوم، وهذا هو منطق الحرب الحاضرة إذا شاءت لها الأقدار أن تجري إلى نهايتها على استقامة واعتدال ونحن نؤمن أن الحرية الفردية هي رائد التاريخ الإنساني من قديم الزمان، وأنها هي مناط التقدم في الحياة الاجتماعية وفي الحياة النفسية بلا اختلاف ويخطئ من يرجعون بنشأة الحرية الفردية إلى الثورات الحديثة، أو إلى العهد الذي شاعت فيه كلمة الديمقراطية على ألسنة الخاصة والعامة في الجيلين الأخيرين فالحرية الفردية - أو الديمقراطية - قد نشأت مع الأديان السماوية الذي آمن فيه الإنسان بالروح وآمن بالتكليف، وآمن بالمساواة بين الأرواح أمام العزة الإلهية يومئذ عرف الفرد أنه فرد له روح تناط بها الفرائض والواجبات، ويناط بها الثواب والعقاب ويومئذ أصبح الإنسان (وحدة) مستقلة أمام الله ويومئذ قام أساس الديمقراطية في الأرض قياماً لا يزول ولن يزول، إلا أن يذهب التاريخ فوضى بغير دلالة وغير اتجاه

ولهذا آمنا حق الإيمان بهزيمة الطغيان في هذا الصراع القائم على الرغم من ظواهر النجاح في بداية الصراع. لأننا آمنا حق الإيمان أنه واقف في طريق التيار الجارف، وأن الإنسانية لو كانت تريد أن تدين بالقوة الغاشمة لما كانت بها حاجة إلى الأديان تظهر بعد القوة الغاشمة هي - أي القوة الغاشمة - عند الإنسانية من بداية عهدها، بل من بداية عهد الحيوان ولهذا نفهم أن مشروعات الإصلاح على سبيل المثال مشروع بيفردج لا تدل على هزيمة الحرية الفردية ولا يمكن أن تدل عليها وتطمع في النجاح ولكنها تدل على التعاون بين الطبقات، والتعاون بين الأمم، والتعاون بين الأفراد تدل على العالمية، وهي اتساع لحرية الفرد في العالم كله، واتساع لحرية كل وطن من

الأوطان وهي تقدم في الاتجاه القديم: الاتجاه الذي تجلى يوم آمن الإنسانية بروحه وتكليفه واستقلاله بين يدي الله

فالحرب الحاضرة قد أظهرت أن الأمم تحارب متعاونات بين جميع طبقاتها، وينبغي أن تجني فضائل السلم في جميع طبقاتها وعلى هذا الأساس يقوم الإصلاح الصحيح السالك في سبيل التاريخ، وليس على أساس التناحر بين طبقات بغير أمل في التوفيق والتعاون والسلام تبقى الطبقات وتتعاون على المثال الذي ظهر في هذه الحرب

مر بمصر في الشهر الأخير كاتب من أشهر كتاب السير والتراجم بين الإنجليز العصريين، وهو الأستاذ فيليب جوداللا صاحب سيرة شرشل وسيرة بالمرستون وسيرة نابليون الثالث بطل الإمبراطورية الثانية، وسيرة ولنجتون القائد الإنجليزي المعروف، ويحسبها بعضهم خير ما كتب في مادة السير والتراجم على الإجمال، وهذا عدا التراجم القصيرة التي كتبها لكثير من القادة والأدباء من الإنجليز وغير الإنجليز

وقد دعاه (الاتحاد الإنجليزي المصري) بالقاهرة إلى المحاضرة فيه، فاختار للكلام موضوعاً هو أقرب الموضوعات إليه وأولاها أن يخاطب السامعين والقراء فيه وهو (عمل المترجم) أو عمل الكاتب الذي يُدوِّن تاريخ العظماء ومن لهم تاريخ يستحق التدوين

والحق أنه أدى عمل المحاضر في الأندية العامة أحسن أداء، فلم يكن متعمقاً معاظلاً[1] يتعب السامع الذي يتتبع الحديث ويريد أن يفهمه وهو يصغي إليه؛ ولم يكن هيناً يقول ما ليس يستحق الإصغاء ولا يخرج السامع منه بمحصول يفيد، بل قال ما يفيد ويمتع، وأودع حديثه السهل زبدة الآراء التي يستصوبها من وجهة نظره في صناعة الترجمة وكتابة السير بأسلوب يخيل إلى من يستخفه أنه تسلية ساعة، وهو في الواقع خلاصة حياة، بل خلاصة حيوات إذا نظرنا إلى التراجم الكثيرة التي خرج منها بهذه الخبرة الطويلة فالترجمة عنده ليست (بقصة) طلقت اللهو والعبث ولبست لبوس الوقار والاحترام!. . ولكنها تاريخ من التواريخ يطبق على الأفراد بدلاً من تطبيقه على الأوطان والأقوام وهي من ثم جديرة بأكبر عناية في العصور الحديثة التي شاع فيها تهوين الفرد وتعظيم شأن القوى والعوامل الجامعة، فإن الفرد ولا ريب يدل على شيء كثير، لأنه يرتفع على القمة فيشير إلى اتجاه التيار، فإن لم يكن هو الفعال لكل شيء

[1] عاظَلَ الشاعِرُ في شِعْرِهِ : جَعَلَ بعضَ أَبياتِهِ مفتقرًا في بيانِ معناهُ إِلى بعض

في زمانه فهو على التحقيق دليل على مجرى الزمن وعلى ما يكمن وراءه من الدوافع والمؤثرات

وقال: إن الفرق بين فرنسا قبل نيف وثلاثين سنة وفرنسا اليوم إنما هو في جملته فرق بين رجلين: بين فوش وبيتان! كما أن تاريخ إنجلترا في السنوات الأخيرة إنما هو مظهر الفرق بين شمبرلين وشرشل ولما تعرض لفن السيرة أو فن كتابتها حذر الكاتب من فتنتين تغريانه من جانبين مختلفين: أحدهما جانب البلاغة الأدبية، والآخر جانب النظريات النفسية أو (السيكولوجية)

فليس الغرض من الترجمة إخراج قطعة من الأدب البليغ، وإن صح أن تجئ أدباً بليغاً في عرض الطريق وليس الغرض منها عرض النظريات النفسية التي قلما تفضي إلى يقين، لأنها بين شيء مفروض معلوم من قبل، وشيء لا نفرضه ولا نعلمه على الإطلاق، وفي كلا الأمرين مضلة تستلزم التحذير إنما الترجمة عمل (يدوي) كما يقال إذا شئنا أن نقابل بينها وبين الخلق الخيالي أو الخلق المثالي الذي يتطوح فيه بعض رجال الفنون. ففي حدود هذا العمل المتواضع ينبغي أن يقبع المترجمون!

ثم حذر الكاتب من خطأين آخرين عند الكتابة عن الأقدمين: خطأ النظر (الفوقاني) أو النظر إلى أعلى وهو ينتهي إلى الإطناب في الحماسيات والبطوليات وتخيل الأقدمين كأنهم جيل من العمالقة أو الملائكة العلويين وخطأ النظر (التحتاني) أو الترفع عن الأقدمين كأنهم أطفال في حاجة إلى التربيت والإغضاء، مع شيء من الابتسام والاستهزاء وإنما النظرة الوسطى هي النظرة القويمة، أو النظرة السواء لا إلى الأعلى ولا إلى الأدنى، فتراهم بالعين التي تنظر إلى الحياة اليومية ولا تعيبها مبالغة في الإكبار أو مبالغة في التصغير

وقال: إن الكاتب الذي يشغل ذهنه فترة طويلة بالبحث في سيرة عظيم من العظماءِ لا يلبث أن يشعر عامداً أو غير عامد أنه تقمص ثياب (سكرتير خصوصي) لذلك العظيم. . . فهو يجاريه في ميوله وبدواته، ويترقب ملاحظاته وإشاراته، فيفوته من ثم

أن يستقل بذهنه في النظر إليه. وهذه أيضاً فتنة من فتن الترجمة المغرية للكتابة، عليهم أن يتقوها جاهدين ليكتبوا عن عظمائهم عادلين مستقلين

وعلى هذا النمط كانت محاضرته طريفة مفيدة، عليها الطابع الشخصي الذي ينم على تجارب الكاتب نفسه ويصطبغ بصبغة منه، وفيها الأحكام العامة والآراء الأساسية التي تصلح للمشاركة والاقتباس.

وقد لقينا في منزل صديقنا الدكتور هيكل باشا فسرنا منه أنه مسرور من الجمهور المصري المثقف الذي تحدث إليه، وأنه يلاحظ أنه لم يشعر بفرق قط بين الجمهور الذي كان يتحدث إليه في البلاد الإنجليزية والجمهور الذي تحدث إليه في القاهرة، فالمصريون كما قال يضحكون في مواضع الضحك التي يفطن لها الإنجليز، ويشبهون نظراءهم من السامعين هناك في التفاتات الذهن ومواقف التعقيب عند الإصغاء إلى حديث

قال: والضحك علامة الحضارة، لأن الشعوب البربرية لا تضحك، فذكرنا في تلك اللحظة قولة نيتشه إن الضحك من نكتة واحدة هو أول الدلائل على تقارب فكرين.

وقلنا: بهذه العلامة ثق كل الثقة أن المصريين أعظم المتمدنين!

وسألناه: ألا تنوي أن تكتب شيئاً عن مصر بعد هذه الرحلة؟ فقال مبتسماً: لا أزعم أنني أكتب عن وطن بعد رحلة أيام. . . ثم قال: ولعلي أنا الرجل الوحيد الذي قضى في روسيا أسبوعاً ولم يكتب عنها سفراً طويل الصفحات

تلك خلاصة مقربة لجملة الآراء التي تشتمل عليها فلسفة الترجمة في رأي الأستاذ جودالا، وهي آراء نوافقه على معظمها ولا نكاد نخالفه إلا في الميل إلى البطولة أو إلى الصبغة الأدبية، فإذا استطاع الكاتب أن يستروح نفحة البطولة من مترجمه وأن يبثها في قلوب قرائه فهو في اعتقادنا عمل لا ضير فيه، بل هو واجب مطلوب مفيد لا غبار عليه وكذلك إذا استطاع أن يرضي ذوق الفن ويرضي الحقيقة في وقت واحد فتلك غاية حرية أن تتطاول إليها أعناق الكتاب، لأن تجميل الحياة بالصدق الفني غرض من الأغراض النبيلة التي نخلص إليها من طريق التراجم كما نخلص إليها من طريق الشعر

والنحت والتصوير والغناء، فكل حياة خلت من الجمال الفني ومن الصورة المثالية التي يسبغ عليها ذلك الجمال هي حياة فاترة أو حياة ناقصة لا تستحق أن تعاش، وإنما مقياس الحياة التي تكتب عنها التراجم والسير هي الحياة التي تعاش وفيما عدا ذلك نوافق الأستاذ جودالللا في فلسفته التي اختارها بعد التجربة الطويلة لصناعة الترجمة وتمثيل العظماء

نوافقه ونحن نعلم صعوبة هذه الموافقة في زمن كثر فيه المنكرون لقيمة الفرد وقيمة العظمة، وتردد فيه القول بسلطان العوامل الاجتماعية كأنه هو السلطان الذي ليس وراءه سلطان وقد رأينا فعلاً كاتباً إنجليزياً يعقب على محاضرة الأستاذ جودالللا من هذه الناحية، ويسأله سؤالاً يلخص مواضع اعتراضه فيقول: هل هتلر ظهر في البيئة الألمانية لأنها بيئة مقلوبة أو أن هذه البيئة انقلبت لأن هتلر ظهر فيها؟

والظاهر من سؤال المعترض أنه يأخذ بالقول القائل إن الفرد نتيجة منفعلة، وليس بسبب فاعل في الحوادث التاريخية، وأن العظيم لا ينبغ في أمة إلا إذا تمهدت له دواعي الظهور من تكوين تلك الأمة؛ فالعوامل الاجتماعية إذن هي موضع البحث والالتفات، وليست عظمة العظماء ولا جهود الأفراد

وهذا مذهب مبالغ فيه قد جنح إليه الاشتراكيون على الخصوص لأنهم يردون العوامل كلها إلى المجتمع وعناصر تكوينه ومعيشة أبنائه، ولكنهم مهما يبالغوا في هذا فلن يستطيعوا أن يزعموا أن العظماء والصغراء سواء، وأن النوابغ لا يقدرون على عمل يعجز عنه المحرومون من النبوغ. ومتى كان مسلما أن النوابغ يعملون وأن عملهم لا يذهب سدى فهذا هو المهم الذي يستحق النوابغ من أجله دراسة الدارسين وإعجاب المعجبين

يسأل السائلون الفارغون: من صاحب الفضل في السياحة؟ المركب أو البحر أو الريح؟

وهذا سؤال فارغ كما قلنا لأن السياحة كلمة لا معنى لها إذا انفرد المركب أو انفرد البحر أو انفردت الريح ففي الساعة التي تلفظ فيها كلمة السياحة البحرية تتمثل لما

كل هذه العناصر مجتمعات، ولكنها تتمثل أو لا تتمثل تعجز كل العجز عن إنكار حق المركب في إتمام السياحة، وحق المسافر في الاختيار بين مركب ومركب، وحق الشركات في إنشاء المراكب ورصد المسافات كيفما كانت البحار والرياح.

وكذلك العظمة المشهورة كلمة تستلزم وجود الآدميين الذين يشتهر بينهم العظيم بغير فلسفة ولا تعمق ولا استطلاع لمغيبات. ولكن ماذا في هذا مما ينفي أن العظيم أفعل من الصغير، وأن هذه الأفعال جديرة بالتقديم والتأخير في سير الأمور؟

فالفرد شيء والعوامل الاجتماعية شيء، ومن قال إن الفرد لا يهم فقد أنكر الغاية من إصلاح المجتمع كله، لأن كل إصلاح لا ينتهي إلى الاهتمام بالأفراد فهو إصلاح تركه وإنجازه سواء.

للأحوال الاقتصادية في كل مجتمع شأن عظيم في توجيه حياة أفراده، وفي إقامة النظم الحكومية والآداب العرفية بين أهله هذه حقيقة لا حاجة بها إلى كشف ولا إثبات، ولا حاجة بها إلى كاشفين ولا مثبتين، لأنها أقرب إلى البديهيات المقررة والأصول المسلمة، منها إلى (نظريات) الأدلة والبراهين.

هذه حقيقة لم يكشفها الاشتراكيون والشيوعيون، وإن غلا فيها دعاة الاشتراكية والشيوعية، فإن شاءوا من خصوم مذهبهم أن يثبتوها معهم أو يثبتوها قبلهم أو بعدهم فما من معارضة في إثباتها بين فريق من الناس حيث كان ولهم أن نزيدهم خطوة أخرى في هذا الطريق فنقول: إن الأحوال الاقتصادية وراء كل حركة عظيمة من حركات التاريخ؛ فما سجل التاريخ قط من نهضة أو دعوة أو ثورة أو انقلاب إلا كان للأحوال الاقتصادية في كل أولئك أثر واضح وسهم كبير.

وإلى هنا نقف فلا نستطيع أن نتقدم خطوة؛ لأننا إذا تقدمنا خطوة أخرى وراء هذه الخطوة قلنا ما ليس في وسعنا أن نقوله وليس في وسع العقل أن يقبله ويسيغه: قلنا إن الأحوال الاقتصادية هي كل شيء وإنها هي المهم الذي لا مهم غيره، وإن العوامل الكونية لا تشتمل على شيء آخر غير المضاربات والأسواق وتداول الأسعار.

وهذا مسخ للحياة ومسخ للفكر ومسخ للعوامل الكونية بل هذا مسخ للكون حتى ليصبح من بداية الخلق إلى نهايته (بورصة) مضاربات ومثابة سمسرة وشطارة واختلاس وليس في وسعنا أن نقول ذلك، وإن قاله الاشتراكيون، وقاله الغلاة من الاشتراكيين وهم الشيوعيون الماركسيون فالأحوال الاقتصادية شيء هام ولكنها ليست بكل شيء هام، والأحوال الاقتصادية لها سلطان على المجتمع ولكنها ليست بكل سلطان في المجتمع، وليس المجتمع مع ذلك بالقضاء الذي لا يرد له حكم في حياة الأفراد، فقد يكون للأفراد حكم نافذ في كل مجتمع نشأوا فيه.

والقول بهذا هو الحد الفاصل بيننا وبين دعاة الاشتراكية الذين يلغون سلطان الفرد ليثبتوا سلطان المجتمع، ثم يقيمون للمجتمع قانوناً لا فكاك منه ولا محيد عنه، وهو قانون الضرورة المادية أو الضرورة الاقتصادية أو ما يسمونه في الجملة بالتفسير المادي للتاريخ.

ليست الأحوال الاقتصادية بكل شيء وليس المجتمع بكل شيء وليس الفرد لغواً إلى جانب المجتمع أو الأحوال الاقتصادية. ولكنه شيء، والمجتمع شيء، والأحوال الاقتصادية شيء، وليس من الضروري اللازم لإدراك حقيقة من الحقائق الاجتماعية أو الفلسفية أن نلغي شيئاً من هذه الأشياء أحسبنا في عهدنا هذا أحوج ما كنا إلى توكيد هذه الحقيقة مرة بعد مرة، لأن توكيدها في الأذهان غير عاصم من ضلال الشعور - بل ضلال الوهم - الذي يتمثل لبعض الناس كأنه مذهب من مذاهب التفكير.

فتغليب الشئون الاقتصادية، أو تغليب الدوافع المادية على دوافع الحياة في الأفراد، هو في الواقع (قدرية) جديدة يلجأ إليها العاجزون في زماننا هرباً من التبعة، كما لجأ العاجزون فيما مضى إلى قدرية القرون الوسطى كان العاجزون فيما مضى يقولون: ماذا نصنع؟ وما الحيلة؟ هذا قدر مكتوب لا حيلة فيه!

فأصبح العاجزون في زماننا يقولون: ماذا نصنع؟ وما الحيلة؟ هذه ضرورات الاقتصاد التي تسيطر على إرادة الأفراد، فلا لوم عليهم، ولا تقصير من قبلهم، وإنما اللوم لوم المجتمع والتقصير تقصير (الأحوال) وما كتبنا قط مقالاً عن الفرد والمجتمع إلا أحسسنا بخطر هذه القدرية في أسئلة بعض السائلين، وتعقيب بعض المعقبين، فعلمنا أنه (مهرب) جديد من التبعات الفردية، يلوذ به من يحاول فيفشل فيعز عليه أن يلوم نفسه على فشله، فيذهب به ليلقيه على كاهل المجتمع أو الأحوال الاقتصادية أو التفسير المادي للتاريخ.

أحسسنا بخطر هذه القدرية مرة أخرى على أثر المقال الذي كتبناه عن أسس الإصلاح، والمقال الذي كتبناه عن فلسفة الترجمة، لأننا أثبتنا في كلا المقالين وجود

الفرد إلى جانب وجود الدولة أو المجتمع، وخرجنا منهما بالرأي الذي خلاصته أن الفرد قد يكون قوة فاعلة كما يكون نتيجة منفعلة، وإن الإصلاح الذي يلغي حرية الفرد فساد شر من كل فساد.

كتبنا ذينك المقالين فلم يسترح إليهما أناس ممن استراحوا إلى القدرية الجديدة، لأن إعفاء النفس من اللوم راحة، وإلقاء التبعة كلها على المجتمع راحة، وفيما ذكرناه في المقالين ما يزعج المستنيم[1] إلى تينك الراحتين.

يجب أن نقول إن المجتمع هو كل شيء، وإن الذنب كله هو ذنبه، ليستريح المؤمنون بالقدرية الجديدة ولكننا لا نقول ذلك، وليس لنا أن نقوله. . . بل نحن نقول إن المجتمع شيء فقط وليس بكل شيء، وإن عليه ذنوباً وليست عليه جميع الذنوب، فالقدريون إذن غير مستريحين، و (الحوقلة) من نوع جديد هي كل ما يعبرون به عن هذا القلق المستحدث: قلق التفسير المادي للتاريخ!

ومهما يبلغ هؤلاء القدريون الجدد من الحوقلة فما هم بقادرين على إلغاء الفرد وإنكار قسطه من توجيه التاريخ، وبخاصة حين يكون من عظماء الأفراد

قالوا مثلاً ما طاب لهم أن يقولوا عن المظالم التي ضيقت على الناس منذ قرون فهجروا بلادهم إلى القارة الأمريكية، وقالوا ما طاب لهم أن يقولوا عن الأسباب الاقتصادية التي حفزت أناساً إلى البحث عن طريق جديد إلى الهند، فعثروا من طريق المصادفة على تلك القارة الأمريكية.

ولكن الذي قالوه كله لن يفسر لنا الفوارق بين الناس في التأثر بالمظالم أو بالعوامل الاقتصادية؟

فالمظالم قد نزلت بملايين من الناس، والعوامل الاقتصادية قد أحاطت بملايين من الناس، فلماذا وجد فيهم من ينفر من الظلم فيهجر بلاده ووجد فيهم من يستكين إلى الظلم فيقيم حيث أقام؟ ولماذا قنع أفراد بالشظف وطمح أناس إلى الوفر والثراء في قطر مجهول؟

---

[1] اسْتَنَامَ استقرَّ

أهي العوامل الاقتصادية التي فرقت بين فرد وفرد في حظوظ الحياة وملكات الشعور؟ وإذا كانت العوامل الاقتصادية لم تخلق هذا فمن أين لها أن تلغيه، وكيف يسعها أن تفسر التاريخ وهذه الفوارق الحيوية باقية عندها بغير تفسير.

كانت نظم الحكم في الدولة العثمانية واحدة، وكانت أسباب المعيشة بين رعاياها متماثلة أو متقاربة، ولكنها كانت تدين اليوم لسلطان قوي فإذا هي قوة مخيفة لمن حولها، ثم يخلفه على الأثر سلطان ضعيف فإذا هي مطمع لكل طامع فيها فكيف ينكر المنكرون مع هذا أن اختلاف الأفراد لا يغير ولا يبدل في حوادث الأمم وحركات التاريخ؟ وسألنا سائل: ماذا يكون (صلاح الدين) لولا الحروب الصليبية؟ فسألناه: وماذا تكون الحروب الصليبية لولا صلاح الدين؟ بل لماذا تغيرت الوقائع كلما تغير القواد في تلك الحروب وفي جميع الحروب؟

والطريف في مناقشات هؤلاء القدريين أنهم يعقدون المقارنة بين الأبطال والحوادث ليرجحوا نصيب الحوادث على نصيب الأبطال، فيضعون صلاح الدين في كفة ويضعون الحوادث الصليبية في كفة أخرى، ويفعلون مثل ذلك في جميع الحوادث وجميع الأقدار، فإذا هم يبدعون للناس وزناً لا يستقيم في ميزان لأن المقارنة إنما تنعقد بين الأمثال والأشباه؛ فتنعقد المقارنة بين الحروب الصليبية وبين الغارات التترية، أو بين حروب الإسلام وحروب المسيحية، أو بين الثورة الفرنسية والثورة الروسية، ثم تنعقد المقارنة بين القواد هنا والقواد هناك، وبين العظماء في نهضة والعظماء في نهضة أخرى، ليتبين لنا ما استطاعه هؤلاء وما استطاعه هؤلاء، ويثبت لنا الميزان رجحان هذا أو رجحان ذاك.

أما من هو الأرجح: صلاح الدين أو الحوادث الصليبية؟ فهو ميزان لا يفيد ولا يدل على شيء، ولا يثوب إلى أصول أو الوجه الصحيح في بيان فعل صلاح الدين وفضله أن تنعقد المقارنة بينه وبين فرد آخر ممن كانوا في عصره ولم يفعلوا مثل فعله ولم يؤثر لهم فضل كفضله. فيقال إنه فعل وأن غيره لم يفعل، وأن اختلاف الأفراد يؤدي إلى اختلاف الأفعال.

لكن الغرام الذي ملك على هؤلاء القدريين ألبابهم هو غرام البخس والانتقاص، وأقرب طريق إلى البخس والانتقاص أن يكون العظماء فضولاً وترفاً (مستغنى عنه)... لأنهم أفراد وليسوا بمجتمع وافر التعداد!

نحن أبناء الشرق أحرى الناس أن نفلت من إرهاق هذه الآفة، لأننا قد فنينا في المجتمع آلافاً من السنين. فحق لنا أن نعطي الفرد أمداً من الحرية يرتع فيه جيلاً أو جيلين، ولو على سبيل التجربة إلى حين!

على أن الحقيقة البينة التي نؤمن بها أن المستقبل للفرد إلى آخر الزمان إن كان للزمان آخر نستقصيه، وأن التاريخ الإنساني هو تاريخ الفرد في اضطلاعه بالحقوق والواجبات. فكلما أوغلنا في القدم رجعنا على التوالي إلى أزمنة تقل فيها حقوقه كلما تقل فيها واجباته، وكلما تقدمنا مع الزمن كانت آية التقدم أن الفرد يزداد في تبعاته أي يزداد في حقوقه وواجباته، ويعرف له شأناً في المجتمع مستقلاً به ما وسعه أن يستقل، أو هو على الجملة أوفر استقلالاً مما أتيح له في مجتمعات الزمن القديم.

ومقاييس التقدم كما قلنا في بعض كتبنا (كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال: فإذا قسنا التقدم بالسعادة فقد تتاح السعادة للحقير ويحرمها العظيم، وإذا قسناه بالغنى فقد يغنى الجاهل ويفتقر العالم، وإذا قسناه بالعلم فقد تعلم الأمم المضمحلة الشائخة وتجهل الأمم الوثيقة الفتية. إلا مقياساً واحداً لا يقع فيه الاختلاف والاختلال، وهو مقياس المسئولية واحتمال التبعة. فإنك لا تضاهي بين رجلين أو أمتين إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسئولية، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته، ولا اختلاف في هذا المقياس كلما قست به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد، أو بين الهمجي والمدني، أو بين المجنون والعاقل، أو بين الجاهل والعالم، أو بين العبد والسيد، أو بين العاجز والقادر، أو بين كل مفضول وكل فاضل على اختلاف أوجه التفضيل.

(فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع)

ومعنى ذلك أن التقدم هو الاعتراف بالفرد والاعتراف بشأنه في المجتمع، والخروج به من ربقة القدرية التي تفرض عليه سلطاناً يستغرقه ويطويه.

القراءة في زمن الحرب

هل للإقبال على القراءة في ومن الحرب أسباب حقيقية؟ وإن كانت لها أسباب حقيقية فما هي؟ وكيف يستفاد من هذا الإقبال خير فائدة؟

تلك بعض الأسئلة التي استخلصتها من خطاب مطول في هذا الموضوع، وأحسبه من أحق الموضوعات بالدراسة في الوقت الحاضر، لأنه موضوع القراءة الذي تنطوي فيه سائر الدراسات فأما أن الإقبال على القراءة له أسباب حقيقية فذلك ما ليس فيه شك ولا يحتاج إلى بينة إذ كل شيء حاصل فله لا محالة أسبابه الحقيقية، وألا لم يحصل ولم يكن له وجود، وإنما يجوز الخلاف في دوام هذه الأسباب وزوالها، أو في قوتها وضعفها، أو في خلوصها وما قد يشوبها من العوارض الغريبة عنها

فأما أنها حقيقية فذلك أمر لا محل فيه لخلاف والأسباب التي تدعو إلى الإقبال على القراءة في هذه الفترة كثيرة لا تنحصر في ناحية واحدة، وقد تنحصر في جملة الأسباب التالية

فمنها أن البريد الأوربي لا يحمل إلى مصر كل ما كان يحمله إليها من الكتب والصحف والمجلات من معظم البلدان فقد كان يرد إلى مصر بريد حافل بهذه المطبوعات في كل أسبوع، وكان له قراء مثابرون على مطالعته كلما وصلت رسالة من رسالاته. فانقطع بعض الذي كان يصل من فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا، وقل وصول بعض الذي كان يصل من إنجلترا وأمريكا، وتحول قراؤه إلى مراجع أخرى يشغلون بها وقت القراءة، ومعظمها من المراجع العربية الحديثة أو القديمة

ومن تلك الأسباب أن الصحف اليومية كانت منها صحف تصدر في أربع وعشرين صفحة أو عشرين، وصحف تصدر في ست عشرة صفحة ولا تقل عنها، وكانت إلى جانبها صحف أسبوعية تصدر في أربعين صفحة وتزيد عليها في بعض الأسابيع فنقص كل ذلك نقصاناً بيناً بغير تدريج طويل، وأصبح الحد الأقصى للصحيفة اليومية في أكثر الأيام أربع صفحات، وعم النقص سائر الصحف والمجلات فأوشكت أن تصدر

في ثلث عدد صفحاتها قبل الحرب الحاضرة وكل هذا النقص تقابله زيادة في وقت القراءة عند من تعودوا مطالعة الصحف والمجلات في حجمها الأول، ولابد لهذا الوقت من شاغل يناسبه ويجري في مجراه

وإلى جانب النقص في الصفحات ألف الناس الأخبار التي لا يعرض لها كثير من التنويع والمفاجأة، وندرت المناقشات السياسية الق يشتد فيها الجذب والدفع والتأييد والتفنيد، وينشط القراء إلى متابعتها بحماسة التشيع تارة إلى هذا وتارة إلى ذاك، فأصاب القراء شيء من الفتور إلى جانب النقص في المادة المقروءة لو أنهم نشطوا إليها.

ومع هذا كله كثر الوقت الذي يتسع للقراءة لانصراف الناس عن السهر في خارج البيوت، إما لتقييد الإضاءة أو لقلة الجديد في دور الصور المتحركة ودور التمثيل ومع هذا وذاك كثرت النقود بين الأيدي وتيسر شراء الكتب بالأثمان التي أوجبها غلاء الورق وغلاء تكاليف الطباعة، وقال الخبراء بشئون الاقتصاد إن كثرة النقود في الآونة الحاضرة دليل على رخاء صحيح وليست من عوارض التضخم التي تنشأ أحياناً من شيوع العملة الورقية؛ إذ الناس يبيعون محصولاتهم وتبقى معهم أثمانها في داخل البلاد، خلافا لما كان يحدث قبل سنوات من تصريف هذه الأثمان إلى خارج القطر بالسفر أو باستجلاب البضائع الأجنبية. فهذه الأثمان المحفوظة في البلاد وهي ثروة حقيقية مكسوبة من موارد حقيقة وليست بالثروة المصطنعة التي تنشأ من شيوع الورق النقدي بغير مقابل معروف

وخلاصة ما تقدم أن الإقبال على قراءة الكتب العربية يرجع إلى تحول بعض القراء من مادة إلى مادة، وإلى اتساع وقت القراءة، وإلى تيسير الشراء، ويدوم ما دام هذه الأسباب فإذا ضعفت طاقة الشراء، أو ضاق وقت القراءة، أو توافرت المادة الأولى التي كانت متوافرة قبل سنوات، فقد يتغير هذا الإقبال، وقد تثوب الحال إلى ما كانت عليه من قبل، أو تتمخض عن حال جديد لم نعهده حتى الآن

هذا الحال الجديد الذي لم نعهده حتى الآن قد يأتي من ناحية واحدة معلقة على تيسير الورق وتيسير الطباعة فإذا تيسر الورق وتيسرت الطباعة بقية أيام الحرب

ثبت في البلاد العربية عادة يصعب تغييرها، وإن عاد البريد الأوربي إلى نظامه السابق وعادت الصحف الأوربية والأسبوعية إلى نطاقها الأول:

تلك عادة القراءة في الكتب وحسبانها في حاجات الحياة العصرية ومطالب المجتمع المهذب، فإنها عادة قد تتأصل في مصر كما تأصلت في البلدان الأوربية على كثرة الصحف فيها واتساع صفحاتها وتنوع موضوعاتها ويزيد هذه العادة تمكيناً أن يتيسر ورق الطباعة من مصانع وطنية توالي مصر وبلاد الشرق القريب بما هي في حاجة إليه؛ فإن رخص الورق يغري بطبع الكتب الرخيصة التي تقبل عليها جميع الطبقات، ولا سيما إذا اجتمع لها إغراء الرخص وإغراء الموضوعات

أما الاستفادة من الإقبال على القراءة في زمن الحرب خير فائدة مستطاعة فذلك موقوف على معنى الفائدة التي نرمي إليها فإن كانت فائدة الريح فسبيلها أن تعطي (جمهور القراء) ما يشتهيه من الموضوعات التي يحسبها جديرة بالقراءة قيمة بالفائدة وإن كانت فائدة الثقافة فسبيلها أن تعطي جمهور القراء ما هو في الواقع محتاج إلى علمه، وإن لم يخطر له ذلك

ومما لا شك فيه أن جمهور القراء يحتاج إلى كثير، وإن كثيراً مما يقرأه لا حاجة به ولا غناء فيه، وإن الوقت قد حان لتزويده بما يحتاج إلى عرفانه من أحوال العالم اليوم وأحوال العالم بعد نهاية الحرب، إلى زمن طويل

فبين الموضوعات التي كانت مهملة أكبر إهمال يعاب على أبناء الحضارة في العصر الحاضر، موضوع المشاكل الاجتماعية والسياسية في قارة أوربا، وفي البلاد الغربية على الإجمال فقلَّ جداً في مصر وبلاد الشرق القريب من كان يتابع هذا الموضوع ويعرف ما ينبغي عرفانه من أطوار الفكر وصراع الدخائل الاجتماعية في كل أمة من الأمم وارتباط ذلك جميعه بمقاصد الحكومات ومقاصد الزعماء الذين يقبضون على أعنة تلك الحكومات أو على أعنة الهيئات السياسية فكم من المصريين المثقفين - ولا نقول الجهلاء - كان يعرف ما ينبغي أن يعرف عن مسألة (التقسيم الجديد) في الولايات المتحدة؟

وكم منهم كان يعلم حقيقة العناصر التي أيدت هتلر في ميدان السياسة الألمانية؟ أو حقيقة العناصر التي أيدت فرانكو في ميدان السياسة الإسبانية؟ أو حقيقة الخلاف بين ستالين وتورتسكي وما يتصل به من خطط روسيا وعلاقتها بالشرقين الأقصى والأدنى؟

كم منهم يعلم ما وراء البضائع اليابانية المنشورة في أسواقنا من حبائل الاستعمار ومطامع الاستغلال؟

كم منهم كان يعرف زعماء الأمم على ما فرطوا عليه فيعرف ما يصنعونه وما يريدونه خليقاً أن يصنعوه أو يريدوه؟

إن الذين عرفوا ذلك لجد قليلين وإن الذي أصابنا من جهل ذلك لجد عظيم

لأننا أخذنا بالحرب ولما نتبين من تياراتها كيف تتجه سفينة النجاة، وكيف تهب رياح الأخطار فإذا أحببنا ألا تفاجئنا السلم مثل هذه المفاجأة، فعلى الذين بأيديهم أمر القراءة والطباعة أن يملئوا الأذهان بالمعارف والمعلومات التي تغني في استطلاع الأحوال والمقاصد بعد الحرب الحاضرة، إلى زمن طويل ما الذي تريده هذه الأمة أو تلك؟ ما الذي يريده هذا الزعيم أو ذاك؟

وما الذي يخلص فيه؟ وما الذي يماذق فيه؟ وما الذي تواتيه عليه الأسباب الحاضرة؟ وما الذي يخشى أن يعرقله من الأسباب المنظورة؟

بعض ذلك غيب لا سبيل إلى استطلاعه

وبعض ذلك عيان مشهود أو في حكم العيان المشهود، من أخبار الأمم ودراسات المفكرين، وسوابق التاريخ، وضرورات الاجتماع و (الاقتصاد)

ولا يزال في الوقت متسع لاستدراك ما فات، ولا يزال الباب مفتوحاً لمن يلج فيه، ولا تزال الحاجة كل يوم في إلحاح ومزيد من الإلحاح ومهما يكن من قصر الوقت الباقي من زمن الحرب، فانقضاء هذا الوقت في معرفة الحقائق والتأهب للطوارق خير من قضائه في الإهمال والتسويف، وليكن إقبال الناس على القراءة حافزاً لمن يعنيهم أن يقرءوا ما يصلح للفهم في كل زمن وما يصلح للفهم في الزمن الأخير من الحرب على

التخصيص. وليس الكتاب وحدهم أصحاب الشأن في الكتابة لأنهم لا يملكون زمام الأمر إلا قليل. فلو كنا على ما نود من توافر الأداة الثقافية لنهض بالأمر جمع قادر أولو جاه ومال يقررون الموضوعات ويوزعون الأبواب وينفقون على ثقة من الكسب وعلى توقع للخسارة في وقت واحد، أو يراوحون بين ما يربح وما يحمل الخسارة، فلا يهمهم أن يربحوا من كل شيء ما داموا لا يخسرون من كل شيء

إننا لقادرون على ذلك لو أردناه

وإننا لمريدوه لو أدركنا دواعيه، وأدركنا عقباه

فهل ندركها؟

إن قلنا: (فيها قولان) وكفى، فنحن متفائلون.

قرأت في مجلة (روز اليوسف) حديثاً للسيدة الجليلة قرينة قاسم أمين رحمه الله، نشرته المجلة لانقضاء خمس وثلاثين سنة على وفاة ذلك المصلح الكبير، وكان من المصادفات الموفقة أن تؤدي هذا الواجب - واجب الذكرى - مجلة تصدرها سيدة. ففي ذلك بعض الوفاء (المناسب) لموضوع الوفاء

وقاسم أمين رحمه الله حقيق بالتذكار لغير سبب واحد: حقيق بالتذكار لغزارة علمه؛ وحقيق بالتذكار لنزاهة قضائه؛ وحقيق بالتذكار لدماثة خلقه ولطافة ذوقه وامتزاج الثقافة الروحية فيه بالثقافة الفكرية؛ وحقيق بالتذكار قبل كل شيء، وبعد كل شيء، لدعوته إلى إنصاف المرأة وإخراجها من ربقة الظلم الذي كان محيطاً بها وبالرجال

كتبنا عنه قبل ثلاثين سنة في (خلاصة اليومية) فقلنا: (إن المرأة المصرية مدينة لقاسم؛ لأنها كانت سجينة فأطلقها، وكانت أمة فأعتقها. والأمة المصرية مدينة لقاسم؛ لأنها كانت شلاء فأبرأها من ذلك الشلل الذي أمسك شقها عن الحركة دهوراً وأعواماً. والإنسانية مدينة لقاسم؛ لأنه أنقذها من رق لا تجرؤ مصلحة الرقيق على مطاردته. والفخر في تحرير المرأة لا يزال الآن وبعد الآن من نصيب قاسم. أما من قفوه في هذا المقصد فهم إنما درجوا على طريق بينه الآثار وسلكوا في منهج مأبور)

وقد مضت الآن خمس وثلاثون سنة على وفاة قاسم، ومضى نحو خمسين سنة على دعوته الأولى في سبيل تحرير المرأة، وولد في يوم دعوته - بل في يوم وفاته - بنات يعشن الآن ويحسبن من الرجعيات المتخلفات، لأنهن يتحرجن من أشياء لا يتحرج منها بناتهن الناشئات اللائى ولدن متحررات، وغلون في الحرية أبعد الغلواء، ولما يسمعن باسم قاسم أمين ولا بالدعوة التي دعاها. لأنهن أخذن الحرية من عدوى المجتمع ولم يأخذنها من معرفة الحقوق ولا من العناية بنهضة المرأة

وإنصاف قاسم يستدعينا إلى تقرير هذه الحقيقة. فإن عدوى المجتمع شيء ودعوة قاسم إلى تحرير المرأة شيء آخر، وإنما اللوم كل اللوم فيما نعيبه الآن من الشطط

والبهرج الكاذب إنما هو من عدوى المجتمع لا من الدعوة القاسمية التي لا يزال لها فضلها ولا يزال لها حقها من الثناء وإن شط بها الطريق على غير ما أراد صاحبها، وعلى غير ما يستطيع أن يريد قاسم أمين قد رأى خطأ فنبه إليه

ويكفي أن يثبت الخطأ ليثبت الفضل في التنبيه إليه. ثم يكفي أن يكون التنبيه إليه شجاعة وتضحية ومجازفة بالمصير ليغنم صاحبه منا حمد الشجاع المقدم على التضحية في سبيل الخير والفلاح، ثم لا عليه بعد ذلك من الخطأ الآخر الذي جاءت به الحوادث ولا جناح عليه فيه

مثل قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة مثل محام فاضل غيور على حقوق الناس رأى إنساناً يساق إلى السجن بغير جريرة معروفة وبغير حجة مشروعة يقبلها القانون؛ فغضب المحامي الفاضل الغيور على الحقوق غضبة الكرامة الإنسانية، وجهد في إطلاق ذلك السجين جهده المستطاع، وبر بذمة القانون وذمة الصناعة وهو يخرجه من السجن ويسلمه إلى الطريق الطليق. ثم دهم الترام ذلك السجين المظلوم على مدى خطوات من سجنه فمات؛ أو بدا له أن يعرج على حانة فيذهل عن صوابه ويعتدي على بريء أو يصاب بما يسقمه ويضنيه هو لو بقي في السجن لما قتله الترام، ولا وصلت يده إلى الكأس أو أقدم على العدوان ولكن الرأي فيمن ظلمه وأدخله السجن، وفيمن أنصفه وأخرجه منه، لا يختلف مع كل ما حدث أو يحدث بعد انطلاقه فلا يقول أحد فيه ذرة من إنصاف أن ظالمه خير من منصفه، وأن إدخال الناس السجن بغير الحق عمل أشرف وأكرم من إعادتهم إلى الحرية وفاقاً لحكم القانون

والذي حدث في الدعوة إلى تحرير المرأة شبيه بهذا من وجوه كثيرة. فإن الذي أنكره قاسم من ظلم المرأة وحرمانها العلم والتربية والرعاية الإنسانية لحقيق بالإنكار، وحقيق بان يتبدل أو يزول. وهنا صنع قاسم ما لابد أن يصنع، وقام بالواجب الذي نكص عنه آخرون. فوجب له الحمد وعرفان الجميل، وإن ذهبت المرأة بعد ذلك في حريتها مذهباً لم يكن ليرضاه

دعوة قاسم هي فضيلة قاسم التي تحسب له ولا تحسب عليه أما (عدوى المجتمع) فليست من فعله ولم يكن في يديه أن يمنعها ولو كف عن دعوته وسكت عنها في زمانه كل السكوت

فهذا الشطط الذي نراه اليوم إنما نشأ من أمور كثيرة بمعزل عن الدعوة القاسمية وعن كل دعوة من قبيلها نشأ من رؤية المرأة الأوربية في مصر بالمئات والألوف، ثم هجوم الناس على المحاكاة العمياء بغير تفرقة بين الأحوال عندنا والأحوال عند الأوربيين ونشأ من الصور المتحركة التي تعرض لنا كل يوم مفاتن الحياة الغرامية بين الجنسين على نحو يراد به الإغراء وقلما يراد به التعليم والتهذيب ونشأ من انتقال الألوف من أبنائنا إلى أوربا يعيشون هناك كما يعيش الشبان الميسورون في غير رقبة ولا تقيد بالعرف الشرقي الذي نشأوا عليه ونشأ من القراءة الرخيصة التي يصح أن يقال فيها ما يقال في العملة (إن الرديء منها يطرد الجيد من الأسواق)

ونشأ من الأزمات الاقتصادية ثم من تداول الضنك والرخاء على البلاد، وفي هذا التداول ما فيهمن إفساد الأخلاق وزلزلة العرف والبيئة ونشأ من معقبات الحرب الماضية التي عمت جميع الأقطار، ولم تخصنا نحن الشرقيين أو نحن المصريين

وهذه كلها أسباب أين منها دعوة قاسم أمين وأين منها جهود قاسم أمين أو جهود نفر من المصلحين؟

إن القدوة الاجتماعية لتصنع الكثير ولو قامت في طريقه العقبات ولم يرتفع بالدعوة إليه صوت داع من الدعاة؟

فلم يقم في مصر (قاسم أمين) يؤلف الكتب ويستهدف للملام في سبيل (التنحيف) وإقلال الطعام وإن الإقلال من الطعام لعسير جد عسير، لأنه تضييق على الحرية وتضييق على الجسم في وقت واحد. . . ومع هذا تصبر المرأة على الحرمان والشدة وتزهد في الطعام المشتهى لتظفر (بالنحافة) الموموقة التي فرضتها العدوى الاجتماعية ولم تفرضها على المرأة دعوة ولا عقيدة بل فرضت الدعوة القوية صياماً في وقت من أوقات السنة وأنذرت على تركه بالعقاب في الدنيا والآخرة، فلم تصم امرأة واحدة

لاتقاء هذا العقاب إلى جانب عشر نساء ممن يصمن في العام كله مرضاة للعرف وتلبية للعدوى الاجتماعية. وما كانت دعوة قاسم رحمه الله بأقوى من دعوة الصيام ونذير العقاب على تركه باسم الدين إنما هي آفة الإصلاح حيث كان وإنما هي القسمة السيئة التي يصاب بها المصلحون في الحياة وبعد الممات ففي حياتهم يكرهون ويصابون وبعد حياتهم تعرض لدعواتهم العوارض التي لا ذنب لهم فيها ولا قدرة لهم عليها فيلامون من حيث يسكت الناس عن علة الملام

وقد تثمر دعواتهم أحسن الثمر بعد زمن طويل، فإذا الناس يستمتعون بالثمر وينسون غارسيه، ولعلهم إن ذكروهم لا يشكرون ولا يكترثون

ذلك كله حق نلمحه بيننا ونلمسه بأيدينا كل يوم، فإن أوجب علينا شيئاً فإنما يوجب علينا أن نضاعف الجزاء للمصلحين الذين يساء إليهم بمقدار ما أحسنوا، وإنهم لأقمن الناس بإحسان

قالت السيدة الجليلة قرينة قاسم بك في حديثها الذي أشرنا إليه: (إنما كان قاسم ينادي بالسفور الشرعي الذي لا يزيد عن إظهار الوجه واليدين والقدمين ولا يتجاوزه إلى إظهار العورات وإلى اختلاط المرأة بالرجل على النحو الحاصل الآن. وإني أعتقد أن قاسم بك لو كان حياً لما رضي عن هذه الحال بل لانبرى لمحاربتها. ويحزنني أن أرى الكثيرين يسيئون إلى قاسم أمين إذ يحملونه المسئولية عن هذا التهتك وينسبونه إلى دعوته، فيدللون بذلك على أنهم يسيئون فهم الدعوة)

وصدقت السيدة الجليلة في قولها عن مقاصد قرينها الكريم وهي بها أدرى. فقد أراد قاسم عزة للمرأة تخرج بها من ذلة الجهل وفقد المشيئة، فإذا بها قد وصلت إلى ذلة أخرى أسوأ لها من الذلة الأولى، لأنها من طريق المشيئة والحرية التي لا تحسنها

فالعوارض التي نراها الآن إن هي إلا عوارض الضعف عن حمل الحرية قد أصيب بها النساء كما أصيب الرجال في المرحلة الحاضرة، وغاية ما نرجوه أن تكون مرحلة انتقال وراءها مراحل استقامة وصلاح

عدت إلى كتب أدبائنا منذ أسبوعين لأكتب عنهم في مجلة (الاثنين) فقرأت في فيض الخاطر للأستاذ أحمد أمين مقالاً عن حرية المرأة بين جيلين يقول فيه بلسان البنات وهن يخاطبن أباهن:

(يا أبانا الذي ليس في السماء! رقصت أمنا فرقصنا، وشربت أمنا فشربنا، وشربت سراً فلتسمح لنا بحكم تقدم الزمان أن نشرب جهراً، ورأينا في روايات السينما والتمثيل حباً فأحببنا، ورأينا عريا على الشواطئ فتعرينا، وتزوجت أمنا بإذن أبيها فلنتزوج نحن بإذننا. قال: نعم. قلن: وقد أوصتنا أمنا أن نركب الروح ولكننا أمام مشكلة يشغلنا حلها. فإننا نرى شبان اليوم متمردين لا يخضعون خضوعك ولا يستسلمون استسلامك، فإرادتهم قوية كإرادتنا، وهم يحبون السلطة حبنا، فهم أحرار ونحن أحرار، وهم مستبدون ونحن مستبدات، فكيف نتفق؟)

والذين نراه أن شكوى الجيل الحاضر من مشكلة الزواج أعظم من شكوى الجيل الغابر الذي منه آباؤهم وأمهاتهم، فليست المسألة قوة إرادة من هذا الجنس أو من ذاك، ولكنها مسألة حرية لا يقوى على علاجها هذا ولا ذاك. وإن هان شأن الفتاة حيناً فإن شأن الفتى ليهون في حين آخر على حسب المناسبة العارضة أو على حسب قانون العرض والطلب الذي يتحدث به الاقتصاديون. ويغلب الهوان على الفتاة في المعترك الحاضر لأنها هي التي كانت مطلوبة فأصبحت معروضة أو طالبة فأصابها الرخص والهوان من طريق الحرية، وهو ما عنيناه بالذلة في طريق مشيئتها بعد الذلة التي أصابتها قديماً من فقد المشيئة. فإذا وقع الفتى في قيد الزواج فإنه ليشكو من زواجه أضعاف ما كان يشكوه أبوه وجده، ويحار فيه الحيرة التي لا مخرج منها إلا بالفرار أو الاصطبار

هي بلوى الحرية المفاجئة بعد بلوى العدوى الاجتماعية، وهي حالة جديدة تحتاج إلى (قاسم أمين) جديد يعالجها ويرفع العقيرة بالثورة عليها، ولا يكون في عمله إلا فاتح صفحة من الكتاب الخالد الذي فتح صفحته السابقة قاسم أمين قبل خمسين سنة. رحمه الله.